

الدكتور فيليب حِتّي
العرب
تاريخ موجز
دار العلم للملايين

العرب

تـاريـخ موجز



تاريخ موجز

تأليف

الدكتور فيليب حتي

استاذ آداب اللغات السامية
ورئيس دائرة العلوم الشرقية بجامعة برنستون سابقاً

دار العلم للملايين
بيروت

الطبعة الاولى ، بيروت ١٩٤٦
الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥٤
الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٦٥

مقدّمة الطبعة الثالثة

هذه محاولة جريئة لعلّه لم يُسبق اليها ترمي إلى حصر ما مرّ بالشعوب العربية من خبرة في حياتها في حقول السياسة والاجتماع والاقتصاد والفكر في كتاب صغير . وهي ترجمة لكتاب المؤلف بالانجليزية «العرب – تاريخ موجز» الذي نشرته أولاً مطبعة جامعة برنستون سنة ١٩٤٣ وبعدها مكملان وشركاؤها في لندن ونيويورك ورجنري في شيكاغو في احدى عشرة طبعة مختلفة .

وعمدت حكومة الولايات المتحدة بعد ظهور الطبعة الأولى فنشرت طبعة خاصة – بحجم صغير للجيب – في ٢٥٠٠٠٠ نسخة وُزّعت على افراد جيشها في شمالي افريقيا وفي آسيا الغربية .

وقد نقل هذا الموجز حتى الآن إلى اللغـــات الاسبانية والبرتغالية والفرنسية والهولندية والالمانية والهندية والبنغالية

والاندونيسية، وأذن بنقلهـا إلى لغات أخرى أوروبيـة وأسيوية .

وقد تلطف تلميذي وصديقي الدكتور جبرائيل جبور أستاذ الأدب العربي في جامعة بيروت الاميركية فأعانني في تحرير هذه الطبعة الثالثة للكتاب وتنسيق موادّه تبعاً للتطورات الأخيرة التي طرأت على العالم العربي في السنوات الأخيرة وتصحيح مسوداته عند الطبع فله مني خالص الشكر .

جامعة برنستون ، نيوجرسي ، في اول آب سنة ١٩٦٥

فيليب حتّي

فاتحة الطبعة الأولى

إن ما لاقاه كتابي المطوّل الموسوم بـ « هِستوري أوف ذي أرَبز » History of the Arabs (مكملان ، لندن ١٩٣٧ و ١٩٤٠ و ١٩٤٣) حدا مطبعة جامعة برنستون إلى أن تقترح عليّ وضع مُوجَز في تاريخ العرب بالانكليزية . وما ان اظهر هذا الموجز بعنوان « ذي أرَبز : اي شورت هِستوري » The Arabs : A Short History (برنستون ١٩٤٣و١٩٤٤) حتى أقبل عليه القرّاء إقبالاً اقتضى إعادة طبعه ست مرّات منها طبعة خاصة بالقوات الاميركية المسلحة . فانتشرت منه عشرات الآلاف من النُّسخ . ولقد تمت ترجمته إلى الاسبانية في الارجنتين . والمخابرة جارية بشأن نقله إلى البرتغالية وغيرها من اللغات .

وقد استعنتُ بثلاثة من رفاقي الذين ساهموا معي في منهاج

التدريس الخاص بالجيش الاميركيّ في جامعة برنستون وهم السادة شكري خوري وفرحات زيادة وابراهيم فريجي على ترجمة هذا المختصر إلى العربية . وهم بدورهم استعانوا بترجمة كتابي المطوّل التي كان قد ساهم في وضعها زميلي الدكتور ادورد جرجي ولم تُطبع بعد . فكان من نتيجة جهودهم هذا الكتاب « العرب : تاريخ موجز » . وأخيراً كلفتُ زميلي الدكتور نبيه امين فارس أن يتعهد مخطوطة هذا الموجز بعنايته ويشرف على طبعها ويصلح مسوداتها ويضع خرائطها وفهرسها. فاستحقوا جميعاً خالص شكري .

عن جامعة برنستون في ١٥ آب سنة ١٩٤٥

فيليب حتي

مكانة العرب في التاريخ

لم تمض على وفاة النبي محمد مئة سنة حتّى أصبح العرب أسياد دولة أعظم من دولة الرومان في أوج عزّها ، دولة امتدت أرجاؤها من بحر الظلمات غرباً إلى حدود الصين شرقاً ، ومن جبال أورال شمالاً إلى حدود السودان جنوباً . وردّد المؤمنون في كلمتَي الشهادة اسمَ الجلالة والرسول من رؤوس المآذن في جنوبي أوروبا وشمالي أفريقيا وأواسط آسيا ، فرجّعت جبال الاندلس وسهول الهند والصين ومجاهل الصحراء الكبرى أصداءَها . ودخل في دين العرب وفي لسانهم ودمهم من الشعوب واللغات والاجناس ما لم يعهده التاريخ من قبل ، حتّى في أخبار اليونان والرومان .

ولقد دوّن لنا التاريخ أخبار البابليين والاشوريين والكلدانيين والآراميين وغيرهم ممن ترعرع آباؤهم في مهد

الجزيرة العربية ثم نزحوا عنها إلى البلدان المجاورة حيث شادوا دُولاً عظيمة ما لبث ان أتى الدهر عليها فعفت آثارها واندرست . أما العرب فكانوا ولا يزالون منتشرين في مركز من أهمّ المراكز الجغرافية تخترقهُ طرق هي بمثابة حبل الوريد من جسم التجارة العالمية .

ومنذ وضعتِ الحربُ العالمية الأولى أوزارَها أخذ انتباه العرب إلى ما في ثقافتهم من ثروة يتزايد ، وأخذ شعورهم الوطني ينمو ويستعر . فأخذت مصر تنشد استقلالها ونودي بفيصل ابن الحسين ملكاً على العراق وبسط ابن سعود عاهل الجزيرة سلطانه على أواسط الجزيرة وشماليها . وفي أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها استطاع لبنان أن يحرز استقلاله ويتحرر من الانتداب ويؤسس أول جمهورية عربية وتلته سورية ثم نال الاردن استقلاله وأصبح مملكة تعرف بالمملكة الاردنية الهاشمية ، واطاحت ثورة ١٩٥٢ بالملكية في مصر وأصبحت جمهورية . وكذلك فعل العراق ونالت الجزائر والمغرب وتونس استقلالها وأسست الجامعة العربية التي تضم الآن ثلاث عشرة دولة عربية مستقلة لكل منها مندوب في هيئة الامم المتحدة ولاكثرها ممثلون ديلوماسيون في لندن وباريس وواشنطن وموسكو وكثير غيرها من العواصم في العالم .

فمن وسط الرماد الهامد انبعثت اليوم العنقاءُ حيةً — والعنقاء من طيور الجزيرة — قويةَ الجناحين . فالاسلام ، دين الجزيرة ، منتشرٌ اليومَ في أنحاء العالم بأسره . وعدد المؤمنين يبلغ اربعمئة

وثلاثين مليوناً . وأصوات المؤذّنين ترتفع من على رؤوس المآذن في جميع أنحاء العالم في كلّ ساعة من ساعات الليل والنهار فتملأ الفلك المحيط بالكرة الأرضية ، وتتصاعد إلى السماء .

ولم يقتصر ما شاده العرب في تاريخ العصور على انشاء دولة بل تعدّى ذلك إلى الثقافة والعمران . فلقد ورث العربُ المدنياتِ القديمةَ التي ارتفعت معالمها على شواطئ الرافدَين وعلى سواحل البحر الابيض المتوسط الشرقية وفي وادي النيل . واقتبسوا عن الاغريق والرومان القيم من مآثرهم ، ثم أضافوا اليه كثيراً مما ابتدعوه، ومن ثم نقلوه إلى أوروبا في عصورها المظلمة ونشروه فيها . فكان من جراء ذلك ان بزغ في أوروبا فجر تلك اليقظة العلمية التي لم يزل العالم الغربي ، ومنه اميركا ، يتمتع حتى اليوم بحسناتها .

وليس من شعب آخر قام في القرون الوسطى بما قام به العرب في سبيل تقدّم البشرية . (ونحن هنا لا نطلق كلمة عرب على أبناء الجزيرة فحسب بل على سائر الشعوب التي اتخذت العربية لساناً .) فبينما كان فلاسفة العرب مكبّين على دراسة تآليف ارسطو كان شرلمان ورجال بطانته يحاولون إتقان كتابة أسمائهم . وبينما كان علماء العرب في قرطبة يتردّدون على خزائن كتبها السبع عشرة (ومنها خزانة حوَت ٤٠٠,٠٠٠ مجلد) ويعودون إلى بيوتهم فينعمون بالاستحمام في حمامات بلغت الغاية في النظافة والاناقة كان الاساتذة والتلامذة في جامعة اكسفورد يستنكرون الاستحمام ويحسبونه من ملذات العيش الشهواتية

التي يجب الترفع عنها .

ولتاريخ العرب أهمية أخرى عندنا لأنه يدور على محورِ ثالثِ الأديان الموحِّدة وآخرِها من حيث الزمن . ذلك هو الدين الحنيف الذي يمتّ بنسب إلى اليهودية والنصرانية . فقد نشأت هذه الأديان الثلاثة في بيئة روحية واحدة – في أحضان الروح الساميّة . فالمسلم يعترف بأكثر العقائد اليهودية والنصرانية ، والعكس بالعكس .

ولقد عرف العرب في تاريخهم معنى النصر والهزيمة ، غير ان الفكرةَ التي دعا اليها النبي محمد ، فكرةَ التوحيد ، هي التي لازمها النصر فتغلبت على مختلف الشعوب على الرغم من تغلّب بعض هذه على العرب في ميادين القتال كالأتراك والمغول مثلاً . ومن أهمّ حقائق التاريخ الراهنة في عصرنا هذا ان الاسلام لا يزال قوّةً فعّالة في حياة الملايين من البشر من مراكش غرباً حتى الهند الصينية شرقاً ، بل لا يزال ديناً حياً يدين به نحو سُبع البشرية جمعاء .

أما اللغة العربية فهي اليوم وسيلةٌ للتعارف والتفاهم بين ثمانين مليوناً من الناس . ولقد كانت في أثناء بعض القرون الوسطى لغةَ العلم والثقافة والتقدّم والعمران في العالم قاطبة . فكان عدد المؤلفات الفلسفية والطبية والتاريخية والدينية والفلكية والجغرافية التي كُتبت بها في خلال المدّة الواقعة بين القرن التاسع والقرن الثاني عشر للميلاد أعظمَ مما كُتب بأيّ لغة أخرى . ولا يزال أثر اللغة العربية ظاهراً في لغات الغرب التي

استعارت منها مفردات علمية وفنية جمّة . ولا تزال حروفها أوسع الحروف انتشاراً بعد اللاتينية .

وعربُ اليوم أبعدُ عراقة في السلالة الساميّة وأكثر تمسكاً بتقاليدها من غيرهم من أبنائها . فقد حافظ العرب أكثر من سواهم على مميزات الأرومة السامية من جسدية وذهنية واجتماعية؛ وعلى الرغم من ان اللغة العربية هي أحدث اللغات السامية من حيث الأدب المدوّن فقد حافظت أكثر من العبرانية وشقيقاتها من اللغات السامية جميعاً على خصائص اللغة السامية الأم .

والأسلام هو غاية الكمال ديناً في مطابقة العقلية الساميّة . على ان لفظة «ساميّ» اتخذت في أوروبا واميركا معنى غير معناها الصحيح ، واقتصر استعمالها للدلالة على اليهودي دون سواه من الشعوب السامية . ولا مبرّر لهذا الخطأ سوى الجهل . فما يحسبه الأوروبيون والاميركيون من «الملامح السامية» — كالأنف اليهودي مثلاً — ليس هو بالسامي على الاطلاق. بل هو ما يميز اليهودي من غيره من الساميين . وقد ورثه اليهود عن الحثيين والحوريين لما اختلطوا بهم قديماً عن طريق التزاوج .

وتنحصر الأسباب التي تجعل العربي — وعلى الاخصّ البدوي — أفضلَ ممثل للأرومة السامية بيولوجياً ونفسياً واجتماعياً ولغوياً في عزلته الجغرافية في الصحراء ، وعدم تبدّل وسائل الحياة فيها وبقاء طرق العيش على ما كانت عليه منذ البدء . وما أصالة النسب وتجرّد السلالة عن الهجانة والاختلاط إلا نتيجة العزلة والانقطاع في وسط بيئة منزوية وعيش ضيّق كما

هي الحال في أواسط الجزيرة . ولدينا في جزيرة العرب ، مثال فريد للبداوة ولطريقة تكيّف الانسان بحسب مقتضيات الاقليم الذي يعيش فيه والتربة التي يدرج عليها . وإذا كانت هناك شعوب هاجرت إلى جزيرة العرب واستوطنت انجادها وواحاتها واختلطت بسكانها الأصليين كما هاجرت شعوبٌ مختلفة إلى بلاد الهند مثلاً واليونان وايطالية وبلاد الانكليز والولايات المتحدة وأقامت بين ظهراني السكان الأصليين واختلطت بهم فالتاريخ لم يترك لنا أثراً منها،ولا هو ترك لنا أي خبرعن فاتحين استطاعوا أن ينفذوا وراء الحواجز الرملية ويثبتوا أقدامهم في تلك الأرض. فسكان الجزيرة وعلى الاخص البدو — بقوا على ما كانوا عليه منذ بدء التاريخ . وفي جزيرة العرب نشأ أولاً أجداد الشعوب السامية من بابليين واشوريين وكلدانيين وعموريين وآراميين وفينيقيين وعبرانيين وعرب وأحباش . وفيها قطنوا برهة من الزمن قبل ان نزحوا عنها وصاروا إلى ما صاروا اليه .

وإذا كانت الجزيرة موطن الساميين الأصليين فالهلال الخصيب الممتد من الخليج العربي إلى سيناء وفيه العراق وسورية ولبنان وفلسطين كان مربع مدنيتهم الأولى . ففي وادي الفرات الذي نزح اليه الساميون حوالي ٣٥٠٠ق. م. ازدهرت الثقافة البابلية التي تركت لنا إرثاً من النظم القياسية منها ما هو للاوزان والمكاييل ومنها نظام ستّيني للوقت .

وتحدّر إلى شمالي سورية حوالي ٢٥٠٠ ق. م. الاموريون ومنهم الكنعانيون (الذين سماهم اليونان فينيقيين)فاحتلوا شواطئ

لبنان وأصبحوا أسبق المستعمرين والتجار العالميين. وان مأثرتهم في نشر الاحرف الهجائية وحدها تكفي في ان يعدوا بين عظماء المحسنين إلى الانسانية .

إن العرب المسلمين قد أصبحوا بعد فتحهم للهلال الخصيب ورثة هؤلاء الساميين الاوائل . وقد ورثوا كذلك ثقافة بلاد العرب الجنوبية التي ازدهرت قبل الاسلام بألف سنة . وقد كان أصل ملكة سبأ التي تذكرها التوراة من جنوبي الجزيرة العربية .

العرب الأصليّون : البدو

يتناول موضوعُ هذا الكتاب جميعَ الشعوب الناطقة بالضاد في الجزيرة وفي سورية ولبنان وفلسطين وشرقي الاردن والعراق وفي ايران (أثناء وقوعها في أحضان العروبة) وفي مصر وبرقة وتونس والمغرب الأقصى وفي صقلّية والاندلس في إبان ازدهار الحضارة العربية فيهما . ولا بد لنا أولاً من الوقوف هنيهة لدرس أحوال العرب الاصليين ، وهم البدو .

ليس البدويّ زُطيّاً أو نَوَرِياً يهيم على وجهه لا غاية له ولا قصد . بل البدوي أفضل من كيّف الحياة البشرية طبقاً لأحوال الصحراء الطبيعية . فحيث تيَسّر المرعى نَزَلَ ، وحيث نَدَرَ قوّض خيامَهُ وارتحل . وللبداوة في الصحراء قوانين علمية لا تقل شأناً ، في وضعها وتنظيمها ، عن قوانين الحياة الصناعية في حواضر المدن . وهي ضرب من المعيشة ضيّق

زاهدٌ بجاري بيئةً عسيرة مُقِلة . فمعظم بلاد العرب صحراء قاحلة ، والسكنى لا تصلح إلاّ في بقع من أطرافها تجاور البحار المحيطة بها ، وفي عدد من الواحات المنتشرة في أنحائها . وقد أطلق العرب على بلادهم اسم « الجزيرة » . وهي كالجزيرة حقاً إذ تحيط بها البحار من جهات ثلاث وتكتنفها الرمال من الجهة الرابعة .

وعلى الرغم من سعة البلاد إذ هي أكبر شبه جزيرة في العالم فلا يزيد عدد سكانها على عشرة ملايين . ويقول علماء طبقات الأرض ان الجزيرة كانت فيما مضى من العصور متصلة بالصحراء الكبرى الافريقية وبالمنطقة الرملية الممتدّة في عرض آسيا من أواسط ايران حتى صحراء غربي الصين . ثم انفصلت عنها بفعل خسوف أرضيّ لا تزال آثارهُ ظاهرةً في وادي النيل والبحر الاحمر وخليج فارس . وبلاد العرب أشدّ أقاليم العالم حرارةً وأقلها مطراً على الرغم من وقوعها بين بحرين هما البحر الاحمر وخليج فارس ، وذلك لأن هذين البحرين ضيّقان ولا أثر لهما في تعديل الاقليم والأحوال الجوية الغالبة على الأراضي العديمة المطر في القارتين الافريقية والاسيوية .

وقد تعود مياه المحيط الهندي إلى الجنوب ببعض الغيث على الجزيرة . إلا ان ريح السّموم التي تلفح البلادَ كلّ عام لاتترك وراءها إلا القليل من الرطوبة في داخل الجزيرة . فلا عجب إذاً إذا تغنى شعراء العرب بالنسيم العليل وهبّاته الشرقية المنعشة ، وهي المعروفة عندهم بريح الصَّبا .

ولا يزال البدويّ يقطن بيوت الشعر كما قطنها أجداده من قبل ، وينتجع بمواشيه المراعي التي انتجعها أسلافه منذ بدء عهدهم . وهو يتخذ تربية الحيوان من الغنم والابل والخيل مهنة ، ويتعاطى القنص والغزو ولا يحترف ما سوى ذلك لأن هذه وحدها هي التي تليق به ، ولأن الزراعة والتجارة والصناعة على اختلاف أنواعها هي في عرفه دون مقامه شرفاً . والحقيقة الراهنة ان ما يصلح للفلاحة من أرض الجزيرة قليل ، وان الحنطة تكاد لا تزرع فيها . ومن هنا عدّ البدوي الخبز من كماليات الحياة .

وقد ينبت في الجزيرة بعض الشجر كالنخيل والكرم والبن الذي جلبه اليمنيون من بلاد الحبشة في القرن الرابع عشر للميلاد وغيرها . وينمو في الواحات اللوز وقصب السكر والبطيخ . ولا يزال المرّ واللبان (البخور) ، اللذان كان لتجارتهما شأن في تاريخ عرب الجنوب ، معروفين هنالك .

ومناخ الجزيرة قاسٍ ، وهواؤها جافّ ، وفي تربتها ملوحة . وليس في طول البلاد وعرضها نهر تصبّ مياهه في البحر طيلة السنة . وليس من نهر صالحٍ للملاحة . فكل ما هنالك أودية مشتبكة تتدفّق فيها السيول عندما تطغى . ولهذه الاودية منفعة أخرى إذ تسير فيها القوافل ويسلك الحجاج شعابها ، ولا يزال الحج منذ فجر الاسلام حلقةَ الاتصال بين الجزيرة وسائر البلدان .

وقد زهت في الهلال الخصيب الذي يكتنف الجزيرة من

الشمال دولٌ ثم زالت . أما البدوي فلم يتغير وبقي على ما كان عليه منذ البدء ، واستمر مع شريكتيه الناقة والنخلة في الحياة الصحراوية حاكم الصحراء المطلق وواحداً من ثالوثها القديم ، ولا يشارك هذا الثالوث في أمر الجزيرة سوى الرمال . وبفضل ما للبدوي من شدّة المراس والصبر على الشدائد استطاع أن يثبت حيث يكاد لا يقوى شيء على البقاء . وقد حالت نزعته الفردية بينه وبين صيرورته رجلاً ذا وعي قومي . واسمى ما وصل اليه في اخلاصه للمصلحة العامة لم يتجاوز ما يتعلق بقبيلته من الأمور . أما النظام واحترام الشرائع وطاعتها والخضوع للسلطة فليست من سجاياه .

وكانت بداية الديانة السامية في الواحات لا في المَهامِه . ولقد قامت على انصاب وينابيع سبقت ما جاء بعدئذٍ من نوعها مثل الحجر الاسود وبئر زمزم في الاسلام وبيت إيل في العهد القديم من التوراة . أما الشعور الديني في قلب البدوي فسطحيّ . ولم يفت القرآن التصريح بذلك فقد جاء فيه قوله: « الاعرابُ أشدّ كُفراً ونِفاقاً » (سورة التوبة) . ولا يزال الامر كذلك حتى يومنا هذا فليس يتعدى ايمان البدوي بالنبي الاعتراف اللفظي .

وتظهر في عقلية البدوي وبنيته معالم صحرائه القاحلة وحياة الضجر المملّة التي تخيم عليها . فجسمه عظم وعضل وعصب ، وطعامه مقتصرٌ على التمر ولحم الابل، في حين ان شرابه الرئيسي لبن النوق . وهو يصطنع خمره من عصير التمر ويُطعم ابله

نوى التمر مجروشاً . أما غاية آماله فأن يحصل على « الاسوَدَين » أي التمر والماء .

الاسودان أبرءا عظامي   الماءُ والتمرُ دوا أسقامي

أما لباس البدوي فبسيط مثل قوته . وهو لا يتعدّى قميصاً طويلاً ونطاقاً يشدهُ على حَقْوَيه وعباءة يلتف بها وكوفية وعقالاً على رأسه . أما السراويل فيكاد البدوي لا يعرفها ، واما الأحذية فنادرة الوجود قليلة الاستعمال .

وأهم حيوانات الجزيرة الابل والخيل . وقد يصعب على العقل أن يتصوّر الصحراء صالحة للعيش بدون الابل . فهي قوام أهل البداوة ، ومطيّة تنقلهم ، ووسيلة معاملاتهم . فمَهْر المرأة ، ودِيَةُ القتيل ، وربح الميسر ، وثروة الشيخ كل اولئك تُحسَب بعَدَد الابل . والابل هي رفيقة البدوي التي لا تفارقه وخِدْنُهُ ومُعيله . يشرب لبنها بدلاً من الماء الذي يحرمه نفسه ويوفره لماشيته ، ويتلذّذ بأطايب لحمها ، ويلبس جلودها ، ويصطنع أحياناً بعض اروقة خيامه من وبرها ، ويستوقد بَعْرَها ويتطيّب ببَوْلها ويتطبّب به فيدهن به رأسه وقايةً من الحشرات . وليس الجمل للبدوي سفينة الصحراء فحسب بل هو عطية من الله ، وهِبَةٌ من لدُنْهُ .

وفي يومنا هذا يتباهى البدو ويعتزّون بدعوة أنفسهم « أهل الوبر » . ومما جاء في الحديث « أحبّ إليّ من أهل الوبر والمَدَر » . وذكر ألوا مُوزِل Musil الرحالة التشيكوسلوفاكي المشهور في كتابه عن قبيلة الرولا انه لا يكاد يوجد فرد من أفرادها

لم يشرب مرةً ماء من كرش الجمل . فعند الحاجة يُؤتى بالجمل وتُدْفَع عصا في حلقه حتى يتقيأ الماء، أو يُنحرَ ويُستخلص الماء منه. وقد يصلح هذا الماء شراباً إذا لم ينقضِ على تناول الجمل له يوم أو يومان .

ولما كانت بلاد العرب مركز تربية الابل الرئيسي في العالم فتجارة الابل أهمّ مواردها . ويدلك على مكانة الابل في حياة البدو ومعاملاتهم ان في اللغة العربية ، على ما يقال ، ما يقارب الف اسم للابل بأنواعها المختلفة وأنسابها وحالاتها وأطوار نموّها . وهو عدد لا يضاهيه سوى عدد أسماء السيف . ويقول علماء الحيولوجيا إن موطن الجمل الأصلي إنما هو البلاد الاميركية ومنها تسرب في العصور السابقة للتاريخ إلى آسيا الشرقية ، فالوسطى ، فبلاد العرب . وأول ذكر للجمل في التاريخ يرقى إلى القرن الحادي عشر قبل المسيح عندما غزا المديانيّون فلسطين وأدخلوه اليها ، على ما ورد في سفر القضاة (٦ : ٥) .

أما الخيل ، وأصلها أيضاً اميركي ، فليست من ضَروريات الحياة في الصحراء ، ومن هنا لم يكن يملكها منهم غير ذوي اليسار . وعلى الرغم من شهرة الخيل في كتب العرب فان ظهورها في الجزيرة جاء متأخراً . فلقد جاءتها قبيل الميلاد عن طريق سورية التي كان ملوك الرعاة قد أدخلوا اليها الخيل في القرن الثامن عشر قبل المسيح . وتوفرت للخيل في الجزيرة الاسبابُ للاحتفاظ بدمها أصيلاً بعيداً عن الاختلاط . وقد اشتهرت

الخيل العربية بجمالها وقوتها على تحمل الشدائد ونباهتها وتعلقها بصاحبها وإخلاصها له . فالخيل العربية الاصيلة هي مثال لما يحسبه الغربيون أفضلَ صفات الخيل . وقد ادخل العربُ الخيلَ الاصيلة إلى الاندلس في القرن الثامن للميلاد، ولا تزال خصائصها ظاهرة في الخيول الأندلسية والمغربية حتى يومنا هذا . حتى إذا كانت الحروب الصليبية امتزج دم الخيول الانكليزية بدم الخيول العربية الاصيلة .

وأهم ما يُعجب العربي من الخيل سرعتُها إذ بدونها لا يصلح غزو . وهي تُستخدمُ أيضاً في السباق والقنص . وإذا عزّ الماء في مخيم احدى القبائل وضجّ الاطفال وعلا عويلهم من العطش لم يكترث رب البيت بهم بل أصرّ على تقديم الماء للخيل أولاً ، فاذا بقي منه شيء دفعه إلى الصّبيْة .

وليس الغزو ضرباً من ضروب اللصوصية ، وإن شابهها . ولكنه بحكم عوامل حياة البداوة الاقتصادية والاجتماعية وضعٌ من أوضاعها وركن من اركانها . ففي الصحراء ، حيث القتال غريزة ملازمة لطبيعة الفرد ، يُحسب الغزو خليقاً بالرجال وسجية من سجايا الرجولة . ولم يقتصر ذلك على فريق دون آخر بل شمل العرب جميعاً من نصارى وغيرهم .

والغزو عند العرب ناحية من نواحي اللهو القومي . والعُرف الشائع يقضي بأن لا تُسفك الدماء فيه إلا عند الضرورة الماسة . وقد يعمل الغزو على إنقاص عدد النفوس التي يجب أن تُعال ، غير انه لا يزيد في مجموع ما في البلاد من الاقوات . وكثيراً ما

تلجأ بعض القبائل الضعيفة أو الاقوام النازلة في الحدود إلى ابتياع حماية القبائل القوية بدفع إتاوة معيّنة ، فتعيش في ظلها آمنة .

على ان الضيافة تلطّف من مساوئ الغزو . فمهما تمادى البدويّ في السلب والنهب والعدوان فانه يظل كريماً جواداً أميناً على الجوار مضيافاً. ولطالما تغنى شعراء الجاهلية بمحاسن الضيافة والقِرى وحسبوا هذه الظاهرة البدوية أفضل سجايا الانسان ، لا يشاركها في ذلك سوى الحماسة والمروءة . فحاجة البدوي الماسة إلى الماء والمرعى (وهما أهم دواعي الشقاق بين سكان البادية) تستفزه إلى القتال في سبيل الاستيلاء عليهما ، فتضطرم نار الوغى بين القبائل . غير ان عجز الانسان تجاه قوى الطبيعة القاسية التي تستولي على الصحراء يولد في نفسه الشعور بضرورة الضيافة فيحسبها واجباً مقدساً . وإذا أبى البدوي أن يحسن ضيافة الغريب أو ردّه خائباً أو ألحق به أذى بعد ان اضافه فانه بذلك لا يسيء إلى العرف الشائع وإلى الشرف فحسب ، بل يسيء إلى الله نفسه .

ويقوم نظام المجتمع البدوي على العشيرة . والعشيرة هي مجموعة أفراد مخيم واحد قوامه بيوتٌ من الشعر تقطن كل عائلة واحداً منها . وتكوّن العشائر المتقاربة النسب قبيلة واحدة . ويعتبر أفراد العشيرة أنفسهم من دم واحد ، ويخضعون لسلطة الشيخ وحده ـ وهو أكبر رجال العشيرة سناً . وقرابة الدم هذه أكثرها حقيقي وبعضها اصطناعي قوامه ان يمتص

الدخيل على القبيلة شيئاً من دم أحد أفرادها . ولا شك في ان هذه العصبية هي العامل الاكبر في توحيد شعور الافراد في العشيرة .

ولا يملك الفرد إلا بيت الشعر ومحتوياته . غير ان الماء والمرعى والارض التي تصلح للفلاحة هي ملك مشاع للقبيلة بأجمعها .

وإذا قتل البدوي آخرَ من عشيرته لاينبري للدفاع عنه أحد. فإذا هرب أصبح طريداً خارجاً عن نطاق العشيرة . أما إذا قتل أحداً من عشيرة ثانية تحكّم الثأر بين العشيرتين حتّى تستوفي الواحدة ثأرها من الأخرى بقتل أحد أفرادها .

فالدم في عُرف الصحراء لا يعوّض عنه إلا بالدم ، ولا جزاء لمهرقهِ غير القتل . والتبعة الأولى تقع على عاتق الاقربين . وقد يتطاول الثأر حتّى يستغرق اربعين سنة . وجديرٌ بالذكر هنا ان الثأر كان سبباً هاماً في الحروب القَبَلية في الجاهلية المعروفة بأيام العرب ، وهو يضاف إلى العوامل الاقتصادية في ذلك . وأكبر مصيبة يمكن أن تلمّ بالبدوي إنما هي خسرانه عضويته القبلية وخروجه عن حظيرتها . إذ يصبح شريداً طريداً لا حامي له ولا مجير .

فالعصبية القبلية تتطلب ولاءً مطلقاً لأفراد القبيلة كلها . وهذا الولاء هو روح الفردية في البدوي مكبّرةً بحيث تشمل سائر أفراد العشيرة . فيشعر الفرد ان قبيلته حرة مطلقة وانها وحدة لا تتجزأ . ولا يرى مانعاً يردّها عن الاغارة على غيرها

من القبائل وسلبها وقتل أفرادها . وقد استغلّ الاسلام هذا النظام القبلي في الفتوحات المتعددة . فقسم الجيش إلى وحدات على أساس قَبَلي . واستوطنت بعض القبائل البلدان المغلوبة على أمرها على هذا الأساس نفسه ، وأطلق المسلمون على حروبهم اسم « غزوات » . اما الداخلون في الدّين من الشعوب المقهورة فسُمّوا « الموالي » . والمولى في الاصل هو من يلتحق باحدى القبائل عن رغبة في نفسه فيصبح أحد أفرادها . وظلت هذه المميزات غير المستحبة – أي مميزات الفردية المتناهية والعصبية القبلية – ترافق الخُلق العربي حتّى بعد الاسلام . فكانت من أهم عوامل الضعف والانحلال التي طرأت على الدول الاسلامية المختلفة .

ويمثل الشيخ قبيلتَه في جميع شؤونها ، ويثبت زعامته باصالة رأيه في المجلس القبلي ، وبكرمه وشجاعته . أما في الشؤون القضائية والحربية وغيرها من الشؤون العامة فليس له سلطة مطلقة ، بل عليه ان ينظر فيها مع زعماء القبيلة الآخرين في المجلس القبلي ، ويبقى الشيخ شيخاً ما دام حائزاً على رضى القبيلة ، وإلا فقد مركزه .

إنّ العربي إجمالاً والبدوي خاصةً ديموقراطي بالطبع والنزعة . فهو يحسب نفسه مساوياً لشيخ القبيلة ، وهو ينظر إلى الامور بعين المساواة . وكان حتّى قيام ابن سعود قلما يستعمل كلمة « ملك » إلا إذا أشار إلى الملوك الاجانب . غير انه من ناحية ثانية ارستقراطي يعدّ نفسه مثالاً أعلى للخليقة ويعدّ الامة

العربية أشرفَ خلق الله . وعنده ان الرجل المتمدّن دونه قيمةً وسعادة . وهو يفاخر بصفاء دمه وبشعره وفصاحته وسيفه وحصانه . وغاية فخرهِ أجداده . ولطالما تعشّق إرجاع نَسبه إلى آدم .

أما المرأة البدوية ، سواء أكانت اسلامية أم جاهلية ، فقد كان لها نصيب وافر من الحرية تحسدها عليه اختها المتحضرة . وإذا كانت قد عاشت أحياناً في بيت تعدّدت فيه الزوجات وكان الرجل فيه سيداً فانهاحرة في اختيار زوجها وفي فراقه إن أساءَ اليها . وإن لها فوق ذلك حق التملك الشخصي .

ومن مزايا البدو مقدرتهم على اقتباس ثقافة الآخرين وتمثيلها فتلك القوى العقلية التي كانت كامنةً طيلةَ أجيال تنبّهت وأصبحت قوى متحركة فعّالة عندما لاقت جواً ملائماً . وقد تسنى لها ذلك باحتكاكها بابناء الهلال الخصيب. فظهر حمورابي في بابل ، وموسى في سيناء ، وزنوبيا في تدمر ، وفيلبس العربي في رومة ، وهرون الرشيد في بغداد . ونشأت المعالم ، كتدمر والبتراء ، التي لا تزال آثارها تدهش العالم بأجمعه. ومما لا شك فيه ان ازدهار الدولة الاسلامية في أوائل عهدها يرجع ببعض أسبابه إلى تلك القوى الكامنة في البدو الذين هم ، كما قال عمر ابن الخطاب ، « أصل العرب ومادة الاسلام » .

قبل فجر الاسلام

مع ان البحار تكتنف جزيرة العرب من جهاتها الثلاث في حين تكتنفها الرمال من الرابعة فانها لم تكن قطّ منقطعة عن العالم الخارجي أو بعيدة عن اهتمامه . وأول اشارة محققة عن العرب وردت في رقيم لشلمناسر الاشوري الذي قاد سنة ٨٥٤ ق. م. حملة على ملك دمشق وحلفائه . وكان بين هؤلاء الحلفاء شيخ عربيّ. ومما يدل على روح ذلك العصر وحوادثه قول شلمناسر « قرقر مدينة ملكه دمرتها وهدمتها وأحرقتها بالنار ١٢٠٠ عربة ١٢٠٠ فارس ٢٠,٠٠٠ جندي من هَدَدَ عَزَرَ أرام (دمشق) ١٠٠٠ــ١٠٠٠ جمل لجُنْدُب العربي » . وجدير بالاعتبار هنا ان اول ذكر عربي في التاريخ المدوّن جاء مصحوباً بذكر الجمل . وكان موقع قرقر بجوار حماة في شمالي سوريا .

لقد اطلقنا لفظة « عربي » فيما سبق على جميع سكان الجزيرة

أما الآن فيجب أن نميز بين عرب الشمال بما فيهم عرب نجد ، وبين عرب الجنوب . فكما ان الجزيرة منقسمة إلى قسمين جغرافيين تتوسط الصحراء بينهما ، كذلك سكانها ينقسمون إلى شماليين وجنوبيين . وينتسب عرب الشمال لجنس البحر المتوسط . أما عرب الجنوب فينتسبون للجنس « الالبي » المسمى أيضاً الارمني أو الحثي أو العبري . ومن مميزاته الفك العريض ، والأنف الاقنى ، والخد المنبسط ، والشعر الكثيف. وقد سبق عربُ الجنوب عربَ الشمال في إنشاء حضارة خاصة ، إذ لم يظهر عرب الشمال على المسرح العالمي حتى بزوغ الاسلام في العصور الوسطى . ولا بدّ من هذا التمييز بين عرب الشمال وعرب الجنوب . فالاختلاف بينهما لم يزُل على الرغم من محاولة الاسلام توحيدَ الأمة العربية . وقد كان لهذا الاختلاف شأن كبير في إضعاف معنويات الدولة العربية .

وقد تأثرت الجزيرة بمصر وبابل مَهْدَي الحضارة الاولين لاعتراضها بينهما ، فلاصقت افريقيا عند شبه جزيرة سينا — موقع الطور المشهور — في الشمال . وانحدرت طريق من هنالك إلى الجزيرة . أما الطريق الرئيسية فحاذت النيلَ ، ومن ثمّ انقطعت عند طيبة وانتهت إلى البحر الاحمر . وفي أيام السلالة الفرعونية الثانية عشرة (حوالى ٢٠٠٠ ق. م.) وصلت قناةٌ اصطناعية فرعَ النيل الشرقي برأس البحر الأحمر .ومن ثم عفّى عليها الزمن حتى أعاد البطالسةُ بناءها ، واندثرت بعد زمن فجدّدها الخلفاء العرب . ودام استعمالها حتى اكتشاف الطريق

البحرية للهند حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٩٨ . أما في الجنوب فيفصل الجزيرة عن افريقيا مضيق باب المندب، وعرضه خمسة عشر ميلاً .

ولم يكن العرب قبل الاسلام أهلَ حرب وشدّة بل أهلَ تجارة وعمران . فحضارتهم البحرية في الجنوب كانت حلقة الوصل بين الهند وافريقيا . وفي الشمال ازدهرت لهم مدينتان عظيمتان كانتا تقومان على طريق القوافل وهما سَلْع (البتراء) وتَدْمر اللتان دُمّرتا فيما بعد ، ولا تزال أنقاضهما الفخمة تجتذب السياح من أقطار الأرض . وكانت سلع (البتراء) التي بلغت أوج عزها وثروتها تحت رعاية الرومان مدينةً منحوتة في الصخر الملوّن الأصم . أما تدمر وموقعها في الصحراء السورية بين امبراطوريّي الرومان والبارثيين الفرس المتنافستين فقد خلّفت وراءها قصةً مدهشة عن اميرتها زنوبيا ذات الجمال والطموح التي اتخذت لنفسها لقب ملكة الشرق ، ووسعت ملكها على حساب الامبراطورية الرومانية ، فضم مصر وقسماً كبيراً من آسيا الصغرى . ولما تغلب الامبراطور اورليان على قوادها في معركة قرب حمص سنة ٢٧٣ م . غادرت تدمر وأمّت الصحراء على هجين هاربةً . غير انها اسرت وسيقت أمام عربةِ قاهرها عند دخوله رومة ظافراً ، مُثقلةً بسلاسلَ ذهبيةٍ حسب عادات ذلك الزمن .

ومن الحوادث الأخرى ذات الشأن في تاريخ الجزيرة الباكر نزولُ القبائل العبرانية طوالَ اربعين سنة في سيناء والنفود في

طريقهم من مصر إلى فلسطين ، حوالى سنة ١٢٢٥ ق. م. ففي مديان — وهي القسم الجنوبي من سيناء والاراضي الواقعة شرقيّه — عاهد الله بني اسرائيل . وهناك تزوّج زعيم القبائل موسى من امرأة عربية كانت ابنة كاهن مدياني (خروج ٣ : ١ و ١٨ : ١٠ — ١٢) . وقد كان هذا الزواج من أهم حوادث التاريخ إذ كانت زوجُ موسى تعبد إلهاً يدعى ياهُوَ ، وهو الذي صار يعرف بيَهْوَه فيما بعد. وكان ياهو الهاً للصحراء ساذجاً وصارماً في الوقت نفسه . فمسكنه خيْمةٌ ، وفرائضه بسيطة لا تتعدى التَقْدِمات الصحراوية والذبائح المحرقة . ولقّنت امرأة موسى زوجها هذا الطقس الديني . فعقِب ذلك ما عقبه من النتائج الدينية العالمية الهامة .

وتكثُر الأدلة في العهد القديم على ان اصل العبرانيين من الصحراء . فيُظنّ ان « الملوك » المذكورين في إرمياء النبي كانوا شيوخاً في شمال الجزيرة أو الصحراء السورية . وشولميث التي خلّد جمالها نشيد الاناشيد المنسوب لسليمان كانت على الارجح عربية من قبيلة قيدار . وأيوب الذي ابتدع أرقى شعرٍ في العالم السامي القديم لم يكن عبرانياً بل عربياً . ومن الممكن ان « المجوس من المشرق » الذين تبعوا النجم لاورشليم لم يكونوا مجوساً من فارس على ما هو متعارف بل بدواً من صحراء شمالي الجزيرة . ويمكننا متابعة هذه الصلات في العهد القديم إلى حدّ بعيد ، إذْ كان العبرانيون جيران العرب ومن أقرب الاقوام اليهم جنساً .

بيد ان ما يهمنا الآن فوق كل شيء هو ظهور الاسلام ، دين الاستسلام لمشيئة الله وارادته ، ففي أوائل القرن السابع للمسيح اضمحلت الحياة القومية التي كان قد قام بها عرب الجنوب وسادت الفوضى الوطنية . وعبّد البدو القمر قبل الشمس كما يُنتظر من قوم رعاة يقطنون بلاداً حارة يستأنسون ببرودة الليل لرعاية قطعانهم ، في حين يستنكرون حرارة الشمس. والشمس لا تدخل في صفوف آلهتهم إلا بعد دخولهم في طور الزراعة وادراكهم فاعلية الشمس فيها . وأخيراً بلغت عبادة الاصنام في طول الجزيرة وعرضها درجةً أمست معها لا تفي بحاجات القوم الروحية وكانت قد ظهرت آراء دينية توحيدية غامضة وتصلبت في شكل طقوس دينية . وأخذت بعض المؤثرات المسيحية تفعل فعلها . ولكن الفكرة المسيحية لم تستهوِ خيال العرب قطّ . فتهيأت الأسباب ودنت الساعة لظهور زعيم ديني وقومي عظيم .

ويسمّي المسلمون العهد السابق لظهور النبي بالجاهلية . غير ان هذه التسمية لا تنطبق تماماً على الواقع إذا أخذنا بعين الاعتبار حضارة جنوب الجزيرة . على ان عرب الشمال لم يستنبطوا طريقة للكتابة حتى قبيل أيام النبي . فالجاهلية إذاً هي العصر الذي لم يكن فيه نبي أو كتاب منزل .

والعرب يفوقون شعوب الأرض بأجمعهم باستحسانهم التعبيرَ اللفظي والكتابي واعجابهم به وباثارة الكلِم لنفوسهم . وقد لا تكون هناك لغةٌ تضاهي العربية في تأثيرها في نفوس متكلميها.

ففي مجالس بغداد ودمشق والقاهرة اليوم يحس السامعون بانفعالات داخلية شديدة عندما يصغون إلى قصيدة أو خطبة بالعربية الفصحى وان لم يعقلوا الكثير منها . فالوزن والقافية والموسيقى تولّد في النفس شعوراً وتسحرها بما يسمونه « السحر الحلال » .

والعرب كسائر الساميين لم يستنبطوا فناً جميلاً خاصاً بهم ، بل أطلقوا لطبيعتهم الفنية العنان في مجرى واحد ، هو فن الكلام . فاذا مجّد اليوناني تماثيله وبنيانه مجّد العربي قصيدته والعبراني مزموره ، ووجدا فيهما طريقة أسمى للتعبير النفسي . وفي أمثال العرب « جمال المرء في فصاحة لسانه » . وأثر عنهم أنهم قالوا : « اشتهر اليونانيون بالحكمة ، وأهل الصين بالصناعة والاعراب ببلاغة المنطق » . وقد عدّ عرب الجاهلية الفصاحةَ والرماية والفروسية مزايا الرجل الكامل الثلاث . والعربية بفضل تركيبها يَحْسُن فيها الايجاز ويكثر الاقتصاد على ذهن السامع : فاستغل الاسلام هذه الميزة اللغوية كما استغلّ ميول أهله النفسية فجاء القرآن معجزة في اسلوبه وتركيبه . ويعتقد المسلمون ان « الاعجاز » هو اسطع برهان على صحّة دينهم . وإذاً فقد كان فوز الاسلام فوزَ لغة إلى حد ما ، بل قل هو فوز كتاب .

ولم يتفوّق عرب الشمال في الجاهلية إلا في الشعر . وميلهم اليه كان ميزتهم الثقافية الوحيدة . وقد لعب شاعرهم أدواراً عديدة هامة في حياتهم الاجتماعية . فاذا اشتبك قومه في معركة كان لسانه فعّالاً كشجاعتهم . أما في السلم فقد تدعو خطبه النارية

إلى الاضطراب والانشقاق . وقد تثير قصيدته القبيلة كما يثير خطابُ المهيّج الناسَ في الحملات السياسية والانتخابية في عالمنا اليوم . ولما كان الشاعر صحافيّ يومه فقد أغدق عليه الامراء هداياهم الثمينة كسباً لعطفه . فشعره الذي حفظه الناس وتناقلته الألسن كان اداة فعّالة للدعاوة ، وخير مكوّن للرأي العام ، وأفضل ممثل له . وكان إغداق العطايا على الشاعر تحاشياً لهجوه يعرف عندهم بـ « قطع اللسان » .

ولم يكن الشاعر عرّافاً وهادياً وخطيباً وممثلاً للقبيلة فحسب، بل كان عالمها ومؤرخها أيضاً . وكان الشعر مقياس الذكاء عند البدو على حدّ قول أحدهم : « مَنْ يفاخرُني مَنْ ينافِرُني ببني عامر بن صَعْصَعَة فرساناً وشعراء وعَدَداً وفَعالاً » . والقبيلة كانت تتفوّق على اختها بقوّتها الحربية وذكاء أفرادها وعددهم . وللشعر العربي فوق طرافته ورشاقته في الجاهلية أهمية تاريخية أيضاً إذ يحتوي على كثير من المعلومات لدرس العصر الذي نظم فيه . ويكاد يكون المرجع الوحيد لتعرّف الحياة الجاهلية في جميع الوانها وأطوارها . حقاً ان « الشعر ديوان العرب » .

ولم يكن للدين في نفس البدوي قبل فجر الاسلام ، كما يظهر من شعره ، غير أثر ضئيل . وإذا كان قد مارس بعض الطقوس الدينية فقد فعل ذلك لا عن رغبة نفسية بل احتراماً للعرف والعادة . فأنت لا تكاد تجد مثالاً واحداً لتعبّد صادق أو خشوع أمام إلـه وثني . واعتقد البدو ان الصحراء ملأى بالجنّ .

ولم تختلف الجن عن الآلهة في طبيعتها بل اختلفت عندهم في علاقتها بالانسان . فكانت علاقة الآلهة في الجملة ودية ، أما علاقة الجن فمعادية . وما الجن عند التحقيق إلا تشخيص لعوادي الصحراء القاسية وحيواناتها الضارية . وقد بقيت الجن حتى بعد الاسلام ، وازدادت عدداً إذ أنزلت الآلهة الوثنية منزلة الجن .

وفي مدينة مكة من أعمال الحجاز الذي يقف حاجزاً بين هضاب نجد وبين الساحل المنخفض كان واحد من الآلهة المتعددة يدعى « الله » . وهو إله قديم اعتبره أهل مكة الخالق الرزاق والتجأوا اليه في أحرج مآزقهم . حتى إذا هتف رجل منهم باسمه في كلام أصبح بعد أمجد قول في العربية « لا إله إلا الله » دوّى صدى هتافه في أنحاء المعمور ، ودفع بأهل الصحراء إلى أطراف العالم الأوسع فاتحين غالبين .

محمدٌ رسول الله

يرجّح المؤرخون ان محمداً وُلد عام٥٧١ م. وهو المعروف بعام الفيل . وكان قد توفي والده وهو جنين ، ليفقد بعدُ والدته قبل أن يتجاوز السادسة من عمره . ولقد دعته أمه باسم قد يظل مجهولاً . أما الأسم الذي عُرف به في القرآن فهو محمد . وأشير اليه مرة واحدة فقط باسم أحمد . وقد أطلق عليه قومه لقب « الامين » فلزمه . وكثر تداول هذا الاسم « محمد » إلى أن أصبح عدد الذكور الذين يعرفون به اليوم يفوق عدد كل من تسمّى باسم آخر . وينتسب محمد إلى قبيلة قريش ، وكانت من أسمى قبائل الجزيرة مركزاً ، تتولى سدانة الكعبة [١] في مكّة . وكانت الكعبة تضمّ بين جدرانها أصناماً كثيرة، وحولها مناصب

---

١ سدانة الكعبة : خدمتها .

عديدة ، وهي مُتَّجَهُ أنظار عرب الحجاز في عباداتهم ، يأتيها الحجاج ليؤدوا فيها فرائضهم الدينية .

وعلى الرغم من ان محمداً كان من اولئك الانبياء الذين ظهروا في العصور المؤرّخة فاننا لا نعرف إلا اليسير عن حداثته . وليس لدينا كثير من المعلومات الموثوق بها عن كده بسبيل كسب عيشه وجهوده لتحسين شؤونه ، والآلام التي عاناها في إعداد نفسه للمهمة الكبرى التي كانت تنتظره .

ولم يبدأ الفصل الواضح من حياة محمد حتى بلغ الخامسة والعشرين ، حين تزوج من خديجة وهي في الاربعين . وكانت خديجة ارملةً قرشيةً تاجرةً ذات شرف ومال تدير تجارتها مستقلّة وتستأجر الرجال . وكان ممن استأجرتهم الشابُ محمدٌ لما توسمته فيه من النجابة . أما محمد فكان يحترمها ويثق بها ولم يفكر في الزواج من امرأة ثانية ما دامت خديجة ذاتُ الشخصية البارزة والصفات الممتازة في قيد الحياة .

وكفى الله محمداً في زواج خديجة الحاجةَ إلى متاع الدنيا فاتسع له المجال لتغذية ميوله ، فأخذ يخلو بنفسه في غارٍ صغير خارج مكة ، يُمعن في التأمل والعبادة ويتلمّس أثناء ذلك الحقّ . وفيما هو نائم يوماً في الغار سمع صوتاً يأمره قائلاً : « إقرأ باسْمِ ربّكَ الذي خلَقَ » الخ . (سورة العلَق) فكان هذا أولَ عهده بالوحي . ومكث برهة اصابته فيها رعدة الخوف ، فأسرع إلى بيته وهو في أشدّ حالات الاضطراب النفسي ، وسأل خديجة أن تزمّله ، فزملته وهو يرتعش . فجاءه الوحي ثانية

« يَاأَيُّهَا المُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ » الخ (سورة المدثر) . واختلفت عليه الاصوات ، واشكلت بعد ذلك ، وجاءت أحياناً كأنها صلصلة الاجراس ، غير انها توحدت أخيراً ووضحت ، وإذا به يتحقق ان هذا الصوت هو صوت الملاك جبريل .

وتُشبه رسالة النبي العربي محمد رسالات الانبياء العبرانيين في العهد القديم . وتتلخّص دعوته في ان الله واحد ، لا إلـه إلا هو ، وانه مبدع الكون وخالق الوجود ، وانه على كل شيء قدير . وان هنالك يوم دين ، وان الناس يُجزَون بأعمالهم ! فمن عمل صالحاً فله جنات النعيم ، ومن عمل طالحاً فله نار الجحيم .

أيقن محمد باختيار الله اياه رسولاً ليؤدي رسالة الحق ، فوثق من نفسه ، وأخذ يجول بين قومه مبشراً هادياً يدعو إلى الحق وينهى عن الباطل . وأخذ القوم يستخفون به ويستهزئون برسالته ، غير ان ذلك لم يكن ليفتّ في عضده ، بل استمر يعظ الناس محذراً منذراً ، ويجدّ في تحقيق المهمة التي اختاره الله لها . فكان يصف ويشرح للناس ملاذّ الجنة ونعيمها وأهوال جهنم ونارها بلغة صريحة لا غموض فيها . وكثيراً ما هدد سامعيه بيوم الدين المخيف ، وبرغم هذا فلم يؤمن برسالته إلا نفر قليل . وكان أول من اسلم زوجته خديجة ثم تلاها ابن عمه علي ، ونسيبه ابو بكر . أما الفئة الارستقراطية ذات النفوذ في قبيلة قريش فظلّت منكرة تقاومه بصلابة شديدة وتضيّق عليه بلا هوادة . ولما أخذ عدد المؤمنين يزداد تدريجياً ، وجلّهم من العبيد والمستضعفين ، خاف القرشيون من اتساع نفوذه ومن خطر

رسالته على مصالحهم التجارية والاجتماعية . وثبت لهم ان السخرية التي حاربوه بها لم تكن فعّالة كما أمّلوا فلجأوا إلى اضطهاده والتنكيل به وبأتباعه . فكان من جراء ذلك أن نزحت احدى عشرة اسرة مكيّة مؤمنة إلى بلاد الحبشة . وتبعتها في عام ٦١٥ ثمان وثلاثون اسرة أخرى . ووجد هؤلاء المسلمون في جوار النجاشي النصراني أمناً وهناءً . وأبى هذا تسليمهم إلى ظالميهم . وما كانت خسارة محمد لهؤلاء الاتباع في تلك الايام المظلمة وخلال هذه الفترة من الاضطهاد الشديد لتُضعف من عزيمته . فاستمر يبثّ دعوته ويدعو الناس إلى عبادة إلـه واحد هو إلـه الحق . وظلّ الوحي بجيئه والآيات تنزل عليه . وودّ لو ان لقومه كتاباً كالذي في أيدي اليهود والنصارى ، ذلك الكتاب الذي أثار في نفسه الاعجاب .

ولم يمض زمن حتى اهتدى عمر بن الخطاب ، فوجد الاسلامُ فيه مَنَعَةً . ولقد قُيّض لعمر ان يلعب دوراً هاماً في تأسيس الدولة الاسلامية الفتيّة كما سنرى بعدُ . وفي هذه الحقبة كان الاسراء والمعراج . وتفصيل ذلك انه أسري بمحمد ليلاً من مكة إلى بيت المقدس ،وهو البلد الذي يقدّسه اليهود والنصارى. ومن هناك استأنف محمد رحلته إلى السماء السابعة على دابته العجيبة « البُراق » . بذلك أصبح بيت المقدس الحرمَ الثالث بعد مكة والمدينة في نظر العالم الاسلامي . وقد اتخذت قصة الاسراء ألواناً زاهية رائعة على مرور الأجيال . ولا تزال حلقات التصوّف في ايران وتركيا تقيم لحديث الاسراء وزناً كبيراً . ويعتقد عالم

اسباني ان الاسراء والمعراج مصدر «الكوميدية الالهية» التي وضعها الشاعر الايطالي الخالد دانتي . ومما يدل على تأثر المسلمين اليوم بذكرى الاسراء ما حدث في آب من عام ١٩٢٩ في فلسطين من فتن بشأن حائط المبكى ، عند اليهود ، في بيت المقدس ، وهو الذي يعدّه المسلمون الموضع الذي ربط عنده محمدٌ البراقَ في طريقه إلى السماء . وبعد عامين من الاسراء جاءَ محمداً من يثرِبَ ، مسقطِ رأس أمه ، وفدٌ مؤلف من خمسة وسبعين رجلاً ، فبايعوهُ ودعَوْه إلى اتخاذ يثربَ مسكناً . وإذ كان عرب يثرب على اتصال بمواطنيهم اليهود الذين كانوا يترقبون ظهور المسيح فقد انتَهَوْا إلى ان يكونوا أكثر استعداداً لاستماع صاحب الرسالة من أهل مكة . فزاد هذا في خوف قريش وامعانهم في اضطهاد المسلمين . فأوعز محمد إلى مئتين من أتباعه ان ينسلّوا متفرقين إلى المدينة بعيداً عن رقابة قريش . ولحقهم هو بنفسه فوصلها في ٢٤ ايلول عام ٦٢٢ . وهكذا كانت الهجرة التي لم تكن فراراً فجائياً بل خطة مدبرة من قبل عامين. وأصبحت السنة التي هاجر فيها الرسول إلى يثرب (ابتداء من ١٦ تموز) بدءَ التقويم الاسلامي القمري كما أقرّه الخليفة عمر بعد سبعةَ عشرَ عاماً من الهجرة . وعُرفت يثربُ من بعد ذلك بالمدينة ، أي مدينة النبي .

هدأت العاصفة الآن بعض الشيء . واطمأن محمد بتآخي المسلمين في المدينة . وبدأ دور جديد من ادوار حياته ، هو الدور السياسي الذي أخذ يُعنى فيه بمصالح المؤمنين من مهاجرين

وأنصار . ولما وثق من استقرار الامور انتهز فرصة الاشهر الحُرُم وخرج على رأس فئة من أتباعه يعترض قافلة قُرَشيّة قادمة من الشام إلى مكة . وأحسّ زعيم القافلة بما بُيّت له ، فطلب نجدةً من مكة . ولكن هذه المعركة التي عُرفت بوقعة بدر أسفرت عن انتصار ثلاثمائة من المسلمين على أكثر من الف من المكيين . وعلى الرغم من ان هذه الموقعة كانت وقعة حربية بسيطة فقد جاءت حجر الزاوية في تأسيس سلطة محمد الزمنية . وفسّر الناس هذا النصر العظيم بأنه معجزة تدل على تأييد الله للايمان الجديد .

وتجلى في المسلمين في معركتهم الأولى روح النظام والشجاعة والازدراء بالموت ، وهي صفات لازمتهم في معاركهم الكبرى إبان عصر الفتوحات . ومع ان المكّيين أخذوا بثأرهم في العام الثاني وجرحوا النبي ، فان انتصارهم لم يطل أمره ، إذ استردّ المسلمون حيويتهم وانتقلوا من دور الدفاع إلى دور الهجوم . وبدأ دينهم ينتشر ويمتدّ بسرعة ، وقد كان حتى ذلك الوقت عبارة عن دين ضعيف الجانب خاضع للسياسة المحلية. أما الآن فقد أصبح لا دين دولة فحسب بل الدولة بنفسها . ومنذ ذلك الحين صار الاسلام ولا يزال قوة حربية سياسية .

وشهر محمد حرباً على اليهود لممالأتهم اعداءه وتآمرهم عليه. فقتل منهم ستمائة رجل ينتسبون إلى أهم القبائل اليهودية ، وأجلى الباقين منهم ، وأسكن المهاجرين في مزارعهم . ولم تكن هذه القبائل هي الوحيدة التي خاصمت الاسلام ، كما لم تكن آخر

القبائل التي خيرها النبي بين الاستسلام والموت .

وفي هذه الحقبة من حياة النبي في المدينة صار تنظيم الاسلام وحدة عربية قومية . فانقطعت صلة الاسلام بالديانتين اليهودية والنصرانية . وخصّ يوم الجمعة بالصلاة الاسبوعية . وأقيم الأذان مقامَ النواقيس والابواق . واصطُنع رمضان شهراً للصوم ، وتحوّلت القبلة من بيت المقدس إلى مكة . وأجيز الحجّ إلى مكة وتقبيلُ الحجر الاسود ، وهما من فروض الدين المرعية في الجاهلية .

وفي عام ٦٢٨ حجّ محمد على رأس الف واربعمائةمؤمن إلى مكة ، مسقط رأسه ، وأرغم قريشاً على توقيع معاهدة تستوي فيها حقوق المكيين والمسلمين . فانقطع بذلك النزاع الذي استفحل بينه وبين أهله القرشيين ، ولو إلى حين . وفي خلال هذه الفترة من الزمن أسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وقد كانا في الجاهلية رجلين من قريش مشهورين ، ثم قيض لهما بعدُ ان يرفعا لواء الاسلام عالياً ويصبحا سيفيه الحادّين . وتم احتلال مكة احتلالاً كاملاً في آخر كانون الثاني من عام ٦٣٠ (٨ هـ .) . فدخل محمد الكعبة فحطّم أصنامها التي قيل ان عددها كان يربو على ثلاثمائة وستين ، ونادى قائلاً « جاء الحق وَزَهَقَ البَاطِلُ إنّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوْقاً » . إلا ان محمداً حاسَنَ الاهلين وعاملهم معاملة ليّنة ، وعفا عن مقاوميه فأقام الدليل بذلك على سمو نفسه . وقلما نجد في التاريخ مثالاً للعفو عند المقدرة يعادل هذا المثال .

وأقرّ محمد في هذه الحقبة الكعبة وما يحيط بها مسجداً حراماً لا يجوز للمشركين الاقتراب منه . ونزلت الآية التي ذهب المفسرون إلى ان الله قد حرّم فيها على غير المسلم الاقتراب من الكعبة . وربما كان القصد من هذه الآية منع المشركين من المجيء إلى الكعبة في موسم الحج . على ان قول المفسرين لا يزال مَرعياً . ولا يزيد عدد النصارى الاوروبيين الذين وُفّقوا إلى زيارة الحرمين الشريفين ونَجوْا بأرواحهم على الخمسة عشر رجلاً . أولهم لودفيكو ده فارتيما من أهالي بولونية في عام ١٥٠٣ وآخرهم ألدون روتر الانكليزي . أما الذي كتب أمتع وصف لزيارته فكان بلا ريب السر رتشرد برتون ١٨٥٣ .

وعقد محمد في العام التاسع من الهجرة معاهداتِ حسن جوار مع صاحب العقبة النصراني في الشمال ، ومع قبائل اليهود المقيمة في واحات مَقْنا وأذْرُح والجَرْبى إلى الجنوب . ودخلت جماعات اليهود والنصارى في حمى الاسلام ورعايته تدفع الجزية والخراج وصارت هذه الجزية سابقة لها أثرها في تطورات السياسة الاسلامية فيما بعد .

وعُرف هذا العام التاسع من الهجرة (٦٣٠ — ٣١) بعام الوفود إذ فيه جاءت جماعات من كل حدب وصوب تعلن الطاعة والولاء للنبي الأمير من عُمان البعيدة ومن حضرموت واليمن . أما العشائر الكبيرة فاكتفت بارسال الوفود . ولقد اعتنق كثير من هذه القبائل الاسلام عن مصلحة شخصية أكثر مما اعتنقته عن اقتناع روحي . فاكتفى الاسلام منها بالشهادة

اللسانية مع تأدية الزكاة . وهكذا أخذت الجزيرة العربية التي لم تحنِ عنقها قط في سابق الايام لزعامة رجل واحد ترضخ لسلطة محمد وتعلن الطاعة له . وشرعت عشائرها تُقبل على الانخراط في نظامه الجديد وتُقرّ شيئاً فشيئاً مُعتقَداً اسمى وأدباً أرفع .

وفي العام العاشر من الهجرة دخل محمد عاصمته الدينيةَ مكة على رأس قافلة من الحجاج ظافراً . فكانت هذه آخر زيارات النبي لمكة فسمّيتِ حجة الوداع . ذلك بأنه بعد ثلاثة أشهرمن رجوع النبي إلى المدينة مرض وشكاصداعاً في الرأس شديداً تُوفي على أثره في الثامن من حزيران عام ٦٣٢ .

وفي العهد المدني نزلت سور القرآن الطويلة ، وكان فيها فضلاً عن الشرائع الدينية وفروض الصوم والصلاة قوانينُ اجتماعية سياسية تبحث مسائل الزواج والطلاق ومعاملة العبيد واسرى الحرب ، والاعداء . ولقد أوصى القرآن خيراً بالعبد واليتيم والمسكين والبائس والمظلوم. أو لم يجدِ اللهُ الرسولَ يتيماً مُعْدِماً فآواه ؟

وعاش محمد حتى في أيام عزّه ومجده حياة بسيطة عادية لا تكلّف فيها ولا تظاهر . كان طوالَ حياته شديد الزهد في المادة، فسكن بيتاً من الطوب حقيراً لا يختلف عن البيوت القديمة التي نشاهدها اليوم في الجزيرة وسورية ، قوامه بضع غرف وليس له إلا مدخل واحد من الصحن الذي تحيط به الغرف . وكثيراً ما شاهده الناس يرفو ثيابه البالية ويرقعها بنفسه . وكان

شاطر الناس حياتهم العامة ولا يردّ أحداً عن مجلسه صغيراً كان أو كبيراً . ويقول أحد المستشرقين الانكليز إن أعمال محمد اليومية صغيرة كانت أوكبيرة تركت أبعد الاثر في النفوس حتى أصبحت قدوة يقتدي بها الملايين إلى يومنا الحاضر ، ولم يقم في الجنس البشري فردٌ عدّهُ قومه نموذج الانسان الكامل فقلدوا أعماله بالدقة التي قلّد بها أتباع محمد محمداً .

ولم يترك محمد إلا ثروة زهيدة عادت إلى بيت المال . ولقد تزوّج من نحو اثنتي عشرة امرأة منهن من تزوجها بدافع الحبّ ومنهن من كان زواجه منها لغرض سياسي أو اجتماعي . وكان ميلهُ إلى عائشة بنت ابي بكر أقوى من ميله إلى باقي ازواجه . وقد ولدت له خديجة عدة بنين وبنات فمات البنون ولم يبقَ من البنات إلا فاطمة زوج عليّ . أما موتُ طفلهِ ابراهيمَ من مارية القبطية فقد ترك قرحةً اليمة في نفسه .

ونشأت من الجماعة الدينية في المدينة من مهاجرين وأنصار أمة الاسلام وبقي الدين أسّ وحدتها . وكانت هذه الجماعة حجر الزاوية في بناء دولة الاسلام الواسعة . وفي الواقع كانت هذه أولَ محاولة في تاريخ الجزيرة لتكوين أمّة قائمة على رابطة الدين والنظم الاجتماعية لا على أساس العصبية الدموية ، كما كانت الحال في الماضي . وتوطّدت العقيدة بأن الله منبع سلطة الدولة وان محمداً خليفتهُ على هذه الأرض وحاكمها الأسمى . وما دام الرسول في قيد الحياة فهو المنفّذ لأوامر الله والمرجع الأخير في شؤون الامة المدنية . وعلى أساس هذه

العقيدة تولى محمد زمام السلطة الزمنية بالاضافة إلى سلطته الروحية ، وشرع يمارس الحكم كما يمارسه رؤساء الدول في العالم . وعلى هذا المبدأ أصبح المسلمون اخواناً في الدين والعقيدة بقطع النظر عن نزعتهم القبليّة ، وكان إخلاصهم قبل هذا لزعماء قبائلهم. وقد أكدت ذلك كله كلماتُ النّبي في خطبته الممتازة في حجة الوداع : « ايها الناس اسمعوا قولي واعقلوه تعلمُنّ أن كل مسلم أخٌ للمسلم ، وان المسلمين إخوَة فلا يحلّ لامرىءٍ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه . فلا تظلمُنّ أنفسكم » .

وهكذا قضى الاسلام دفعةً واحدة على رابطة العصبية القوية في الجزيرة واستعاض عنها برابطة جديدة هي رابطة الايمان . فقامت الجماعة الاسلامية ولا كهنوتَ فيها أو زعامة دينية ذات رُتَب وابرشيات أو أديرة . وأصبح المسجد فضلاً عن كونه بيت العبادة ملتقى المؤمنين ودار الندوة تُلقى فيه الخطب وتجري البحوث والمناقشات وساحة للتدريب العسكري . وصار الامام يقود المؤمنين في ساحات القتال كما يؤمهم في الصلاة . وفُرض على المسلمين التآزر والاتحاد تجاه العالم بأسره. أما العرب الذين لم يقبلوا الايمان الجديد فظلوا خارج الجامعة الروحية . ونسخ الاسلام ما قَبْلَهُ .وفي آية واحدة حرّم القرآن الخمر والميسر وكانا ، بعد النساء ، أعزّ شيئين على قلب العربي . وكذلك شجَبَ الاسلام الغناء الذي كانت ترنو اليه نفوس أبناء الجزيرة العربية .

ومن المدينة امتدّ الحكم الاسلامي إلى كافة أطراف الجزيرة ليشمل فيما بعد معظم أقطار آسيا الغربية وافريقيا الشمالية. فغدت جماعة المسلمين في المدينة مثالاً مصغراً لما وصلت اليه الجماعة الاسلامية بعدُ . ولقد تسنى لمحمد في سحابة عمر غير طويل أن يهيئ الوسائل الفعالة في تكوين أمة متراصّة من قبائل مختلفة متناحرة في بلاد لم تكن لذلك العهد إلا تعبيراً جغرافياً ، وأن يقيم دولة فاقت بانتشارها السريع إلى أبعد أقطار العالم كلتسا الديانتين اليهودية والنصرانية . وفضلاً عن ذلك فقد وضع محمدٌ حجرَ الأساس لامبراطورية ضمّت بين أطرافها فُضلى مقاطعات العالم المتمدّن يومئذ . واليوم يدين جزء كبير من العالم بالاسلام وينادي بتعاليم هذا الرجل الأميّ الذي كان الواسطة في إخراج كتاب لا يزال سُبْعُ سكان المعمورة يعتبره القولَ الفصل في العلم والحكمة والدين .

القرآن والإيمان

ليس غريباً ان ترى في أيامنا هذه مسلماً يلتقط ورقة من الأرض فيودعها بتحفظ مكاناً في جدار خشيةَ ان يكون في سطورها ذكرٌ لله أو آية من القرآن فتدوسها السابلة . والمسلم يعتبر القرآن كتاب الله فيوليه احتراماً عميقاً ويقدّسه . إنه كلمة الله التي أملاها جبريل على محمد « لا يَمَسّه إلا المُطَهَّرُوْنَ » (سورة الواقعة) .

ومع ان في العالم اليوم من النصارى ما يقرب من ضعفَي عدد المسلمين فيمكن القول إن القرآن هو الكتاب الذي يقرأه الناس أكثر ما يقرأون ، لأنه ليس كتاب دين فقط بل هو كتاب درس واطلاع يعتمد عليه كل مسلم ومسلمة في تعلّم اللغة العربية . وليس للقرآن ترجمةٌ رسمية إلى لغة أجنبية إلا الترجمة التركية . ولكنه نُقل إلى نحو اربعين لغة بدون تفويض . وأول ترجمة

للقرآن إلى لغة أجنبية كانت في اللغة اللاتينية ، قام بها في القرن الثاني عشر بطرس كلوني الملقب بالفنرابل Venerable . وقد رمى بهذه الترجمة إلى دحض العقائد الاسلامية وتكذيب الرسول. أما أول ترجمة انكليزية فقد ظهرت عام ١٦٤٩ ، قام بها اسكندر روس Ross معتمداً على نسخة افرنسية ووسمها بهذا الاسم « قرآن محمد — وهي ترجمة انكليزية وضعت ارضاءً لرغائب من يريد الاطلاع على أباطيل الترك » .

ولستَ تجد في القرآن آياتٍ كثيرة قابلةً للالتباس في القراءة كما هي الحال في لغات التوراةِ الأصلية . ولقد كان المؤمنون في البداية يحفظون سُوَرَهُ وآياته عن ظهر قلب ، حتى إذا خُشِي انقراضُ الحفّاظ بسبب الحروب أشير بجمعها . ولقد تمّ جمع المصحف من قطع العُسُب (جمع عسيب وهو جريدة النخل) وألواح اللخاف (الحجارة البيضاء الرقيقة) ومن صدور الناس . فجيء بهذه القطع وقوبلت بعضها ببعض ثم أثبت النص القرآني الرسمي كاملاً . وكان ذلك في أيام عثمان بعد موت النبي بتسعة عشر عاماً . وما زالت هذه النسخة تعتبر النسخة القانونية فلا يجوز الحذف منها ولا الزيادة عليها . وقد راجت قبلها نسخ أخرى لم تعتبر رسمية فأتلفت .

ولقد أحصيت آيات القرآن فكانت ٦٢٣٦ آية وأحصيت كلماته فكانت ٧٧,٩٣٤ ، وأحصيت كذلك حروفه فكانت ٣٢٣,٦٢١ حرفاً . والقرآن قلب الدين الاسلامي والهادي إلى الجنة ، وهو فضلاً عن ذلك موجز علمي وصكّ سياسي يضم

بين طياته مجموعةَ قوانينَ وشرائعَ لتدبير شؤون مملكةٍ على هذه الأرض .

ومما يلفت النظر أن لمعظم ما يحتويه القرآن من حوادثَ تاريخيةٍ أمثلةً توازيها في التوراة . ومن رجال العهد القديم الذين ورد ذكرهم في القرآن : آدم ونوح وابراهيم(ورد ذكرهم سبعين مرةً) واسماعيل ولوط ويوسف وموسى (ورد ذكرهم في ٣٤ سورةً) وطالوت (شاؤل) وداود وسليمان وايليا وايوب ويونس (يونان). ولقد ورد ذكر قصة الخليقة وسقوط آدم خمس مرات . وورد ذكر قصة الطوفان ثماني مرات ، ومثلها قصة سدوم . والقرآن لا يذكر بتأكيد من رجال العهد الجديد سوى زكريا ويحيى (يوحنا المعمدان) وعيسى ومريم. أما الآيات التي وردت فيها عبارات كهذه « والعينُ بالعينِ » والجمل في « سَمِّ الخياطِ » و «أفمن أسسَ بُنْيانَهُ على جُرُفٍ هارٍ » و « كلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموت » فالظاهر انها من الامثال الساميّة القديمة والاقوال المشتركة بين العبرانيين والعرب فهي واردة أيضاً في العهدين القديم والجديد . أما العجائب التي ينسبها القرآن إلى عيسى كالقول إنه « يُكلّمُ الناسَ في المهدِ » (آل عمران) وأنه خلقَ « من الطين كهيئة الطير » (آل عمران) فهي من الخوارق التي جاء ذكرها فقط في الاناجيل الابوغرافية (غير المعترف بها) كانجيل الطفولية .

والدين الاسلامي أقرب إلى اليهودية القائمة على العهد القديم منهُ إلى النصرانية والعهد الجديد . ومع ذلك فقربه من النصرانية

كان شديداً بحيث حسبه الناس في أول عهده بِدْعةً نصرانيةً جديدة لا ديناً مستقلاً . ومن هؤلاء دانتي في روايته « الكوميدية الالـهية » .

ومن ينظر في القرآن يجد ان ترتيب سورِه جرى على أساس الطول والقِصَر . فالسور المكّية وهي نحو تسعين ترجع إلى عهد الجهاد في حياة النبي . وهي تمتاز بأنها قصيرةٌ موجزةٌ جامعةٌ ذاتُ اسلوب ناريّ ، طافحة باحساسات النبوّة . ومحورهـا الدلالة على وحدانية الله وصفاته وواجبات الانسان الادبيـة والحساب الاخير . أما السور المدنية التي نزلت على محمد في عهد الظفر فهي أربع وعشرون وتبلغ نحو ثلث محتويات القرآن . وهي طويلة مفصّلة غنية بمادتها التشريعية . وفيهـا وردت العقائد الدينية وأحكام الصلاة والصوم والحج والاشهر الحُرُم . وفيها أيضاً شرائع تحريم الخمر ولحم الخنزير والميسر وأحكام تنظيم المال والحرب وفروض الزكاة والجهاد وقوانينُ مدنيةٌ وجزائية تتعلّق بالقتل والثأر والسرقة والربا والزواج والطلاق والزنا والميراث وإعتاق العبيد . أما أحكام الزواج التي يكثر الاستشهاد بها في الغرب فهي في الواقع تُحدّد عـدد الزوجات وتقلله عما كان عليه . والنَقَدة الغربيون يحسبون أحكام الطلاق أشدّ الاحكام استنكاراً ، والشرائع التي تُعنى بمعاملة العبد واليتيم والغريب أكثرها رفقاً وبراً . ولقد علّم القرآن ان إعتاق العبد نافلةٌ يرضاها الله من الانسان كفّارةً عـن ذنوبه .

والقرآن كتاب حيّ فعال له تأثير بليغ في النفوس وخصوصاً إذا تُلي مُرتلاً بلغته الأصلية . وبعض تأثيره في النفس راجع إلى ما هو عليه من حسن السبك وعذوبة السجع والبلاغة وموسيقى الالفاظ والاناقة . ومن العسير أو المستحيل أن يستطيع مترجم نقل هذه المميزات في اسلوب انشائي رائع إلى لغة أجنبية . وليس القرآن كتاباً ضخماً فطوله لا يزيد في الواقع على اربعة اخماس العهدالجديد باللغة العربية . أما تأثير القرآن الديني في الاسلام وسلطته الجازمة في الشؤون الروحية والأدبية فناحية أخرى من نواحي عظمته . والمسلمون الذين يحسبون علم الدين والفقه والعلوم الأخرى وجوهاً متفرقة لموضوع واحد يجدون القرآن وافياً بحاجاتهم من كافة النواحي ، ومن هنا كان عندهم كتاباً مدرسياً يأخذ من مناهله كل طالب للعلم الحر . وما يزال القرآن في الأزهر ، وهو أعظم جامعة اسلامية في العالم ، أساساً لمنهاج الدراسة والتهذيب . وللقرآن فضل كبير على الأدب في صيانة اللغة العربية ، إذ لولاه لاصبحت لهجاتها المتعددة لغات مستقلة كما جرى للغات الرومانسية التي كانت في أول عهدها لهجات من اللغة اللاتينية ، فبينما يلقى العراقي اليوم صعوبة في فهم لغة المراكشي العامية فانه لا يعاني جهداً في إدراك لغة مراكش المكتوبة لأن اللغة العربية المكتوبة سواء أكانت في العراق أم في مراكش وسورية والجزيرة ومصر أم في غيرها من الاقطار العربية الاخرى هي اللغة نفسها التي لها في القرآن انموذج ينسج عليه الكتاب . ولم يكن في اللغة العربية قبل محمد كتاب

نثريّ على الاطلاق . ومن هنا كان القرآن في السابق ، ولايزال إلى يومنا هذا ، المثل الأعلى للاسلوب النثري الرشيق . وليس من شك في ان لغته موسيقية وبليغة ، ولكنها غير شعرية . والكتّاب المحافظون يحذون حذوه ويحاولون تقليده ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

ويميّز العلماء في أصول الدين الاسلامي بين الايمان والعبادات . أما الايمان فهو الاعتقاد بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وأول عقائد الايمان وأهمها أنه لا الـه إلا الله ، وانه هو المهيمن على كل شيء . والواقع ان نحو تسعين في المئة من أصول الدين الاسلامي تدور حول فكرة « الله ».فهو الالـه الحق والحقيقة السامية ، الكائن منذ الأزل والخالق العليم القدير، الحيّ القيّوم . ولله من الأسماء الحسنى تسعة وتسعون ، وله مثل هذا العدد من الصفات . ولعل هذا هو السبب في ان سبحة المسلم تتألف من تسع وتسعين خرزةً . وتتغلّب صفات القوة والجلال في الله على صفات المحبة . وما الاسلام إلاّ دين الطاعة والاستسلام لارادة الله . وربما كانت كلمة « أسلم » (سورة الصافّات) التي جاءت في قصة ابراهيم لما حاول ان يقدم ابنه قرباناً هي الاصلُ في تسمية هذا الدين بالاسلام . وأقوى ما في الاسلام ، على ما فيه من بساطة وايمان راسخ بسلطة الله العليا ، هو فكرة التوحيد الجازمة . ولهذا ترى اتباعه يتمتعون بقناعة واستسلام لا مثيل لهما بين أتباع الأديان الأخرى . وبسبب هذا يندر الانتحار بينهم .

والعقيدة الثانية في الايمان هي ان محمداً رسولُ الله ونبيهُ ، ونذير قومه ، وخاتمة سلسلة طويلة من الأنبياء ، ولهذا فهو اعظمهم . وليس محمد إلا بشراً ، في علم الالهيات القرآني . والعجيبة الوحيدة التي جاءت على يده كانت إعجاز القرآن . إلا ان التقاليد والاساطير التي راجت بين العامة قلّدت الرسولَ هالةً من النور الالـهي . والدين الاسلامي دينٌ عملي ليس فيه ما يصعب ادراكه ، ويكاد يكون خلواً من التعقيد والالتباس . وليس فيه شيء مما يقابل الاسرار الرمزية المقدسة أو المراتب الكهنوتية ، أو فروض الرسامة والمسح والتكريس « والخلافة الرسولية » .

والقرآن هو كلمة الله ، وآخر الكتب المنزلة . وهو « غير مخلوق » ، وكل اقتباس منه يُستهلّ بـ « قال الله تعالى » . وكل ما فيه من تركيب لفظي أو تصويري نسخة طبق الاصل عن امّ الكتاب — أي اللوح الازلي المحفوظ في السماء السابعة . وإذا كانت هناك معجزات فالقرآن أعظمها ، ولو ان الانس والجن اجتمعوا لما استطاعوا ان يأتوا بمثله .

ويضع الدين الاسلامي جبريل في مقدمة الملائكة فهو حامل الوحي ، والروح القُدُس ، والروح الامين .

والخطيئة إما أدبية أو فرضية . والاثم الوحيد الذي لا يغفره الله هو خطيئة الشرك . « إن الله لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذلك » (سورة النساء) . وأقبح ما كان مقته محمد هو الزعم بان لله شركاء ، وهكذا نزلت السور المدنية وهي

ملأى بتهديد المشركين ووعيدهم بيوم الدين . والراجح ان محمداً لم يشمل أهل الكتاب وهم النصارى واليهود في عداد المشركين ، مع ان بعض شارحي الآية الخامسة من سورة البينة يرون غير ذلك .

وأشد أقسام القرآن تأثيراً في النفس تلك التي تُعنى عنايةً خاصة بموضوع حقيقة الآخرة . ففيها اشارات متتالية إلى « يوم الدين » و « يوم البَعْث » و « اليوم » و « الساعة » و « الحاقة » . والآخرةُ التي يصورها القرآن بما فيها من عذاب ولذة جسديين تدل على الاعتقاد بالبعث الجسدي .

أما العبادات في الاسلام فتقوم على خمسة اركان . اولها الشهادة وتتلخص في العبارة المؤثرة الفعالة « لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله » . وهذه أول عبارة تطرق أذن الطفل المولود في حضن الاسلام ، وهي آخر ما يقال على اللحد . والمسلم لا يسمع بين مرحلتي الولادة والموت عبارةً تكرّر أكثر من هذه . وهي تردُ في دعوة المؤذن للصلاة فينادى بها مراراً كلّ يوم من على رؤوس المآذن . وقد اكتفى الاسلام ، على العموم ، بهذه الشهادة اللسانية ، فمن قبلها وردّدها أصبح — مبدئياً — مسلماً .

وثاني هذه الاركان الصلاةُ التي يفرض على المسلم الصادق ان يؤديها خمس مرات في اليوم ، مولياً وجههُ شطر مكة ، وذلك عند الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء . ونظرة شاملة إلى العالم الاسلامي في ساعات صلواته تريك عدة حلقات من العابدين الواحدة ضمن الأخرى ، وكلها تتمركز حول نقطة

واحدة هي الكعبة . وآخر هذه الحلقات تمتدّ من سيراليون في الغرب إلى كانتون في الشرق ، ومن توبولسك في الشمال إلى رأس الرجاء الصالح في الجنوب .

والصلاة الفرضية كما يحددها الشرع يجب ان تؤدى باتجاه نحو القبلة ، وعلى طراز واحد من السجود والركوع . وعلى العابد أن يقوم بها وهو في حالة الطهارة ، وان يؤديها باللغة العربية مهما كانت لغته القومية . ولهذه الصلاة شكل ثابت متفق عليه ، وهي تقوم على الاكثار من ذكر الله بأكثر مما تقوم على التوسّل والتضرّع . والفاتحة على بساطتها بليغة المعاني ، ويشبّهها بعضهم بالصلاة الربانية عند النصارى . والمسلم يردّدها نحو عشرين مرة في اليوم . فهي أكثر الصلوات المعروفة في الدنيا ترديداً . أما الصلاة التي يقوم بها العابد اختياراً أثناء الليل (التهجّد) فهي في نظر الله نافلةٌ تستحق التقدير المزدوج .

وصلاة الظهر من كل يوم جمعة هي الصلاة الوحيدة العمومية . ولزامٌ على كل ذكر بالغ القيامُ بها. وبعض الجوامع تُفرد قسماً خاصاً منها للنساء . وفي صلاة الجمعة يدعو الامام للخليفة أو رأس الدولة . وليس من شكل للصلاة العمومية يفوق صلاة الجمعة جلالاً وبساطةً وتنظيماً . ومما يثير النفس إعجاباً ان ترى العابدين منتصبين في المسجد أثناء الصلاة في صفوف منتسقة يمتثلون لقيادة الامام بدقة وخشوع . ومما لا ريب فيه ان هذه الصلاة العمومية كانت أكبر عامل تأديبي في توحيد صفوف المسلمين من أبناء البادية ذوي النفوس الفخورة الأبية

المشبعة بروح الفردية . وقد غرست فيهم روح المساواة الاجتماعية والشعور الموحّد ، ورقّت فيهم التآخي الديني الذي نشده محمدٌ رابطةً بين المؤمنين بدلاً من رابطة العصبية الدموية . وهكذا أصبحت نُظمُ الصلاة خطوةً أولى في التدريب العسكري .

وثالث هذه الاركان الزكاة . وقد كانت في الاصل عملاً اختيارياً القصدُ منه إسداء الخير والاحسان إلى ذوي الحاجة . لكنها ما عتّمت أن انقلبت فرضاً على العقار بما فيه المال والقطيع والحبوب والاثمار والسِلَع . وقد عهدت الدولة الاسلامية الفتية جبايةَ الزكاة إلى عمال في مختلف الولايات . وتولى بيتُ المال إدارتها لسدّ نفقات الدولة ولمساعدة الفقراء وبناءالجوامع . والمبدأ الذي تقوم عليه الزكاة يقرب من مبدأ العُشر الذي كان عرب الجنوب يؤدّونه لآلهتهم قبل أن يُسمح لهم ببيع طيوبهم . ولقد اختلفت مقادير الزكاة على مرّ الأيام، ولكنها كانت على وجه التعديل اثنين ونصفاً في المائة . ولم يُستثنَ من هذا رواتبُ التقاعد في الجندية . ولما تضعضعت الدولة الاسلامية رجعت الزكاة إلى مبدأها الاصلي القائم على الوجدان .

ورابع هذه الاركان صومُ رمضانَ . ومع ان صيامات التوبة فُرضت في القرآن عدةَ مرات فصومُ رمضانَ لم يأتِ ذكرهُ إلا مرةً واحدة . ويتحتّمُ الامتناع فيه عن الطعام والشراب من الفجر حتى غروب الشمس . وقد عُرفت حوادثُ استَعْمَلَت فيها الحكومات والجماعاتُ في البلاد الاسلامية

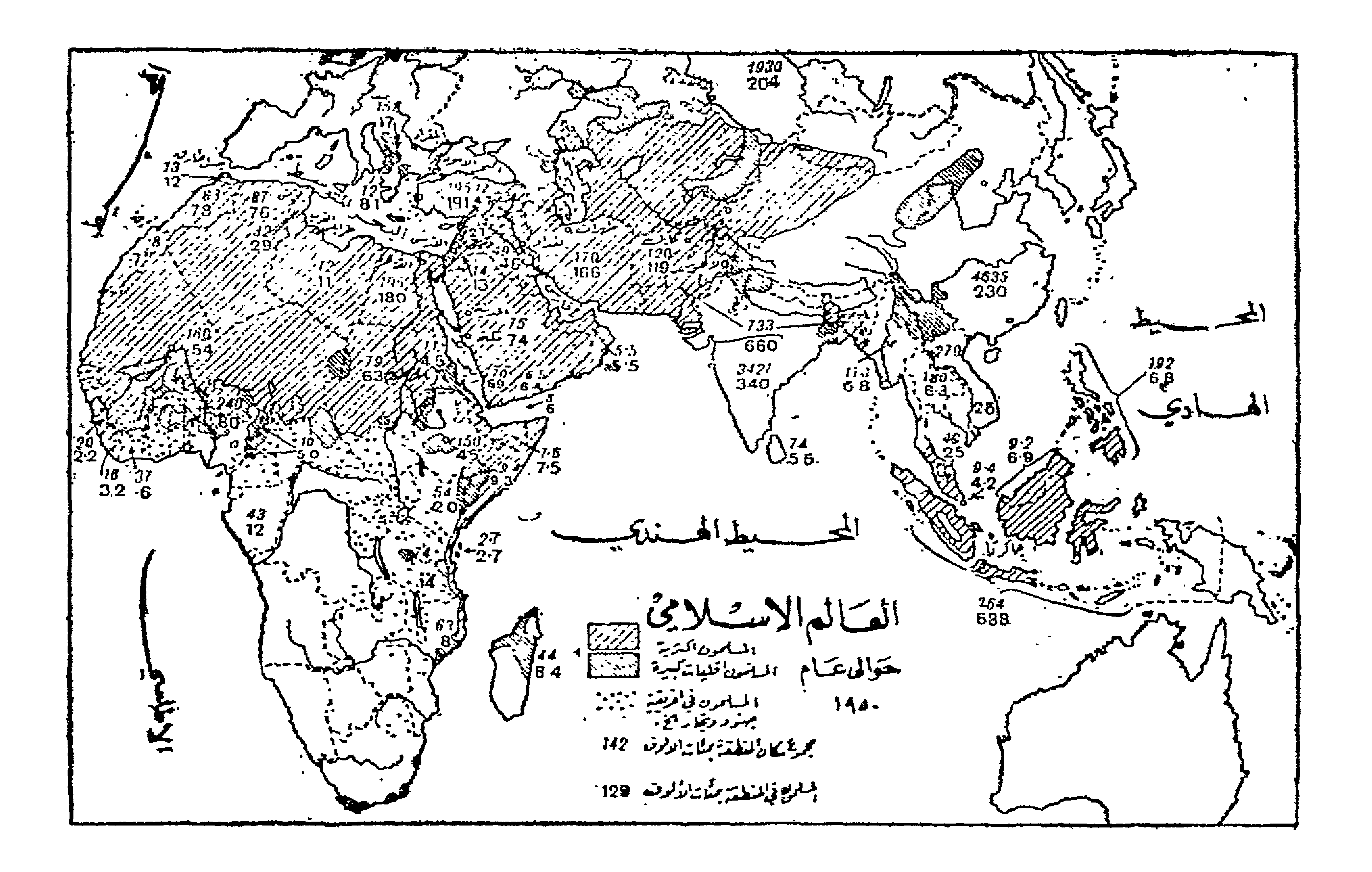
العنفَ مع المسلم غيرِ الصائم . وليس لدينا دليل يُثبت ان عرب الجاهلية كانوا يمارسون الصوم . إلا ان هذه العادة كانت مَرْعية بين اليهود والنصارى في أوائل عهدهم .

أما الحجّ فهو الركن الخامس والأخير ، ويُفرض بموجبه على كلّ مسلم ومسلمة زيارةُ البيت الحرام مرةً واحدة في العمر في وقت معين من السنة ، إذا استطاعا إلى ذلك سبيلاً . وعلى الحاج أن يكون في حالة الطهارة المرموز اليها بلبس إزار ، وهو قطعة واحدة من قماش غير مَخِيْطٍ ، وان يُراعي (علاوة على المحظورات المفروضة في صوم رمضان، كعيافِ الجماع) أنظمةً خاصة تحرّم إهراق الدماء والصيد وقلع النبات . والحج إلى الاماكن المقدسة كان عادة ساميّة قديمة ظاهرة آثارُها في التوراة .

وجماعات الحجاج من السنغال وليبريا ونيجيريا تزداد عدداً بمواصلة الرحلة وهي تجتاز أواسط افريقيا متجهة شرقاً . وبعض الحجاج يسير مشياً على الاقدام وغيرهم يركب الابل . ومنهم من يعوّل على الاتجار في طريقه وغيرهم يعتمد الاستجداء . وكثير من الحجاج يموتون على قارعة الطريق فيُعدّون شهداء. أما الذين ينجون بأرواحهم فيبلغون في النهاية أحد مرافِىء البحر الأحمر الغربية ، ومنه يُنقلون بقوارب إلى الشاطئ المقابل . على ان قوافل الحجاج الاربع الكبرى تجيء من اليمن والعراق وسورية ومصر . ولقد كانت كل من هذه البلدان فيما مضى ترسل كلّ عام على رأس قافلة حجيجها مَحمِلاً يرمز إلى

مكانتها . والمحملُ يُغطى بنسيج من الحرير وافر الزينة والزخرف يُحمل على جمل يُقاد باليد دون ان يركبه أحد . ولم يبقَ ما يشبه بزهوه وأبهته المحاملَ القديمة إلا المحملُ المصري . وقد توقف تسييره منذ عهد عبد العزيز ابن سعود .

ولقد بلغ متوسط عدد الحجاج السنوي بعد الحرب العالمية الاولى ١٧٢,٠٠٠ حاجّ . وكان عددهم لعام ١٩٠٧ حسب الاحصاء التركي ٢٨٠,٠٠٠ حاجّ ، وفي عام ١٩٥١ بموجب التقرير السعودي ٦٢٠,٠٠٠ ، وفي سنة ١٩٥٣ فوق المليون منهم الثلث وفدوا من خارج البلاد . ولقد ظل الحج على كرّ العصور أكبرَ عامل موحّد في الاسلام ، وأقوى رابطة بين مختلف طبقات المؤمنين . وهو الذي جعل من كل مسلم قادر رحالة ولو مرّة في عمره . واجتماعات كهذه لها تأثير اجتماعي فعّال بين جماعات المؤمنين الذين يأتون من أقطار المعمورة الأربعة . فالحج أتاح للزنوج والبربر والصينيين والفُرس والسوريين والترك والعرب — الفقير منهم والغني والرفيع والوضيع — ان يجتمعوا ويتآخوا على أساس الايمان المشترك . والحق ان الاسلام قد وُفّق أكثر من أديان العالم جميعاً إلى القضاء على فوارق الجنس واللون والقومية وخاصة بين أبنائه . ولا شك في ان الاجتماع في موسم الحج له الفضل الاكبر في تحقيق هذه الغاية . وعلاوة على ذلك فقد وفّر الحج الفرص السانحة لنشر الدعاوة والافكار المذهبية بين جماعات من الناس قادمين من بلدان مختلفة لا تربطها بعضها ببعض وسائل الاتصال



العالم الإسلامي
حوالي عام ١٩٥٠
المحيط الهندي
المحيط الهادي

الحديثة ، وليس للصحافة فيها صوت فعّال .

وهناك فرض آخر تعتبره الخوارج ، وهي احدى الفرق الاسلامية ، ركناً سادساً وهو الجهاد . واليه يعود الفضل في توسع الاسلام توسعاً لا مثيل له جعل منه دولة عالمية . ومن واجبات الخليفة الرئيسية ان يظلّ عاملاً في توسيع نطاق دار الاسلام الجغرافي على حساب دار الحرب . إلا ان فكرة الجهاد لم تلق في السنين المتأخرة تأييداً العالم الاسلامي . ذلك بأن كثيراً من المسلمين كانوا يخضعون لحكومات أجنبية متعددة يصعب مقاومتها . اضف إلى هذا ان النزعات القومية أخذت تحل محل النزعة الدينية . ولقد كان الخليفة محمد رشاد آخر من وجه إلى العالم الاسلامي نداءً للجهاد وذلك في خريف سنة ١٩١٤ . غير انه أخفق في محاولته إخفاقاً تاماً .

سير الإسلام

إن أهمّ حادثتين في أوائل العصور الوسطى كانتا مهاجرة الطوطون التي أسفرت عن انحلال الامبراطورية الرومانية ثم الفتوحات العربية التي قضت على دولة الفرس وزعزعت أركان الامبراطورية البيزنطية . ولو تجرأ أحدهم على التنبوء في اوائل القرن السابع المسيحي بظهور قوّة لم يسبق لها نظير تقوم في مجاهل الجزيرة العربية التي لم يكن لها قبلاً شأن تاريخي وتدفع بنفسها على الدّولتين العالميّتين الوحيدتين في ذلك العصر فتحلّ محلّ الواحدة — السّاسانيّة — وتجرّد الأخرى — البيزنطية — من أغنى ولاياتها ، أقول لو تجرّأ أحدٌ على مثل هذه النبوءة لعدّهُ الناس مجنوناً . ولقد حدث هذا بعينه. اذ بعد وفاة النبيّ العربيّ تحوّلت الجزيرة من دار عاقر إلى أخرى ولود ، فأنجبت أبطالاً قلّ أمثالهم في العالم . فحملات خالد بن الوليد وعمرو

ابن العاص في العراق والشام ومصر تُعدّ من أروع الحملات وأدقها تنفيذاً في تاريخ الحروب ، وتحاكي حملات نابوليون وهنيبال والاسكندر .

وقد ساعد العرب في فتوحاتهم عواملُ عديدة . فالحروب المتواصلة بين البيزنطيين والساسانيين لمدة أجيال فتّت في ساعد الفريقين وأضعفت قواهما . والضرائب الباهظة الناتجة عن هذه الحروب المفروضة على رعايا الدولتين ، أخمدت من ولائهم . واستيطان بعض القبائل العربية الشامَ والعراق ، والانشقاق في الكنيسة المسيحية ، واضطهاد الكنيسة البيزنطية المنشقّين عنها — كل هذه مهّدت السبيلَ لتلك الفتوحات . وقد رحب سكان البلاد الساميّون في سورية وفلسطين والحاميّون في مصر بالعرب واعتبروهم أقرب نسباً اليهم من حكامهم الأغراب الطغاة . وفضلاً عن ذلك فالجزية التي فرضها الفاتحون كانت أقل من التي جباها سابقوهم ، في حين سمح المسلمون للمغلوبين على أمرهم بممارسة دينهم بحرية أوسع وطمأنينة أكبر . وهكذا استيقظ الشرق السامي من سُباته الطويل وامتلك روعه بعد رضوخه للغرب الأوروبي مدة ألف سنة . ولا غرو فقد كان العرب عنصراً غضاً ملتهباً بالحماسة ومتشرّباً روح الفتح والانتصار ، ومستخفاً بالموت بدافع إيمانه الجديد .

ويرجع انتصار العرب العجيب ببعض أسبابه إلى استخدامهم فنوناً حربية تصلح لفلوات غربي آسيا وشمالي افريقيا ، وإلى اعتمادهم على الخيالة والهجانة التي لم يُحسن

استخدامَها الرومانُ . وكان الجيش العربي ينقسم إلى فرق خمس هي : المقدمة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة ، والساقة . وتحمي الخيالة الميمنةَ والميسرة . وكان هذا التقسيم قائماً على أساس الوحد القبَلية . فكانت كل قبيلة تتخذ لواءً لها ، وهو عبارة عن نسيجٍ مرفوع على قناة يحملها أشجعهم . أما شعار النبيّ فكان العُقاب . وكان المشاة يستعملون القوس والنشّاب والمِقلاع وأحياناً السيف والترس . وكانوا يحملون السيوف في أغماد يشدّونها إلى الكتف اليمنى . أما الحربة التي جاءت من الحبشة فكان ظهورها متأخراً . وكان سلاح الفارس الرئيسي الرمح ، وهو مع القوس والنشابِ قوامُ السلاح القومي . أما عدة الدفاع فلم تتعدّ الترس الذي كان أخف من الترس البيزنطي .

وكان نظام القتال بسيطاً ساذجاً يتألف من الصفوف في ترتيب متراصّ . وكانت المعركة تبتدىء بمنازلة فردية للابطال الذين كانوا يتقدمون من مراكزهم في الفرق ويطلبون الخصم للبراز . وكان عطاء المحارب العربي يزيد على عطاء المحارب الفارسي البيزنطي ، ناهيك انه كان ينال قسماً من الغنيمة . ولم تكن الجندية خير مهنة في نظر الله واشرفها فحسب ، بل أوفرها دخلا أيضاً . والحق ان قوة الجيش العربي لم تقم على تفوق سلاحه وحسن تنظيمه ، بل على قوة معنوياته التي انبثق معظمها من الدين ، وعلى احتماله الصعوبات التي اعتادها في الصحراء ، وعلى سرعته بداعي استعماله الجملَ وسيلة للنقل .

وتكاد المراجع العربية تنظر إلى الحركة الاسلامية كحركة دينية بحتة ، فهي لا تعرض لمسبباتها الاقتصادية . ومن جهة يزعم بعض الغربيين ان الفاتحين المسلمين عرضوا القرآن في يد والسيف في أخرى . غير انّ الواقع هو ان المسلمين عرضوا خياراً ثالثاً وخصوصاً لليهود والنصارى خارج الجزيرة ، وهو الجزية. وبهذه المناسبة نزلت الآية: «قاتِلُوا الذين لا يُؤمنون بالله ولا باليَومِ الآخِرِ ولا يُحَرّمون ما حَرّمَ اللهُ ورَسُولُهُ ولا يَدِينُونَ دِينَ الحقّ مِنَ الذِينَ أُوتُوا الكِتابَ حتّى يُعطُوا الجِزْيةَ عَنْ يَدٍ وهُمْ صاغِرُون» (سورة التوبة) .

وليس من شك في انّ الاسلام جاء بشعار جديد التفّت حوله أقوام لم تجتمع من قبل ، وان الدين كان أكبر عامل في خلق تلك الروح المتحفزة التي أبداها المسلمون . ولكن ذلك ليس كافياً وحده لتعليل الفتوحات . فكثرة الجيوش العربية كانت تتألف من البدو الذين خرجوا من ديارهم المجدبة إلى الامصار الخصبة في الشمال بدافع الحاجة الاقتصادية لا بدافع الغَيْرة على الدين . ولعل منهم من كان يحلم بالجنة ونعيمها . إنما الكثير منهم كان يحلم بالتمتع بخيرات حضارة الهلال الخصيب ونعمها على ما كانت الحال مع القبائل السامية الأخرى من قبلهم . فالتوسع الاسلامي إذاً كان آخر حلقة من حلقات الانسحاب التدريجي من الصحراء المجدبة إلى الهلال الخصيب الملاصق ، أي آخر هجرة سامية كبرى .

أما مؤرخو الفتوحات الاسلامية ، وكلهم متأخرون ، فإنهم

نظروا اليها على ضوء ما عقبها من الحوادث ، وصوروها لنا وكأنها خطط أحكم وضعها الخلفاء الاولون ؛ وفي مقدمتهم ابو بكر وعمر . على ان التاريخ يكاد لا يرينا أبداً حوادث هامة ادرك بادئوها الطريق التي تتخذها ، والشأن الذي تؤول اليه . فالفتوحات الاسلامية إذاً لم تكن في بدء عهدها نتيجةً لخطة مرسومة ، بل كانت عبارة عن غزوات مصدرها الروح المتحفزة للقتال — القتال الذي حرّم الاسلام ممارسته بين القبائل المسلمة المتآخية — وغايتها الاولى الغنيمة لا الفتح الدائم والاستعمار . بيد انه بتتابع الايام أفلتت هذه الحركة من يد أصحابها وازدادت قوة ونشاطاً بالظفر بعد الظفر والانتصار بعد الانتصار . وعندئذ بدأت الحملات المنظمة وأصبح تأسيس الدولة العربية نتيجةً محتّمة . وقصارى القول ان هذه الدولة كانت نتيجة منطقية لمجرى الحوادث لا لخطة أو تدبير سابق .

والتعليل الديني للفتح الاسلامي يقابل تعليل تاريخ العبرانيين في العهد القديم وفلسفة التاريخ المسيحي في العصور الوسطى . وهو فضلاً عن ذلك يستند إلى تفسير لغوي فيلولوجي خاطىء . فلفظة «إسلام» يمكن استعمالها لمعانٍ مستقلة ثلاثة : أولها الدين وثانيها الدولة وثالثها الثقافة . فالاسلام ، كدين ، يختلف عن اليهودية والبوذية القديمة ، ويتفق مع النصرانية في كونه ديناً تبشيرياً فعالاً . والاسلام ، كدولة ، وقد عقب الاول ، هو الذي فتح الاقاليم الشمالية . فالفتوحات إذاً تمت بفضل الدولة لا الدين . وخروج العرب من جزيرتهم ومفاجأتهم للعالم كأعضاء

ثيوقراطية قومية كان في الدرجة الأولى فوزاً للعروبة ، إذ لم يدخل السواد الأعظم من أهل سورية والعراق وفارس في دين الاسلام حتّى القرن الثاني والثالث للهجرة . وكان دخولهم في الأصل بدافع المصلحة كي لا يدفعوا الجزية وليصبحوا في عداد الطبقة الحاكمة . أما الاسلام ، كثقافة ، فقد تطوّر تدريجياً بعد الفتح على أساس حضارات السّريان الآراميين والفرس واليونان الّتي سبقته . وهكذا لم يستعد الشرق الأدنى بالاسلام ملكه السياسي السابق فحسب ، بل استعاد أيضاً ثقافته السابقة الرفيعة .

وقبل أن يتدفق العرب من جزيرتهم ويحتلوا بلاداً أخرى كان لزاماً عليهم أن ينظروا في شؤون أنفسهم ، وان يجابهوا في الحال مشكلةً معقدة هي مشكلة خلافة الرسول .

كان للرسول وهو في قيد الحياة وظائف عدّة . كان هو النبي والمشرّع والامام والقاضي وأمير الجيش ورئيس الدولة المدني . ولكن محمداً مات فبرزت مشكلة الخلافة على الوظائف الّتي شغلها باستثناء الوظيفة الروحية الّتي لا يستطيع أحد أن يخلفه فيها ، بوصفه خاتمَ الرسل والنبيّين .

مات الرسول عن ابنة واحدة — فاطمة زوج علي — دون أن يُعْقِبَ ذكوراً . والمشيخة العربية حينئذٍ لم تكن وراثية بل شبه انتخابية على أساس الأقدمية في السنّ . ومن هنا جاز لنا ان نفترض انه ولو لم يحتسب النبيّ بنيه لبقيت مشكلة الخلافة دون حلّ . ثم إن النبيّ لم يعيّن خليفتهُ تعييناً واضحاً . فالخلافة إذاً أقدم مشكلة جابهها الاسلام ولا يزال يجابهها إلى اليوم . ففي

آذار سنة ١٩٢٤ خلع الأتراك الكماليون الخليفة عبد المجيد الثاني وألغوا الخلافة العثمانية . وكان ذلك بعد ستة عشر شهراً من تقويضهم للسلطنة . ومنذ ذلك اليوم انعقدت عدة مؤتمرات اسلامية في القاهرة ومكة للبحث في أمر الخلافة ، ولكن دون جدوى . ولقد صدق الشهرستاني عندما قال « وأعظم خلاف بين الامة خلاف الامامة إذ ما سُلّ في الاسلام على قاعدة دينية مثلُ ما سُلّ على الامامة في كل زمان » .

وعلى اثر وفاة النبي ظهرت أحزاب متباينة كما يحدث في أي حالة يتداول الناس فيها شأناً خطيراً. فادعى المهاجرون المكيّون أنهم أولى الناس بالخلافة لانتسابهم إلى قبيلة النبي ولكونهم أولَ من صدق بدعوته . ومن جهة أخرى ادعى الانصار المدنيون انه لولا حمايتهم النبيّ والاسلام الغض لهلك النبي وهلك الاسلام. غير ان الفريقين اتحدا فيما بعد وصارا يُعرفان بالصحابة. ثم جاء أصحاب النص والتعيين وحجتهم ان الله ورسوله ما كانا ليتركا أمر المسلمين إلى رغائب المنتخبين وأهوائهم . وإذاً فلا بد انهما قد تدبرا أمرهم وعيّنا من يخلف النبي ، وأنّ علياً ، ابن عم النبي وزوج ابنته فاطمة ، وأحد السابقين إلى الايمان بدعوته ، هو الخليفة الشرعي ، وانه تعين كذلك بنص الهي . وهكذا اعتقد هؤلاء بالحكم عن طريق التفويض الألهي لا عن طريق المبايعة والانتخاب . وكان هناك حزب آخر قوامه الأمويون أشراف قريش الذين قبضوا على زمام السلطة والثروة في الجاهلية وقد جاؤوا معلنين اولويتهم بالخلافة ، رغم كونهم آخر من

اعتنق الاسلام من هذه الأحزاب .

ثم ان اول هذه الأحزاب فاز بالخلافة ، فبايع زعماء القوم المجتمعون أبا بكر . وكان أبو بكر شيخاً تقياً ومن أول الذين صدقوا النبي وآمنوا بدعوته . وهو أبو عائشة ، إحدى أزواج النبي . ثم تبع ابا بكر في الخلافة عمرُ وعثمان وعلي . وهؤلاء الاربعة هم الخلفاء الراشدون . وفي مدة خلافتهم كانت حياة النبي نبراساً وهاجاً يضيء سبيل اعمالهم . ولا غرو ، فقد ربطتهم بالنبي أواصر الصداقة والقربى .

ويقول المؤرخون العرب إن الجزيرة ، ما عدا الحجاز ، ارتدت عن الاسلام على أثر وفاة النبي . أما الواقع فهو ان المقاطعات التي أسلمت في حياة النبي وخضعت لسلطته لم تتجاوز على ما نعتقد ثلث الجزيرة . وذلك لصعوبة المواصلات ، ولعدم قيام الدعوة المنظمة ، ولقصر المدة الواقعة بين البعثة ووفاة النبي . والحجاز نفسه لم يسلم بأكمله حتى سنة أو سنتين من وفاة النبي . فحروب « الردة » التي قام بها ابو بكر اذاً لم يكن المقصود من أكثرها إرجاع المرتدين إلى حظيرة الاسلام — كما يزعم المؤرخون — بل إدخال العرب غير المسلمين في حظيرته . وفي هذه الحروب أظهر خالد بن الوليد ما أظهر من براعة في القيادة وشجاعة في القتال . وبذلك توحدت الجزيرة تحت راية الاسلام وتأهبت للزحف على ما حولها . وكان لا بد لها أولاً من أن تفتح نفسها قبل محاولتها فتح البلاد الأخرى .

وجاء دور سورية أولاً ، وكانت إذ ذاك في يد البيزنطيين

الذين ورثوها عن الرومان . وكان قد اغتصبها هؤلاء من خلفاء الاسكندر الذي اكتسحها قبل الفتح العربي بنحو ألف عام . وقد أدرك قوّاد البيزنطيين ان الغزاة من الجزيرة الذين بدأوا يعبرون الحدود ويتوغلون إلى حدٍّ لم يعهدوه لم يكونوا غزاة عاديّين كالذين عهدوهم من قبل . وما لبثوا ان اكتشفوا عدوّهم فاذا فيه نشاط جديد وإذا لديه سلاح جديد . وكان سلاحهم هذا سرعةَ حركتهم. فالجمل العربي جاء بمثابة عنصر جديد فعّال في الحرب . ولما جاء خالداً « سيفَ الله » الأمر بنجدة الجيوش العربية التي كاد يتغلب عليها البيزنطيون امتطى مع لفيف من المحاربين المدربين الابلَ وراح يطوي الصحراء طياً من جنوب العراق إلى أن ظهر بغتة بجوار دمشق العاصمة السورية . وقد حمل المحاربون ماءهم في القُرَب واحتاطوا لعطش الخيل بخزن الماء في بطون الرّواحل . فكانوا ينحرون هذه الرواحل ويقتاتون بلحومها ويرتوون وترتوي خيولهم بما حوت أجوافها من ماء . وبعد اسبوعين من مغادرة العراق وقف خالد أمام أبواب دمشق متقلداً زمام قيادة القوات العربية بأجمعها .

وأذعنت دمشق بعد حصار طال ستة أشهر وهي التي كانت الروايات تعدّها أقدم مدينة في العالم ، والتي قدّر لها أن تصبح فيما بعد عاصمة للدولة الأموية . أما البلدان الأخرى فسقطت أمام الفاتحين سقوط أوراق الخريف عند هبوب الريح . غير ان هرقل امبراطور الدولة البيزنطية بعث بجيش مؤلف من خمسين

ألف مقاتل ابتغاء صد المسلمين . فجابههم خالد بنصف ذلك العدد في وادي اليرموك ، أحد روافد الاردن ، في ٢٠ آب سنة ٦٣٦ . وكان يوماً شديد الحرّ عصفت فيه الرياح فسفّت الغبارَ والرمال ضباباً كثيفاً أعمى عيون البيزنطيين . ويظهر ان القيادة العربية اختارت هذا اليوم بحذاقة فائقة إذ اعتاد العرب هذه الحوادث الجوية وعرفوا كيف يحتاطون لها في حين لم يعتدها البيزنطيون . فلما هجم أبناء الصحراء على البيزنطيين لم يُغْنِ دفاعهم عنهم شيئاً على الرغم من صلوات قسسهم وتسابيحهم ووجود الصلبان في صفوفهم . فغدا انكسارهم مذبحة . ولم يقف حاجز في سبيل الجيوش العربية ، فاستمرت في سيرها حتى بلغت جبال طورس ، وهي تخوم سورية الطبيعية في الشمال .

وقد أكسب هذا الفتح «اليسير» (على ما وصفه البلاذري) الدولةَ الاسلامية الفتية هيبة ووقاراً في أعين الناس ، وزادها اعتداداً بنفسها وبنصيبها في هذا العالم ، خاصة وقد نالت منطقة حربية هامة اغتصبتها من يد أشد دول ذلك العصر . فأصبحت سورية آنئذٍ مركزاً استطاع المسلمون الزحف منه إلى ارمينية وشمالي العراقِ وبلاد الكُرج واذربيجان ومهاجمة آسيا الصغرى عدة مرات في السنين التي تلت .

وحالف النصر المسلمين عندما توجهوا إلى الفرس واصطنعوا الأساليب الحربية التي ذكرنا . ففي سنة ٦٣٧ وفي يوم اشتدت عواصفه واكفهرّ جوّه بالغبار كيوم موقعة اليرموك اشتبك العرب مع الفرس ، فمزقوا شملهم ، واستولى على الفرس الذُعر

فتشتتوا ، وأمست سهول العراق الخصبة غربي دجلة لقمةً سائغة للفاتحين . وتابع المسلمون تقدمهم بنشاط وعبروا دجلة عند إحدى مخاضاته [1] على الرغم من ارتفاعه وطغيانه بسبب سيول الربيع ، دون أن تلحقهم أي خسارة في النفوس. ورحّب أهل العراق – كما رحّب أهل سورية – بالفاتحين لأن الفريقين اعتبرا أسيادهما الغابرين غرباء ممقوتين ، ولأن الثقافتين اليونانية والفارسية اللتين فُرضتا عليهما لم تتأصلا في نفوسهما . وفرّ كسرى مع جنوده الفرس من عاصمته المدائن دون دفاع . فدخل المسلمون أعظم عاصمة في غربي آسيا ظافرين . وبقتل كسرى بيد أحد رعيته طمعاً في جواهر تاجه قضى آخر عاهل لامبراطورية ازدهرت مدة اثني عشر قرناً . ولم تنهض تلك الامبراطورية ثانية إلا بعد ثمانية قرون من ذلك التاريخ .

ولأول مرة واجه أبناء الصحراء القاحلة نعيم الحضارة وبذخها . فمقابلة القصر الملكي ومجالسه الرحبة وقناطره البديعة ورياشه الفاخر بأكواخ الطين في الجزيرة بهرت البدوي أول الأمر وأدهشته . غير انه بدأ يألف هذا كله تدريجياً ، لتبدو منه في أثناء ذلك أمور مضحكة . فظن الكافور ملحاً واستعمله للطبخ ، وسارع إلى استبدال الفضة بالذهب لمعرفته بالاولى وجهله بالثاني . ولما لام بدوياً أصحابه لبيعه بنت أحد الاعيان التي كانت نصيبه من الغنيمة بألف درهم ليس غير أجاب بأنه لا علم له بعدد فوق العشر مئة .

[1] جمع مخاضة (بفتح الميم) : موضع الخوض في الماء .

حتى إذا تجاوز العرب العراق وتوغلوا في فارس جابهوا مقاومة متزايدة. ولم يستتبّ لهم الفتح إلا بعد عشر سنين تقريباً إذ كانت بلاد الفرس آرية لا سامية ، وكانت ذات سيادة وذات قوة حربية منظمة قاتلت الرومان طوال اربعة قرون. ولكنها غُلبت أخيراً على أمرها . وهكذا وجد العرب أنفسهم على حدود الهند سنة ٦٤٣ .

وفيما كان هذا النصر يطّرد في الشرق كانت موجة الاسلام تمتد نحو الغرب . وتفصيل ذلك ان العرب في بدء عهد توسعهم نظروا إلى مصر نظرة ملؤها الشهوة ، لموقعها الحربي الخطير ، ومتاخمتها لسورية والحجاز ، ولكونها ممراً لافريقيا الشمالية ، ولجودة تربتها التي جعلت منها اهراء للقسطنطينية ، ولأن عاصمتها الاسكندرية كانت قاعدة للاسطول البيزنطي . حتى إذا كانت سنة ٦٣٩ نهض عمرو بن العاص بهذا العبء ، وفي نفسه الرغبة في مباراة خالد ، فاصطحب اربعة آلاف فارس ، واتخذ الطريق من فلسطين إلى مصر محاذياً الشاطئ ، وهي الطريق التي سلكها من قبلُ ابراهيمُ وقمبيز والاسكندر وانطيوخوس والعائلة المقدسة وفيما بعد نابوليون وجمال باشا ، وهي الطريق العالمية الرئيسية في العصور القديمة .

وهنا أعاد العرب تمثيل روايتهم بعينها : — تشتيت فحصار ثم انتصار ترافقه صيحة « الله اكبر » . وفي هذه الاثناء كان حصن بابليون — وهو بأزاء جزيرة الروضة — قد سقط .

وتضخم جيش عمرو بالامداد اللاحقة به من الجزيرة فبلغ عشرين الف مقاتل . وأفاق عمرو يوماً وسرح طرفه فرأى

الاسكندرية ، عاصمة مصر وأهم مرافئها ، محاطة بالاسوار المنيعة والابراج . فمن جهة ارتفع عمود السواري الذي حوى فيما مضى هيكل الالـٰـه سرابيس ومكتبة الاسكندرية العظمى ، ومن أخرى لاحت كاتدرائية مار مرقس الجميلة التي كانت فيما مضى الهيكل الموسوم بقيسارية والذي بدأت تشييده كليوبترة إكراماً ليوليوس قيصر وأتم بناءه اوغسطس . وامتدت في الغرب المسلّتان المصنوعتان من غرانيت اسوان الاحمر والمنسوبتان لكليوبترة أيضاً (والواقع ان مشيدهما تحتميس الثالث ، حوالى ١٤٥٠ ق.م.) وهما اللتان تزين الواحدة منهما اليوم شاطئ التيمس في لندن والأخرى إحدى الحدائق العامة في مدينة نيويورك . وفي جوف البحر على طرف اللسان تعالى الفنار الذي كان يعكس شعاع الشمس في النهار ويشع بناره في الليل — وكان من عجائب الدنيا السبع .

وكانت الاسكندرية تفاخر بحامية تبلغ الخمسين الفاً يعضدها الاسطول البيزنطي وقاعدته في مينائها . أما العرب فكانوا دون البيزنطيين عدداً وعدة ، ولا مراكب لهم ولا مجانيق ولا معين يؤمن حاجتهم إلى الطعام .

ولكن بعد سنة دخل على عمر في المدينة رسول يحمل رسالة البشرى ومؤداها : « اما بعد فاني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير اني اصبت فيها اربعة آلاف منية باربعة آلاف حمام واربعين الف يهودي عليهم الجزية واربعمائة ملهى للملوك » . عندئذ ضيّف عمر رسول قائده بالخبز والتمر . وأقام صلاة

شكر بسيطة موقرة في مسجد النبي .

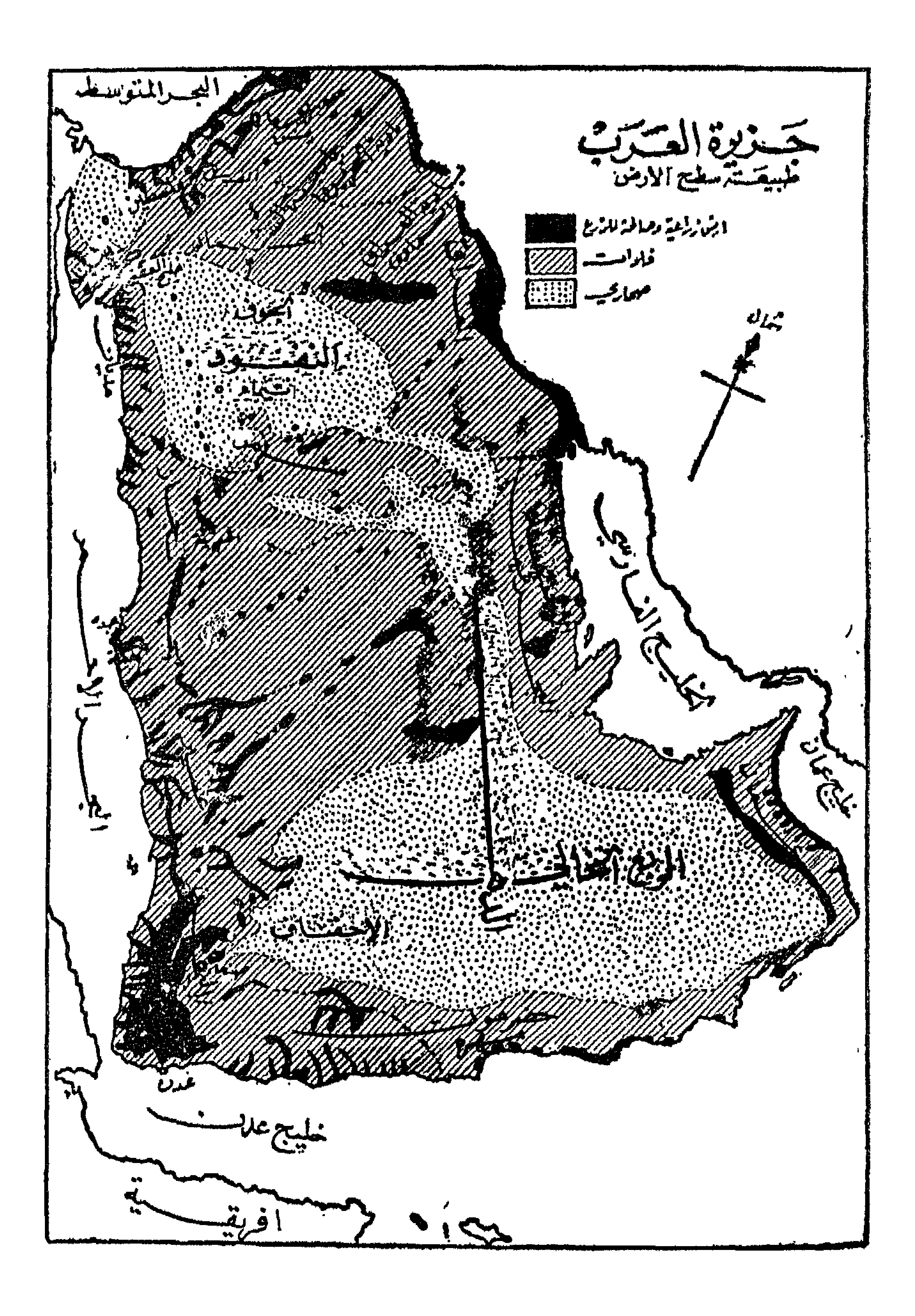
ثم ان الموقع الذي نصب عليه عمرو خيامه في هيليوبولس أصبح العاصمة الجديدة التي عرفت بالفسطاط والتي لا تزال قائمة وتعرف الآن « بمصر العتيقة ». وهنا شاد عمرو أول مسجد في مصر ، وهو مسجد بسيط رمم عدة مرات ولا يزال قائماً .

أما قصة إحراق مكتبة الاسكندرية التي يتداولها الناس عن عمرو فمصدرها الخيال لا الحقيقة . وخلاصتها أن عمراً ابقى بأمر الخليفة أتاتين [1] حمامات الاسكندرية مشعلة طوال ستة أشهر بمجلدات مكتبتها . والواقع ان مكتبة البطالسة أحرقها يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق. م. وأن مكتبة أخرى نشأت من بعد يشار اليها باسم « المكتبة الصغرى » دُمرت سنة ٣٨٩ م. على اثر أمر أصدره الامبراطور الروماني ثيودوشيوس. واذن فلم يكن هنالك مكتبة تستحق الذكر عند الفتح العربي . ولم يروِ هذه القصة أحد من المؤرخين في ذلك الزمن . وأول من رواها هو عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ هـ . (١٢٣١ م) ولا علم لنا بالسبب الذي حداه إلى اختلاقها . غير ان بعض المؤرخين اللاحقين اقتبسوها عنه وتزيدوا فيها . ثم ان اكثر الكتب في ذلك الزمن كانت من الرّق الذي لا يحترق .

وبسقوط مصر أصبحت المناطق البيزنطية الواقعة في غربيها بلا حامٍ . فهبّ عمرو وفرسانه اليها مقتحمين ، رغبةً منه في اتقاء خطر قد يجيء منها . وسرعان ما أخذ علَم النبي يخفق في طرابلس بلاد البربر ليقدر له بعدُ أن يتجاوزها إلى مدى أبعد .

---

[1] جمع اتون : وهو موقد نار الحمام .


جزيرة العرب
طبيعة سطح الارض
ارض زراعية وصالحة للزرع
فلوات
صحاري
شمال
البحر المتوسط
الجوف
النفود
الربع الخالي
الاحقاف
الخليج الفارسي
خليج عمان
عدن
خليج عدن
افريقية

الخلافة

من الظواهر التي رددها التاريخ قصة شعب فتيّ خشن ساذج يتغلب على شعب قديم ذي حضارة عريقة ، ثم ما يلبث أن يفتن ببهجة هذه الحضارة وينغمس في ملذاتها فتولّد فيه ليناً يؤول أخيراً إلى انحطاطه . ونحن نجد هذه الظاهرة عينها في قصة العرب الخارجين من الجزيرة .

لما افتتح العرب الهلال الخصيب وفارس ومصر امتلكوا أقدم مراكز الحضارة في العالم . فاقتبسوا عنها العلوم والفنون الجميلة من مثل فن البناء والفلسفة والطب والرياضيات والآداب وفنّ الحكم إذ لم يكن لديهم شيء منها . وكانت قابليتهم للاقتباس شديدة . وكان حبهم للاستطلاع عاملاً دفع بقواهم العقلية الكامنة إلى أن تنقلب قوى فعّالة . وبمعونة اخوانهم من أبناء البلدان المفتوحة استطاعوا استثمار ذلك التراث الفكري والثقافي

والتبحّر فيه وتكييفه بما يلائم عقليتهم . ففي المدائن ودمشق وبيت المقدس والاسكندرية شاهدوا أعمال البنّاء والصانع والصائغ فأعجبوا بها ونسجوا على منوالها .

فلم تكن « الحضارة العربية » إذاً عربية في أصلها أو تركيبها الأساسي أو مزاياها القومية الرئيسية ، إذ ان مساهمة العرب الأصليين الخالصة في هذه الحضارة لم تتعدّ علم اللغة وبعض النواحي الدينية . وكان الشاميون والفرس والمصريون وغيرهم من مسلمين ونصارى ويهود طيلة عصور الخلافة في مقدمة من رفع نبراس الثقافة والعلم عالياً . وكان شأنهم في ذلك شأن اليونان من قبلهم عندما خضعوا للرومان سياسياً وأخضعهم هؤلاء عقلياً وروحياً . وإذاً فالحضارة العربية الاسلامية في أساسها آرامية — يونانية وفارسية ارتقت وتطورت تحت لواء الخلافة وعبّرت عن نفسها بواسطة اللسان العربي . ولقد جاءت باعتبار آخر تكملة منطقية للحضارة السامية القديمة العريقة في الهلال الخصيب التي ابدعها البابليون والاشوريون والفينيقيون والارامينون والعبرانيون .

وتتجلى لنا حقيقة الرجال الذين أنجبتهم الجزيرة العربية في اسلامها حين نحاول درس حياة أبي بكر الذي تولى أمور المسلمين من سنة ٦٣٢ إلى ٦٣٤ وحياة عمر الذي تولى خلافتهم من ٦٣٤ — ٦٤٤ . عاش أبو بكر ، قاهر المرتدين وموحّد الجزيرة تحت راية الاسلام ، حياة ساذجة بسيطة ملؤها الوقار . وفي الستة الاشهر الأولى من خلافته القصيرة كان يغدو كل يوم

من السّنح ، حيث قطنَ وزوجه حَبيبة في بيت وضيع ، إلى عاصمته المدينة . ولم يكن يتقاضى راتباً لأنه لم يكن للدولة إذ ذاك دخل يستحق الذكر . وكان يدير جميع شؤون الدولة في صحن المسجد النبوي .

أما عمر ، الخليفة الثاني ، فكان رجلاً جلداً نشيطاً ومثالاً حياً للبساطة والاقتصاد . ومن صفاته انه كان طُوالاً أصلع شديد الأدمة . وقد أعال نفسه في إبان عهد خلافته بالمتاجرة . وكانت حياته — شأن حياة أي شيخ بدوي — بعيدة عن الأبهة وحب التظاهر . وتجعل الروايات الاسلامية اسمه ارفع اسم في أوائل الاسلام بعد النبي . وقد مجّد عمرَ الكتّاب المسلمون لتقواه وعدله وتواضعه ووقاره ، وحسبوا هذه المناقب التي يجدر بكل خليفة أن يتحلى بها مشخّصة فيه . وقالوا لم يكن لعمر إلا قميص خلَق وإزار فطري مرقوع برقعة من أدم . وكان ينام على فراش من سعَف النخل . ولم يهمه من شؤون هذه الحياة الدنيا سوى الدفاع عن شعائر الدين وإقامة العدل واعلاء شأن الاسلام وتأمين مصالح العرب . والآداب العربية طافحة بقصص تجلّ أخلاق عمر الصارمة . ومما يروى انه جلد ابنه حدّاً على الشرب والخلاعة فمات تحت حده . ويروى أيضاً ان بدوياً لقي عمر فقال له : « يا أمير المؤمنين انطلق معي فأعدني[1] على فلان فانه قد ظلمني . فرفع عمر الدرّة (السوط) فخفق بها رأسه وقال : لا تدعون امير المؤمنين وهو مُعرض لكم[2] حتى

١ اعدى فلاناً على فلان : قام بنصره وقواه .
٢ اعرضَ لك الخيرُ : أمكنك .

إذا شُغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه ، أعدِني أعدِني ! »
فانصرف الرجل ، وهو يتذمر ، ثم قال عمر « عليّ بالرجل » .
فالقى اليه المِخْفقة (الدّرة) وقال « امتثِلْ »[1] . فقال
« لا والله » . فانصرف الخليفة حتى دخل منزله فصلى ركعتين
وقال يناجي نفسه : « يا ابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله ،
وكنت ضالاً فهداك الله ، وكنت ذليلاً فأعزك الله ، ثم حملك
على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته . ماذا تقول
لربك غداً إذا أتيته ؟ ! »

وقُتل عمر في أوج حياته وهو يصلي في القوم بطعنة خنجر
مسموم سددها اليه ابو لؤلؤة ، وهو غلام فارسي . وخلفه عثمان
(٦٤٤ — ٦٥٦) فجرت في ولايته فتوح ايران واذربيجان
وبعض ارمينية . وكان عثمان شيخاً وقوراً طيب الارومة إلا انه
عجز عن التحكم في اطماع ذوي قرباه . وضاق الناس بذلك ،
وحرضهم على الفتنة ثلاثة من رجالات قريش كان كل منهم
يمني نفسه بمنصب الخلافة وهم علي وطلحة والزُبير . وبدأت
الثورة في الكوفة، أصلاها أنصار علي، ثم اشتد سعيرها في مصر
فأقبل من المصريين زهاء خمسمائة ثائر إلى المدينة يريدون عثمان .
فتسوّر بعضهم عليه فوجدوه — وهو ابن ثمانين — عند امرأته
نائلة يقرأ المصحف. واقتحم البغاة الدار يتقدمهم محمد ابن ابي بكر
فطعن عثمان بنصل عريض في جبينه . ومن ثم قتله أحدهم فكان
أول خليفة فتكت به أيدٍ مسلمة وذلك في ١٧ حزيران سنة ٦٥٦.

١ امتثل من القاتل : اقتص منه .

ولما قتل عثمان بويع لعلي فأطاعته البلدان الاسلامية كلها يومئذ . وعليّ هو ابن عم الرسول وزوج فاطمة ، أحبّ بناته اليه ، ووالد الحسن والحسين ، وهو ثاني من آمن بمحمد أو ثالثهم ، تحلى بطيب النفس والتقوى والبسالة .

وأول مشكلة جابهت علياً كانت التخلّص من منافسَيْه طلحة والزبير — زعيمي الحزب المكيّ وجمهرة من الاتباع في الحجاز والعراق الذين لم يعترفوا بولايته . وانضمت عائشة أمّ المؤمنين وزوج النبي المفضلة إلى مقاوميه ، فما كان من علي إلا ان انطلق لقمع الفتنة فضرب على أيدي موقديها بجوار البصرة في ٩ كانون الأول سنة ٦٥٦ . وتعرف هذه المعركة بوقعة الجمل لأن عائشة التي التفّ الثوار حولها كانت تمتطي جملاً . وفي هذه الوقعة صُرع خصما علي طلحة والزبير ووقعت عائشة أسيرة في يده .

استتب الامر لعلي في الظاهر فجعل الكوفة عاصمة له . غير أن معاوية ابن ابي سفيان امير الشام لم يبايعه وطفق يناوئه . ولم تنطو هذه الخصومة على عداء شخصي فقط بل تجاوزته إلى التطاحن بين بيتين من قريش ، وإلى تناظر بين الكوفة ودمشق ، أو قل بين العراق والشام ، وتسابقهما إلى التصدر في الشؤون الاسلامية .

التقى الجيشان بصِفّين على ضفة الفرات الغربية : عليّ على أهل العراق وهم خمسون الف مقاتل ، ومعاوية على أهل الشام . فجرت مناوشات لم تكن حاسمة إذ لم يكن لأي الفريقين رغبة

شديدة في القتال باديء الأمر . حتى إذا اشتد القتال وكاد أتباع عليّ يتغلبون رفع أتباع معاوية المصاحف على الرماح علامةَ النزول عند حكم الله لا عند حكم السيوف . فأوقف القتال وأجري التحكيم . وعلى أثر ذاك ناب ابو موسى الاشعري عن علي وناب عمرو بن العاص عن معاوية يرافق كلاً منهما اربعمئة شاهد في مؤتمر بأذرح في جنوبي فلسطين على طريق الحج والقوافل . على ان حقيقة ما دار في هذا المؤتمر التاريخي يصعب استجلاؤها . وفي المصادر المختلفة روايات شتى . والرواية التقليدية تقول باتفاق الحكمين على خلع الزعيمين وجعل الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا لأنفسهم من شاؤوا . فتقدم أبو موسى فخلع علياً ومعاوية معاً . أما عمرو فخدع زميله وثبّت معاوية بعد ان خلع علياً . غير ان النقاد المحدثين يقولون ان كلاً من الحكمين خلع صاحبه ، وبهذا خسر عليّ مقامه باعتبار انه الخليفة المعترف به ، ولم يخسر معاوية شيئاً .

ثم ان فريقاً من أتباع علي ذهبوا إلى انه ارتكب خطأً فادحاً في قبوله مبدأ التحكيم ، وخرجوا عليه فسُموا بالخوارج ، ليصبحوا أشد أعدائه نقمة عليه . وكان عددهم يبلغ أربعة آلاف فضربهم علي على ضفة النّهروان عام ٦٥٩ ضربة كادت تكون القاضية . ولا يزال إلى يومنا هذا بقايا من الخوارج يسمون بالاباضية في شمالي افريقيا وعُمان .

وكان أحد هؤلاء الخوارج هو الذي قتل علياً في أواخر كانون الثاني سنة ٦٦١ وهو خارج من داره في الكوفة للصلاة . وبذلك

أصبح للخليفة الرابع عند الشيعة أتباعه ، مقام « وليّ الله »
وهو مقام رفيع لا يسمو عليه إلا مقام نبي الله ورسوله .

وهنا يجب أن نحترس من خطأ وقع فيه الكثيرون وهو ان الخلافة وظيفة دينية . والواقع ان مقابلتها برئاسة الامبراطورية الرومانية المقدسة ورئاسة الكنيسة الكاثوليكية لتُضلنا سواءَ السبيل . فالخليفة في الدرجة الأولى أمير للمؤمنين عليه تدبير جيوش الاسلام . لهذا ارتكز منصبه على أساس حربي . وهو في الوقت نفسه إمام له حق التقدم في الصلاة والقاء الخطبة . ولكن هذا الحق شائع يجوز لاقل المسلمين قدراً ممارسته. فالخلافة إذاً اقتصرت على الناحية السياسية ولم تتناول الناحية الروحية لأن صفة النبي الروحية جاءت عن طريق الرسالة وانتهت زعامته الدينية بموته ، وما كان لأحد أن يخلفه فيها وهو خاتَمُ النبيين . أما صلة الخليفة بالدين فلم تخرج عن حد الغَيْرة عليه . فهو حامي الدين بالمعنى المألوف عند ملوك أوروبا السالفين ، يُفرض عليه قمع أهل الزيغ والالحاد ومحاربة البدع ، وخوض غمار الجهاد توسيعاً لدار الاسلام . وبسبيل تحقيق هذا كله استخدم الخليفة سلاحه الدنيوي .

أما الفكرة التي تداولها أبناء الغرب من ان الخليفة أشبه بالبابا ومن ان له سلطة دينية على جميع المسلمين في العالم فلم تظهر حتى أواخر القرن الثامن عشر . وقد استغل هذه الفكرة الداهية عبد الحميد لتقوية هيبته في أعين الدول الاوروبية التي سيطرت يومئذ على معظم البلدان الاسلامية في آسيا وافريقيا . ثم إنه في

أواخر القرن الماضي ظهرت حركة غامضة اتخذت الجامعة الاسلامية اسماً لها ، وحاولت توحيد القوى وتوجيه الهمم في مجرى واحد لمقاومة الدول الغربية . فاتجهت الأنظار نحو تركيا بصفتها مركز الخلافة . وبحكم الطبع أيدت هذه الحركة صفة الخلافة الدينية الشاملة .

وبقتل عليّ استتب الأمر لمعاوية . وكان معاوية داهية بني أمية . وفي خلافته اتجه مبدأ سيادة الدولة اتجاهاً جديداً إذ أصبحت الخلافة سُلالية ترتكز على مبدأ وراثي لا على مبدأ شبه انتخابي (المبايعة) كما كانت من قبل . ولقد تعاقبت ثلاث خلافات سلالية عظيمة في المدة التي يتناولها هذا الكتاب ؛ أولها الأموية وقد ابتدأت سنة ٦٦١ بخلافة معاوية في الشام ، وثانيها العباسية في بغداد من سنة ٧٥٠ إلى ١٢٥٨ ، وثالثها الفاطمية– وعاصمتها في أكثر هذه المدة القاهرة – من سنة ٩٠٩ إلى ١١٧١ ، وهي السلالة الوحيدة الهامة التي ادعت انها تتحدر من عليّ . وكانت هنالك سلالة أخرى ازدهرت في الاندلس وهي فرع من الخلافة الأموية وعاصمتها قرطبة . ودامت من سنة ٩٢٩ إلى ١٠٣١ . وليس من شك في ان مبدأ التسلسل والوراثة هذا قد ساعد في خلق جوّ سياسي مستقر ، غير انك قلما تجد مدة طويلة في تاريخ الاسلام لم تعكر جوها الحروب الداخلية . كما انك تجد أزمنة كان فيها الخليفة حاكماً بالاسم لا يمارس سلطته حتى في عاصمته .

وفي بدء حكم معاوية قامت حركة أخرى كان لها شأن كبير

في الأجيال التي تلت ، أعني اعلان أهل العراق الحسنَ بن علي الخليفة الشرعي . ولعملهم هذا أساس منطقي لأن الحسن كان أكبر أبناء عليّ وفاطمة ابنة النبي الوحيدة الباقية بعد وفاته . ولكن الحسن الذي كان يميل إلى الترف والبذخ لا إلى الحكم والادارة لم يكن رجل الموقف . فانزوى عن الخلافة مكتفياً بهبة سنوية منحه إياها معاوية . وتوفي الحسن في الخامسة والاربعين. والراجح انه مات مسموماً . أما الشيعة فتعزو مقتله إلى معاوية . وتجعل الحسن شهيداً لا بل سيد الشهداء أجمعين .

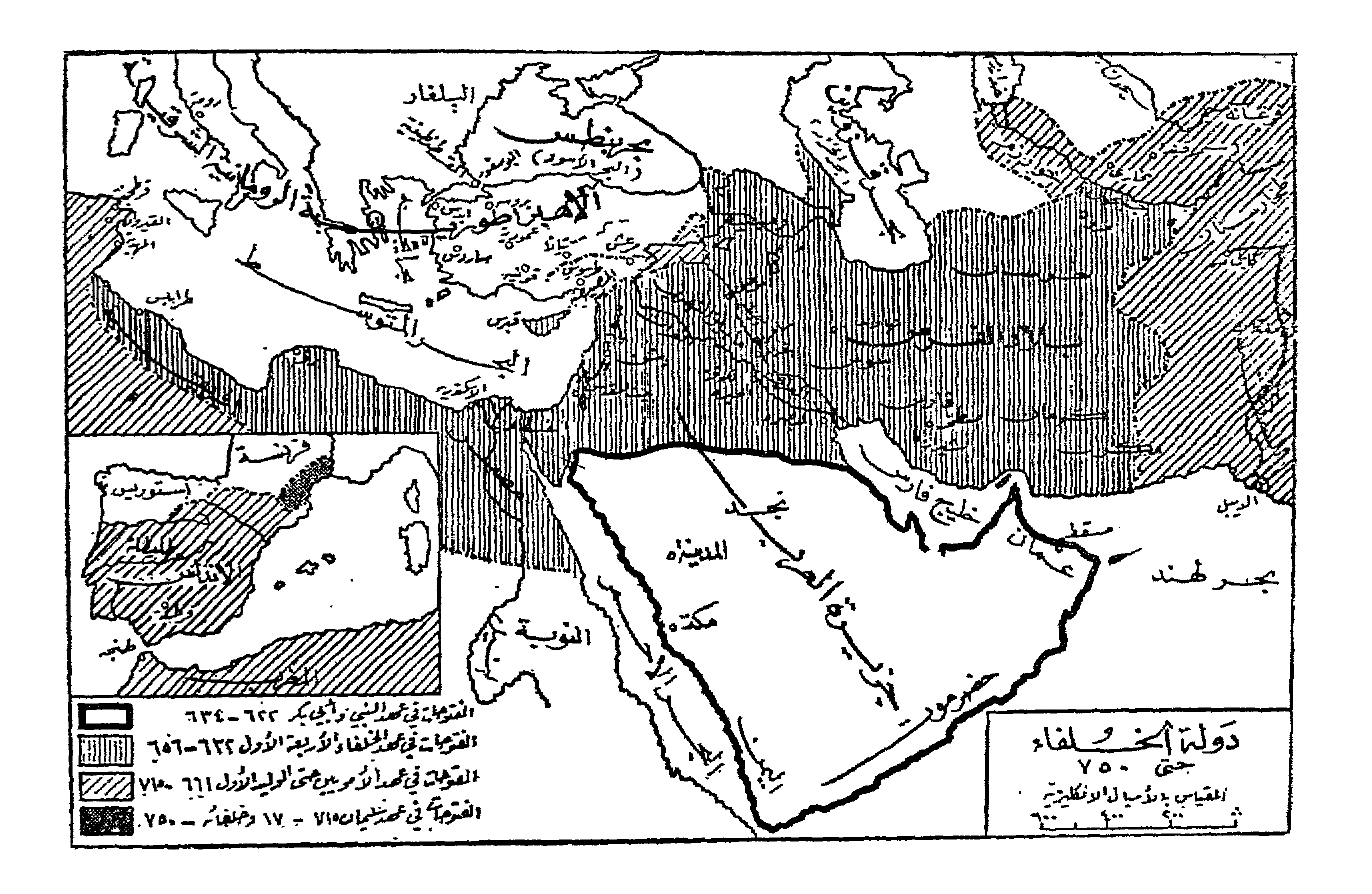
وكان أخوه الحسين الذي آثر العزلة أيضاً ينزل المدينة طيلة خلافة معاوية . حتى إذا دعي إلى البيعة ليزيد بن معاوية سنة ٦٨٠ أبى إباءً شديداً . واتصل به أهل الكوفة الذين كانوا بايعوه من بعد علي والحسن ، وتابعوا الرسائل اليه حتى حملوه على القبول ، فخرج متوجهاً إلى الكوفة ومعه جماعة فيهم نساؤه ومن والاه . فأرسل عامل الأمويين على العراق جيشاً مؤلفاً من أربعة آلاف مقاتل عليهم عمر بن سعد . فوافى الحسينَ في كربلاء ، وذلك في العاشر من محرّم سنة ٦١ ﻫ . (١٠ تشرين الأول سنة ٦٨٠) وكان الحسين قد نزلها مع جماعته وعددهم مائتان . وآثر الحسين القتال على الاستسلام فأحاط به رجال الامويين من كل ناحية وقاتلوه حتى فني أصحابه . ثم قتل سبط الرسول قتلة شنعاء . واحتزّ رأسه فحُمل مع أهله إلى يزيد بدمشق ، فأمر بردّ الرأس إلى أخت الحسين وابنه فدفن مع الجسد في كربلاء . والعالم الشيعي يخلد ذكرى الحسين بما يقيمه له كل

سنة في العاشوراء (عاشر محرّم) من مظـاهر الندب والحداد مراعياً في ذلك مقامه من الرسول وبطولته وآلامه وصبره .

وكان معاوية ذا مقدرة عظيمة في الادارة ، فخلق من الفوضى السائدة مجتمعاً إسلامياً منظماً . ونظّم أول جيش مدرّب عرفه الاسلام ، وأسس أول ديوان للتسجيل في الدولة الاسلامية ، وسعى لانشاء مصلحة للبريد عمت فيما بعد جميع اجزاء الدولة وربطتها بعضها ببعض .

أما في الحنكة السياسية فلم يجارِ معاويةَ أحدٌ من الخلفاء ويذهب مؤرخو سيرته من العرب إلى ان حِلمه كان اسمى مناقبه . فلم يكن يستعمل الشدة إلا متى رأى استعمالها محتماً ، أما في غير ذلك فكان يحاول استرضاء مقاوميه بالوسائل السلمية . وكان ابداً سيد الموقف . فجرّد عدوه من عدائه ، وأخجل مقاومه بلطفه ولينه . وكان بطيء الغضب ، عذب المزاج ، ضابطاً لثورات النفس . ومن أقواله الدالة على تصرّفه : « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني . ولو ان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ... إذا مدّوها خليتها وإذا خلّوها مددتها » . وهاك كتاباً قيل إنه بعث به إلى الحسن بن عليّ عند نزوله عن الخلافة له : « أما بعد فأنت اولى بهذا الأمر وأحق به لقرابتك . ولو علمت انك اضبط له وأحوط على حريم هذه الأمة وأكيد لبايعتك ، فسل ما شئت . » وفي داخل الكتاب صحيفة بيضاء مختوم على أسفلها أن اكتُب ما شئت من أموال وعقار . فكانت النتيجة ما ذكرنا سابقاً .

وقاتل معاوية البيزنطيين وكذلك فعل الخلفاء الذين عقبوه . وحاول مرتين إخضاع القسطنطينية نفسها . وفي خلال إمارته على الشام في أيام عثمان تعرض اسطول الاسلام لقوة بيزنطية البحرية ، وتغلب عليها في أول معركة بحرية عظيمة في تاريخ الاسلام - ذات الصواري . وهي معركة دموية وقعت قرب شاطئ ليسيا في آسيا الصغرى . أما القسطنطينية فلم تسقط ، وبقيت في يد البيزنطيين حتى أيام الاتراك . وعجز العرب عن أن يثبّتوا أقدامهم في آسيا الصغرى أو أن يعبروا مضيق الدردنيل لذلك وجهوا جهودهم إلى التوسع شرقاً وغرباً حيث كانت المقاومة على أقلها . وهكذا استأنف الاسلام في أواخر أيام معاوية مسيره إلى الامام وإلى العلاء .



دولة الخلفاء
حتى ٧٥٠
المقياس بالأميال الانكليزية
الفتوحات في عهد النبي وأبي بكر ٦٢٢ - ٦٣٤
الفتوحات في عهد الخلفاء الأربعة الأول ٦٣٢ - ٦٥٦
الفتوحات في عهد الأمويين حتى الوليد الأول ٦٦١ - ٧١٥
الفتوحات في عهد سليمان ٧١٥ - ١٧ والخلفاء - ٧٥٠
جزيرة العرب
المدينة
مكة
نجد
حضرموت
عمان
مسقط
خليج فارس
بحر الهند
البحر الأحمر
النوبة
الاسكندرية
قبرص
البحر المتوسط
طرابلس
البلغار
بحر بنطس
(البحر الأسود)
الامبراطورية الرومانية الشرقية
فرنسة
استوريس
طنجة

فتح الأندلس

انتهى الدور الاول من الفتوحات الاسلامية باستيلاءالمسلمين على سورية والعراق وفارس ومصر . وتلاه اضطرابات داخلية لم يطل أمرها .

وبدأ الدور الثاني من الفتوحات بحملة شديدة اتجهت شرقاً ، فعبرت نهر جيحون ، الحد الفاصل في عرف التقاليد بين ايران وطوران ، أي بين الشعوب الناطقة بالفارسية والشعوب الناطقة بالتركية . وتابعت تقدمها إلى بلاد المغول الخارجية . وسقطت في أيدي المسلمين بخارى وشاش وسمرقند وهي المدن التي كان لها شان كبير في تاريخ الاسلام اللاحق . وتوطدت سلطة الاسلام في آسيا المتوسطة إلى درجة اضطرت الصينيين الى ان يخلدوا إلى السكينة . ومن هذه الحملة توجهت فرقة إلى الجنوب فاجتازت البلاد المعروفة اليوم ببلوخستان . وفي عام ٧١٢

استولت على السند وأسفل وادي الأندس وارض الدلتا منـه (سندو) . واتسع مدى الفتوحات إلى ملتان في جنوب البنجاب وهي مزار بوذيّ شهير . واعتنقت المقاطعات الهندية على الحدود الاسلامَ ، ولا تزال عليه حتّى اليوم ونشأ عن ذلك قيام دولة باكستان عام ١٩٤٧ . وبذلك احتك الاسلام بثقافة جديدة هي الثقافة البوذية .

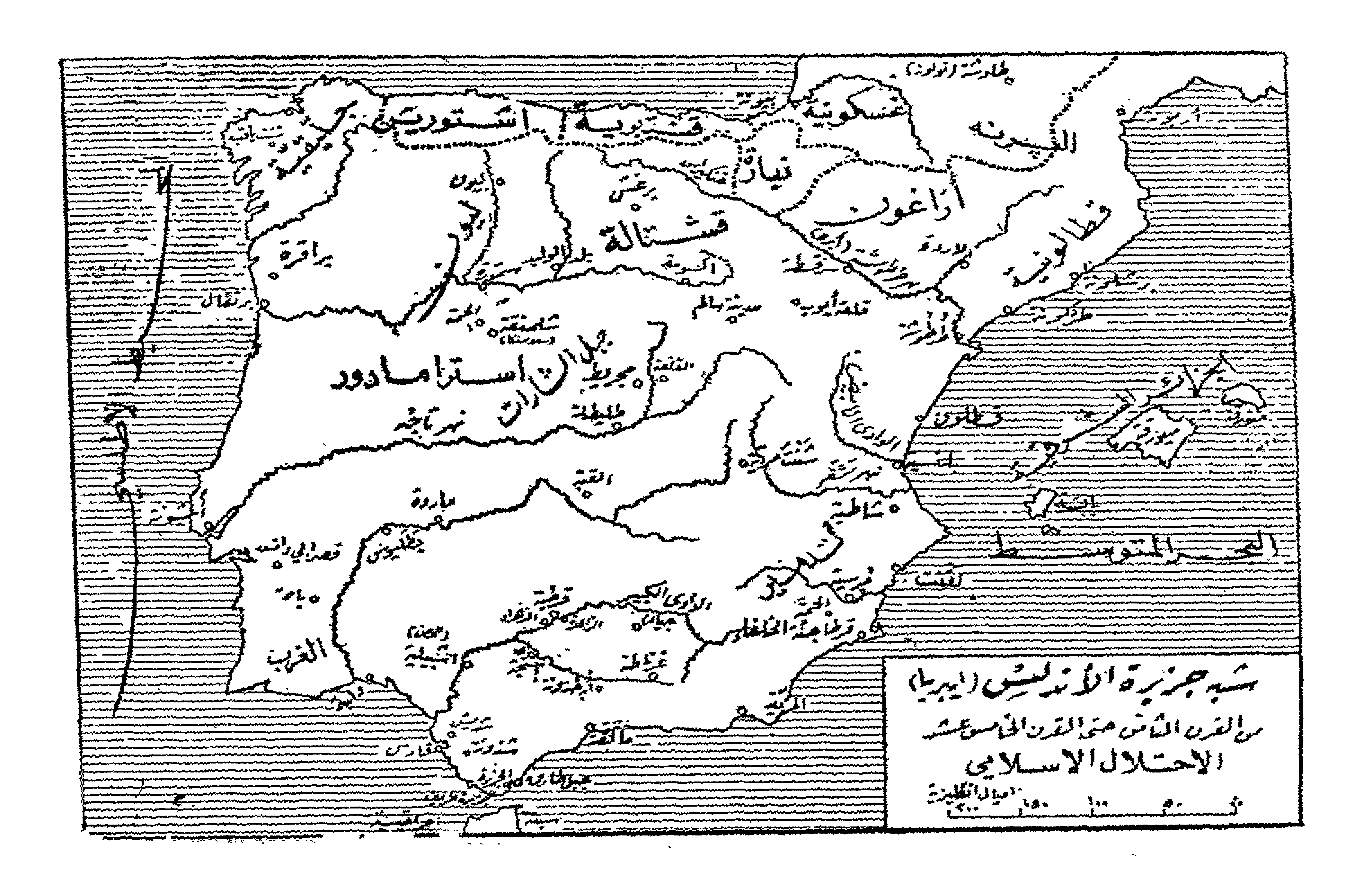
واصطدمت الموجة العربية في الجبهة الشمالية الوسطى مرة أخرى بالقسطنطينية . فجرى الحصار المشهور الذي دام من آب ٧١٦ إلى ايلول ٧١٧ والذي حالت فيه سلسلة حديدية متينة دون مرور الاسطول العربي إلى القرن الذهبي .

على أن أروع الحملات الاسلامية و أوسعها مدى هي التي اتجهت غرباً . وكان العرب قد اخترقوا افريقيا الشمالية إلى قرطاجنة القديمة . وقاد هذه الحملة موسى بن نصير وهو من مواليد الشام ، وقد كان من أبرز قواد الاسلام . وتوغل المسلمون في بلاد البربر ، والبربر ينتمون إلى الفرع الحامي من الجنس الابيض . والراجح انهم والساميون من أصل واحد . وكان معظم هؤلاء البربر الذين قطنوا السواحل قد اعتنقوا النصرانية قبل الفتح الاسلامي . وفي هذه الربوع نشأ القديسون ترتليـانوس وقبريانوس واوغسطينوس وغيرهم من آباء الكنيسة الأول . أما في داخل البلاد فلم تؤثر الحضارة الرومانية أو البيزنطية في الشعوب الأصلية تأثيراً محسوساً لأنها كانت أجنبية وغريبة عن عقلية أهالي افريقيا الشمالية من البدو وشبه البدو .

والظاهر ان الاسلام كان له تأثير خاص في الشعوب التي في مستوى البربر الثقافي . فما اسرع ما استطاع العرب الساميون توثيق عرى الاتصال بأبناء عمهم الحاميين . وكما ان الاسلام في أواسط آسيا عرّب الاقوام لغة وديناً كذلك فعل الآن في الاقوام البربرية . وهكذا اغتنى دم المسلمين الفاتحين بامتزاجه بدماء جديدة . وتسنى للغة العربية مجال واسع للانتشار . وتوطدت قدم الاسلام وأخذت تتدرج في معارج الرقي نحو السلطة العالمية الشاملة .

وليس في تاريخ القرون الوسطى الحربي ما يماثل الحملة العربية على بلاد الاسبان من حيث الجرأة وسرعة الانجاز والنجاح التام . ولقد بدأت هذه الحملة في شهر تموز من عام ٧١١ بنزول فرقة الاستطلاع التي قادها طريف والمؤلفة من اربعمائة من المشاة ومائة من الفرسان — كلهم بربر من جنود موسى عامل بني أمية في افريقيا — إلى شبه جزيرة صغيرة سُميت طريفة باسم قائد الفرقة . وهي أقصى نقطة جنوبية من القارة الاوروبية .

واستطاع موسى الذي كان قد تولى الامارة على افريقيا منذ سنة ٦٩٩ ان يجلي البيزنطيين عن الاراضي الواقعة غربي قرطاجنة . ثم تدرج بفتوحاته إلى الاوقيانوس الاطلنطي توطئة لشن الغارة على أوروبا . وشجعه على ذلك ما كان من نجاح الغزوة الأولى وما عرفه من التضعضع والاضطراب السياسي بين أعضاء الاسرة القوطية الغربية الحاكمة . والحق ان اكبر دافع له كان الغنيمة


شبه جزيرة الأندلس (ايبيريا)
من القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر
الاحتلال الاسلامي
اميال انكليزية
البحر المتوسط
جليقية
استوريش
قنتبرية
غسكونية
البرينه
نبارة
أراغون
قطلونية
قشالة
ليون
استرامادور
جبال الشارات
برتقال
الغرب
طليطلة
مجريط
شلمنقة
ماردة
بطليوس
باجة
اشبيلية
قرطبة
غرناطة
جيان
المرية
مالقة
شاطبة
مرسية
لقنت
برشلونة
سرقسطة
طرطوشة
طركونة
ميورقة
يابسة
الوادي الكبير
الوادي الابيض
نهر تاجه
قادس
شذونة
الجزيرة

لا الفتح . فأوفد في عام ٧١١ إلى الاندلس مولى ً له بربرياً كان قد أعتقه يدعى طارق بن زياد على رأس سبعة آلاف رجل أكثرهم من البربر . فنزل بهم طارق الجبل الذي خلد اسمه فعُرف منذ ذاك الحين بجبل طارق . وجاز الغزاة المضيق إلى الأندلس ، وعرضه ثلاثة عشر ميلاً ، في مراكب قدّمها لهم أليان حاكم سبته على ما جاء في الروايات .

ووصلت طارقاً الأمداد فالتقى في ١٠ تموز عام ٧١١ على رأس اثني عشر الف رجل بجيش لذريق عند مصب وادي بكّه (نهر سلادو) . وكان لذريق قد خلع سلفه ابن غَيطَشه واغتصب عرشه . فاشتبك الجيشان فدارت الدائرة على القوط ، وكان عددهم نحواً من خمسة وعشرين الفاً ، فانكسروا انكساراً تاماً وتشتتوا . أما ما حدث للذريق فلا يزال سراً غامضاً. ويكتفي مؤرخو الاسبان والعرب بالقول إنه اختفى .

بعد هذا الفوز الحاسم هان توغل المسلمين في اسبانيا ، فلم يلقوا مقاومة شديدة إلا في المدن التي كان يحميها فرسان القوط . واتجه طارق وسواد جيشه إلى عاصمة الاسبان طُلَيطُلَة عن طريق أستجة فاحتلها . وقد ساعده على ذلك خيانة بعض أهلها من اليهود . وأنفذ طارق بعض الفصائل إلى المدن المجاورة لكنه أعرض عمداً عن إشبيلية في الجنوب لمناعة حصونها . واحتلت فرقة من الجيش جُذونة دون أي مقاومة . واحتلت فرقة ثانية إلبيرة وهي قرب البقعة القائمة فيها غرناطة اليوم . وهاجمت فرقة ثالثة من الفرسان قرطبة فحاصرتها مدة شهرين . ويقال ان

الذي مهد لفتح هذه المدينة التي صارت فيما بعد عاصمة المسلمين راعٍ خائن دلهم على ثغرة في سورها . أما أشد معارك هذه الحملة فوقعت عند استجة . وكان الظفر فيها للمسلمين . وهكذا أصبح طارقٌ الذي جاء الاندلس في ربيع عام ٧١١ على رأس غزوة بسيطة سيّد نصف اسبانيا في آخر فصل الصيف من هذه السنة . وبذلك قضى على مملكة بأسرها .

وحسد موسى مولاه طارقاً لما أصابه من ظفر عظيم لم يكن يتوقعه . فأسرع في حزيران من عام ٧١٢ إلى الاندلس على رأس عشرة آلاف من العرب والسوريين العرب متوجهاً إلى المدن والحصون التي لم يدخلها طارق كمدينة شذونة وقَرمونة . أما إشبيلية أكبر مدن الأندلس وأرقى مراكزها الفكرية (وقد كانت عاصمة الرومان قبل تغلّب القوط على البلاد) فقد ظلت محاصرة حتى آخر حزيران من عام ٧١٣ ، وكانت أشد مقاومة جابهها موسى في حملاته عند مدينة ماردة . فحاصرها مدة ، ثم احتلها بهجمة عنيفة في أول حزيران من عام ٧١٣ .

وكان اجتماع موسى بطارق في طُلَيطُلة أو بالقرب منها . ويروى ان موسى هنا وبخ طارقاً وضربه بالسياط ، وقيده بالسلاسل لخروجه عن أوامر سيده بتقدمه السريع في أوائل حملته . على ان الفتح لم يقف عند هذا الحد . فسار موسى تواً إلى سَرَقُسْطة في الشمال فافتتحها . وغزت جنودهمرتفعات أراغون وليون وأستورية وجِلّيقِية . وفي خريف هذه السنة استدعى الخليفة الوليد موسى عامله في افريقيا ووجه اليه التهمة نفسها التي

كان موسى اتهم بها طارقاً – وهي تهمة الاستقلال بالأمر دون مراجعة السلطة العليا .

وغادر موسى الأندلس مستخلفاً عليها ابنه الثاني عبد العزيز. وسار متباطئاً حتى قدم الشام يصحبه طارق وضباط الجيش واربعمائة امير قوطي على رؤوسهم التيجان وعلى أوساطهم مناطق ذهبية ، يتبعهم عدد غفير من الغلمان والسبي ، حاملين مقادير عظيمة من الكنوز والغنائم. ويلذ كثيراً لمؤرخي العرب الاسراف في وصف هذا الموكب الفخم الذي سار من اسبانيا عبر افريقيا الشمالية من الغرب إلى الشرق حتى بلغ أخيراً العاصمة الشامية . وهو وصف يُذكـِّر بمواكب الظفر التي سار على رأسها قواد الرومان القدماء . وكانت أخبار الموكب قد سبقته إلى دمشق فتلقى موسى عند وصوله طبرية في فلسطين أوامر من سليمان ولي عهد الخلافة يُشعره فيها بوجوب تأخير دخوله العاصمة إذ أنه أراد أن يصادف وصول هذا الموكب ارتقاءه كرسي الخلافة بعد أخيه الوليد العليل فيزداد رونقاً .

ودخل موسى دمشق في شباط عام ٧١٥ يصحبه الأمراء القوطيون بملابسهم الرسمية وعليهم الحلي والجواهر . والظاهر ان الوليد رحّب بهم في احتفال مهيب في بهو الجامع الفخم . وكان ذلك أبهى استقبال في تاريخ الفتوحات الاسلامية إذ شاهد المسلمون لأول مرة مئات من أبناء أسرة أوروبية مالكة والوفاً من سبي الأوروبيين يقدمون الطاعة لأمير المؤمنين .

وكان في التحف النفيسة التي قدمها موسى للخليفة المائدة

العجيبة التي نسبت الخرافات صنعها للجن في خدمة الملك سليمان ، وزعمت ان الرومان نقلوا هذه التحفة الفنية الفريدة من بيت المقدس إلى عاصمتهم ، ليأخذها القوط منهم فيما بعد ، فكان كل واحد من ملوكهم ينافس سلفه في ترصيعها بالحجارة الكريمة وقد حُفظت هذه المائدة في كاتدرائية طليطلة . ولعل طارقاً غنمها يوم هرب بها اسقف العاصمة . حتى إذا التقى موسى بطارق في طليطلة ضربه بالسياط واغتصبها منه . ويحكى ان طارقاً كان قد أخفى إحدى قوائمها . فلما كان هو وموسى في حضرة الخليفة أبرز هذه القائمة كدليل على انه هو الذي غنم المائدة فصدقه الوليد وأعظم جائزته .

وحلّ بموسى ما حلّ بكثير غيره من قواد العرب البارزين. فقد أذلّه الخليفة سليمان ، وعاقبه بالوقوف يوماً كاملاً في حرارة الشمس حتى وقع مغشياً عليه ، وصادر أمواله وجرده من كل سلطة . وآخر عهد لنا بموسى فاتح افريقيا واسبانيا مستعطياً في قرية نائية بالحجاز وهو طاعن في السن .

أصبحت اسبانيا الآن ولاية من ولايات الخلافة ، فأطلق عليها العرب اسم الاندلس تحريفاً لاسم الولاية الجنوبية التي كان قد احتلها الفندال من قبائل الطوطون الجرمانية . ولم يُبق موسى لخلفه إلا مقاطعات صغيرة في الشمال والشرق يفتحها وبعض الثورات يقمعها . وتم فتح هذه البلاد كلها وضمها إلى ملك العرب في خلال سبع سنين . وهي من أكبر أقطار أوروبا في العصور الوسطى وأجملها . وقد قُيّض لهؤلاء الفاتحين أن

يحكموها قروناً .

أما أسباب هذا الظفر الذي قد لا يكون له مثيل في التاريخ فيمكن استجلاؤها من هذه الحوادث التي سردناها بايجاز . وأولها ان الفرق القومي بين القوط الغربيين الذين دخلوا اسبانيا في أوائل القرن الخامس ، وهم من برابرة الطوطون ، وبين أهل البلاد الاسبان الرومانيين كان لا يزال ظاهراً . وقدجاهد هؤلاء القوط زمناً طويلاً قبل ان استولوا على البلاد من الأقوام الجرمانية التي سبقتهم كالسويفي والفندال . وحكم ملوك القوط البلاد حكماً مطلقاً عاتياً ، وظلوا محافظين على المذهب الآري في المسيحية حتى عام ٥٨٧ حين قبل احدهم ، واسمه ركارد ، الكثلكة مذهب أهل البلاد الذين كانوا يمقتون حكم القوط ويحسبون مذهبهم بدعة . أما طبقة العبيد والاقنان وهي تشمل قسماً كبيراً من السكان فلم تكن راضية عن نصيبها . فلا عجب ان ساعد هؤلاء المستعبدون الفاتحين ومهدوا لهم سبل الفتح . وكذلك نقم اليهود على حكم القوط لما أصابهم من الاضطهاد على أيدي ملوك القوط الذين حاولوا تنصيرهم قسراً . وكان أحدهم قد أصدر في عام ٦١٢ أمراً يقضي على اليهود بأن يختاروا بين المعمودية وبين التعرض للنفي ومصادرة الاموال . وهذا ما حدا بالمسلمين إلى ان يتركوا بعض المدن التي فتحوها في عهدة اليهود ويتقدموا لمواصلة الفتح في اسبانيا .

ولا بد ان نذكر ان الخلاف السياسي الذي كان استفحل أمره بين الأسرة المالكة وبين طبقة النبلاء من القوط أنفسهم ، والنزاع

الداخلي في البلاد زعزعا اركان الدولة . ففي أواخر القرن السادس انتهى هؤلاء النبلاء إلى ان يكونوا أصحاب السيادة في مقاطعاتهم . ورافق الفتح الاسلامي قيامَ أحدهم واغتصابه العرش من أخيلا بن غيطشة . ولكن أقرباء أخيلا خانوه . فاعتز أخيلا (الملك المخلوع) بقدوم العرب . وظن لأول وهلة أنهم آتون لنجدته . لكنه قنع بعد ان احتل المسلمون طليطلة العاصمة باسترجاع أملاكه في هذه المدينة ، وعاش فيها محفوفاً بما أراده من مظاهر الابهة . وتقلد عمه الاسقف أوبّاس منصب رئيس ابرشية العاصمة . أما الدور الذي لعبه اليان حاكم سبتة الذي قيل إنه أمد الجيش العربي بالمراكب التي اجتاز بها المضيق فقد بولغ فيه كثيراً .

وأزال سقوط سَرقُسْطة أحد الحواجز الاخيرة بين اسبانيا وفرنسا ، ولكن بقي أمام العرب حاجز منيع هو جبال البرانس. على أن موسى لم يقطع هذه الجبال ، على الرغم من أن بعض مؤرخي العرب ينسب اليه هذا العمل الباهر ابتغاءَ اجتياز بلاد الفرنجة إلى الشرق عن طريق القسطنطينية إلى دار الخلافة في دمشق . ولا يستغرب ان يكون شيء من هذه الاحلام قد جال في مخيلات هؤلاء الفاتحين لأن معرفتهم بجغرافية أوروبا كانت قاصرة . والواقع ان اول من قطع سلسلة جبال البرانس هو ثالث خلفاء موسى على الاندلس الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي . وذلك في عام ٧١٧ أو ٧١٨ .

ومما أغرى الحرّ بهذه المغامرة كنوز الاديرة والكنائس في

فرنسا . وشجعه عليها اضطرابات داخلية بين قوات البلاط الميروفنجي ودوقات أكوتانيا . فجرد حملات تابعها من بعده خلفه السمح بن مالك الخولاني . وفي عام ٧٢٠ استولى السمح على سبتمانيا التي كانت تابعة لمملكة القوط المنقرضة . ثم احتل اربونة التي جعلها العرب بعدئذ حصناً منيعاً يشتمل على دار لصناعة المعدات الحربية ومستودع للأسلحة والمؤونة . ولكن محاولته في السنة التالية في سبيل اكتساح تولوز كرسي دوق اكوتانيا باءت بالفشل لما لاقاه المسلمون من صلابةعود المدافعين. وهنا استشهد السمح . وبهذا الفشل تمأول انتصار لأمير جرماني على جيش عربي . وجاءت غارات العرب اللاحقة فيما وراء جبال البرانس غير موفقة .

وقاد عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، خلفُ السمح في اسبانيا ، آخر حملة وأشدها خطورة . فتقدم قاطعاً سلسلة جبال البرانس الغربية في مستهل ربيع ٧٣٢ . فقهر دوق اكوتانيا على ضفتي نهر غارون ، ثم هاجم بوردو بعنف شديد وأضرم النار في كنائسها . وبعد أن أحرق الباسيليكا القائمة خارج أسوار بواتيه ، زحف شمالاً حتى جوار مدينة تور . وقد كانت تور أشبه بعاصمة دينية لسكان بلاد الغال لكونها مرقد القديس مارتينوس الذي تنسب اليه التقاليد تنصير الغاليين. ولا ريب ان الذي جذب الغزاة اليها ما حواه مزارها من التقدمات النذرية الفاخرة .

وهنا بين تور وبواتيه التقى عبد الرحمن بشارل محافظ البلاط

المروفيني الذي لُقب فيما بعد بمارتل (أي المطرقة) والذي استنجد به دوق اكوتانيا . وكان شارل رجلاً شجاعاً جريئاً أخضع أعداء كثيرين واضطر دوق اكوتانيا الذي كانت له صفة الاستقلال بادارة مقاطعته إلى ان يعلن الطاعة الاسمية للفرنجة الشماليين . ومع ان شارل – وهو ابن غير شرعي لبيبين الهرستالي – لم يكن ملكاً فانه تصرّف تصرّفَ الملوك .

وقف الجيشان – الجيش العربي بقيادة عبد الرحمن والجيش الفرنجي تحت امرة شارل وأكثر أفراده (أي جيش الفرنجة) من المشاة اللابسين جلود الذئاب وقد تدلت ذوائبهم المتلبدة على أكتافهم – احدهما في وجه الآخر مدة سبعة أيام يرقبون فيها التحام المعركة . وطال أمد المناوشات حتى كان يوم سبت من تشرين الاول عام ٧٣٢ . فبدأ القائد العربي الهجوم . أما جند الفرنجة – حسب وصف مؤرخ غربي – فقد ألفوا من أنفسهم في وطيس المعركة شكلاً هندسياً مربعاً مجوفاً ووقفوا متراصين كتفاً إلى كتف ، وصمدوا أمام ضربات العدو كركام من جليد لا تزعزعه العواصف . وترامت فرسان العرب الخفيفة العدة على هذا الجمع المتراصّ فلم تنل منه أرباً . وصمد الفرنجة في مراكزهم يجندلون كل مهاجم دنا منهم . وقد كان ممن سقط في هذه الملحمة عبد الرحمن نفسه . وأسدل الظلام حجاباً على الجمعين ستَرَ أحدهما عن الآخر . وما طلع فجر اليوم التالي حتى خُيل لشارل ان السكينة المخيمة على معسكر العدو هي خدعة . فبعث الجواسيس يستطلعون حقيقة الأمر فثبت لهم ان

العرب انسحبوا تحت جنح الظلام بعد أن أخلوا مضاربهم . وبذلك تم النصر لشارل .

وقد زوّقت أساطير الغربيين يوم بواتيه أو تور وأسرفت في المبالغة بأهميته التاريخية . وعدّه المسيحيون آخر حلقة في سلسلة الفتوحات التي ابتدأت منذ قرن في البلاد العربية . ويقول المؤرخ الانكليزي غيبون Gibbon وتابعوه من المؤرخين انه لو انتصر العرب في ذلك اليوم لكنت ترى المساجد لا الكنائس في باريس ولندن ، ولسمعت تفسير القرآن لا الكتاب المقدس في جامعة اكسفورد وغيرها من معاهد العلم في الغرب .وبعض المؤرخين المحدثين يعد معركة تور هذه إحدى معارك التاريخ الفاصلة .

والواقع ان هذه المعركة لم تفصل شيئاً . فالموجة المؤلفة من العرب والبربر كانت قد استنفدت كثيراً من قوتها فوصلت إلى حدّ طبيعي من التوقف إذ بعدت عن جبل طارق ، نقطة بدايتها ، نحو الف ميل . وكان قد دب الخلاف الداخلي بين العنصرين اللذين تكوّن منهما جيش عبد الرحمن (أعني العرب والبربر)وبدت طلائع الضعف في معنوياته . ولم يكن للعرب أنفسهم شعور يوحدهم أو هدف يجمعهم . والواقع انه وإن كُبح جماح العرب عند هذه المرحلة فقد واصلوا غاراتهم في جهات أخرى .

ففي عام ٧٣٤ مثلاً احتلوا افنيون ، وبعد مضي تسع سنين أغاروا على ليون ، ولم تفلت أربونة المعقل العسكري من

قبضتهم حتى عام ٧٥٩ . فالانكسار بالقرب من تور إذاً لم يكن سبب توقف العرب الرئيسي ، ولكنه جاء بمثابة حد أقصى لما بلغته الجيوش الاسلامية من الظفر .

وامتدت الامبراطورية الاموية بعد وفاة النبي بمائة عام من حدود الصين إلى غالية . وأصبحت دمشق — البلد الذي تقول الرواية إن محمداً أحجم عن دخوله لأنه أراد أن يرى الجنة مرة واحدة — عاصمة هذه الامبراطورية المترامية الاطراف . وفي وسط هذه المدينة قام قصر الامويين متألقاً يطل على السهول الخصبة الممتدة إلى الجنوب الغربي حتى الجبل الشيخ المكلل بالثلوج . وكان بانيه معاوية مؤسس السلالة الاموية ، فأقامه بجانب الجامع الأموي الذي زينه الوليد وجعله آية هندسية لا تزال تجذب اليها عشاق الفن الجميل . وفي ردهة الاستقبال كان مقعد العرش المربع تغطيه المساند المزركشة الفاخرة ويجلس عليه الخليفة في الجلسات الرسمية بثيابه الفضفاضة متربعاً . وكان يقف عن يمينه العصبة من أقربائه مصطفين حسب الاقدمية في السن ، وعلى شماله ذوو الارحام منهم ، وخلفه بطانته والشعراء والملتمسون . أما المجالس ذات الصفة الرسمية الممتازة فكانت تعقد في الجامع الأموي العظيم . وهو لا يزال حتى يومنا هذا من أفخم المعابد في العالم وأبدعها . ولعل الخليفة استقبل موسى وطارقاً مع اسراهم وكنوزهم في مجلس كهذا . ففي هذه الحقبة الاموية بلغت العروبة أعلى قمم مجدها ، وانتهى الاسلام إلى آخر مرحلة من مراحل تقدمه وسيره .

بدء الحياة الثقافية والاجتماعية

ننتهي الآن في بحثنا هذا إلى الناحية الرئيسية في التاريخ الاسلامي ، وننتقل من سرد احداث المعارك والفتوح إلى ما هو أكثر خطورة ، أعني التقدم الفكري والتطور الثقافي في الامبراطورية الاسلامية نفسها وما رافقهما من نهضة أدبية في العلم والطب والفن وهندسة البناء . في هذا الطور كانت فتوح العربي عن طريق العقل لا عن طريق السيف ، وذلك بالاستعانة بذخائر الآداب والعلوم اليونانية والسريانية والفارسية والهندية منقولة إلى العربية .

ومن الحقائق الرائعة أن طبيعة الحياة اليوم في دمشق وعادات سكانها لا تختلف كثيراً عما كانت عليه مذ كانت عاصمة الامويين . في ذلك العهد كان في دمشق وغيرها من المدن الكبرى أحياء خاصة يسكنها العرب محافظين فيها على الانتساب القبلي ،

واليوم لا تزال هذه الاحياء في دمشق وحمص وحلب مستقلة عن سواها . .

وكان سكان الامبراطورية ينقسمون إلى اربع طبقات اجتماعية . وكانت الطبقة العليا تتألف من الفئة المسلمة الحاكمة ، وعلى رأسها اسرة الخليفة والارستقراطيون من العرب الفاتحين . ولا يُعرف بالتدقيق عدد هذه الطبقة ولكنها بلغت في حمص والشام عدداً يتراوح ما بين العشرين والخمسة والاربعين الفاً .

وكانت الطبقة الثانية تتألف من الموالي أي المحدثين في الاسلام ممن قبلوا رسالة محمد طوعاً أو كرهاً ، وكان لهذه الطبقة حقوق في الجنسية الاسلامية بالاسم لا بالفعل ، وذلك لأن الأثرة (الشوفانية) العربية كانت قوية إلى حد لم تستطع معه هذه الحقوق النظرية ان تتحقق في الواقع ، إذ لم يكن الاعتراف بها إلا ظاهرياً . ولا شك في ان مالكي الأراضي أجبروا على دفع الخراج طوال معظم العهد الاموي سواء أكانوا من المؤمنين أم من غير المؤمنين . ومما لا ريب فيه أيضاً أن أكبر العوامل التي سببت التناقص في دخل الدولة كان كثرة عدد الداخلين في الاسلام ، لأن الجزية تسقط بالاسلام .

وأدرك الموالي انهم كانوا في أحط المراتب الاجتماعية في البيئة الاسلامية ، فاستنكروا هذا الوضع ولم يقنعوا به بحال ، وهذا يوضح السبب الذي حملهم على تأييد حركات الشيعة في العراق والخوارج في فارس وغير ذلك من الحوادث التي أثارت نزاعاً مستديماً في الاسلام وأسالت دماء غزيرة . إلا ان بعضهم برهنوا

عن تشبث بالدين الجديد أكثر من أصحابه وتحمسوا له إلى درجة من التعصب جعلتهم يضطهدون غير المسلمين . وكان اليهود والنصارى الذين اعتنقوا الاسلام من أشد المسلمين الأول صلابة في عدم التسامح .

ولما كان معظم هؤلاء الموالي أبناء ثقافة عريقة في القدم فليس عجيباً ان يكونوا أول من أقبل في البيئة الاسلامية على الدروس العلمية والفنون الجميلة . وما كادوا يظهرون على اخوانهم المسلمين العرب في مجال الثقافة حتى أخذوا يطمحون إلى الزعامة السياسية . ولقد تزاوجوا بالعنصر الفاتح فاختلط بهم الدم العربي حتى ضاع بين خليط العناصر .

وكانت الطبقة الثالثة تتألف من أبناء المذاهب التي تدين بالديانات المنزلة المعروفين بأهل الذمة ، وهم النصارى واليهود والصابئة الذين كانوا قد دخلوا في عهد الاسلام . وليس من شك في ان اعتراف المسلمين بكيان هذه الطبقة ، بعد ان اشترطوا عليها التجرد من السلاح وتأدية الجزية مقابل الحماية الاسلامية ، كان من أعظم الأحداث السياسية التي جاء بها الاسلام . وإنما يرجع ذلك ، أكثر ما يرجع ، إلى ما كان يكنه محمد من الاحترام للتوراة ، في حين يرجع بعضه إلى العلاقات الودية مع رؤساء بعض القبائل المسيحية العربية .

وقد تمتع أهل الذمة في هذا الوضع بقسط وافر من الحرية لقاء تأديتهم الجزية والخراج . فكانوا يرجعون في قضاياهم المدنية والجزائية إلى رؤسائهم الروحيين ، إلا إذا كانت القضية

تمس مسلماً . لقد كان القانون الاسلامي أقدس من أن يطبّق على أهل الذمة. والواقع ان شيئاً من هذا النظام ظل معمولاً به حتى آخر العهد العثماني وفي زمن الانتداب في سورية وفلسطين .

أما الطبقة الرابعة فهي طبقة العبيد ، وكانت في أسفل دركات الهيئة الاجتماعية . لقد احتفظ الاسلام بنظام العبيد ، وهو نظام سامي قديم أقرّته التوراة . على ان الاسلام حسّن حالة العبيد بعض الشيء . ومع ان الشرع الاسلامي منع استرقاق المسلم فهو لم يعد الدخيل بالعتيق إذا أسلم . وكان معظم العبيد في فجر الاسلام من اسرى الحرب وفيهم النساء والأحداث الذين لم يُفتدوا والذين شُروا بالمال أو أخذوا في الغزو . وما عتّمت تجارة العبيد ان أصبحت تجارة نشيطة رابحة في جميع البلدان الاسلامية . وكان الرقيق أجناساً شتى فمنه الزنجي من افريقية الشرقية والوسطى ، والاصفر من تركستان الصينية ، والابيض من الشرق الأدنى أو من أوروبا الشرقية أو الجنوبية . وكانت أثمانهم مختلفة أيضاً ، فقد بلغ ثمن العبد الاسباني نحو الف دينار ، في حين ان العبد التركي لم يزد ثمنه على ستمائة دينار . ولقد نصّت الشريعة الاسلامية على ان مولود الأمَة عبدٌ سواء أكان الوالد عبداً أم حراً إلا إذا كان الوالد هو سيد الأمَة واعترف بأبوّته . أما أولاد العبد من زوجة حرّة فأحرار .

ويمكننا الاستدلال على عدد العبيد الذين طما سيلهم على الامبراطورية الاسلامية بداعي الفتوحات من الروايات التالية ، وهي بلا ريب مبالغ فيها . فقد ذكروا ان موسى بن نصير

رجع بثلاثمائة الف أسير من شمالي افريقيا ، فأهدى خمسهم إلى الخليفة ، وانه أخذ من بنات الاسَر القوطية النبيلة في اسبانيا ثلاثين الف عذراء . كما ذكروا ان عدد اسرى قائد واحد فقط من قواد المسلمين في تركستان بلغ مائة الف .

وكان الزواج الشرعي محظوراً على السيد وأمته . أما التسري فكان مباحاً . والأولاد الذين يولدون في حالة التسري هذه يتبعون الوالد ، فهم أحرار . غير ان رتبة الأم وهي سُرّية ترتفع إلى مرتبة « أمّ ولد » فلا يجوز بيعها أو اهداؤها . ومتى مات السيد أعتِقَت . ولقد لعبت تجارة الرقيق دوراً هاماً في اختلاط العرب بمختلف العناصر الاعجمية لينتج عن ذلك اندماج تام بينهم وبين شعوب غريبة متعددة .

لاحظنا ان الغزاة من عرب الصحراء دخلوا الأمصار التي فتحوها خالي الوفاض من كل تقليد علمي أو تراث ثقافي . ولقد حال قرب عهد الامويين من عصر الجاهلية وحروبهم الكثيرة وعدم استقرار الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في العالم الاسلامي دون التقدم الفكري في بدء عهدهم . غير ان بذور الفكر الناشيء عن الثقافات السابقة من يونانية وسريانية وفارسية كانت قد زُرعت في تربة العهد الأموي . فما جاءت الدولة العباسية حتى نمت هذه البذور لتصبح أشجاراً باسقة ذات أثمار يانعة . فالعصر الأموي إذاً كان على الجملة عصر استعداد وحضانة .

وبدخول الفرس والسّريان والاقباط والبربر وسواهم حظيرةَ الاسلام وتزاوجهم بالعرب زال ذلك الحاجز المنيع الذي

وضعه الاولون بين العرب والاعاجم فلم يعد لقوميةالمسلم أهمية .

ومهما كانت قومية المسلم أصلاً فقد صار يُعدّ الآن عربياً. أصبح كل من اعتنق الدين الاسلامي وتكلم اللغة العربية عربياً بقطع النظر عن قوميته الأصلية . وهذا الحدث كان من أشد الأمور خطورة في تاريخ المدنية الاسلامية . فنحن إذا ذكرنا « الطب العربي » أو « الفلسفة العربية » أو « الرياضياتالعربية » فلسنا نقصد بذلك ان هذه العلوم بكليتها كانت من نتاج العقل العربي ، أو ان الذين وضعوها ورقّوها هم من أبناء الجزيرة بل نعني مجموعة تلك العلوم التي وضعها في اللغة العربية رجال نشأ جلّهم في عصور الخلافة وهم فرس ومصريون وعرب من نصارى ويهود ومسلمين ، وقد استمدّ بعضهم معلوماته من مصادر يونانية والبعض الآخر من مصادر آرامية أو هندية فارسية أو غيرها .

وبدأت دراسات اللغة العربية وفيها الصرف والنحو في البصرة على تخوم فارس ، وكان الباعث الأول على ذلك حاجة الداخلين في الاسلام إلى تعلّمها . غير ان هؤلاء أنفسهم قاموا فيما بعد بقسط وافر من هذه الدراسات . وكانت الرغبة الأولى الملحّة هي تلقين الموالي اللغة العربية كي يفقهوا القرآن ويشغلوا المناصب الادارية ويخاطبوا الفاتحين بلغتهم . وتنص الروايات على ان واضع قواعد النحو العربية هو أبو الاسود الدؤلي (توفي عام ٦٨٨) . ولقد زعم ابن خلكان ان الخليفة وضع للدؤلي هذا الاساس وهو ان « الكلام كله ثلاثة أضرب إسم وفعل وحرف » ؛

ثم دفعه إليه وقال له « تمم هذا » فأتمّ موفّقاً . على ان النحو العربي ينمّ عن نشوء طويل لم يقم به جيل بل أجيال . وقد اصطبغ في خلال نشوئه بالوان المنطق اليوناني .

وأفضت دراسة القرآن وضرورة شرحه إلى ظهور علمَي فقه اللغة (الفيلولوجيا) ومفرداتها ، وإلى ظهور علم الحديث وهو أبرز العلوم الاسلامية . والحديث بالمعنى الاصطلاحي عمل أو قول منسوب إلى النبي أو أحد الصحابة . وقد كان القرآن والحديث الأساس الذي بُني عليه علم أصول الدين وعلم الفقه . والشريعة الاسلامية أشدّ علاقة بالدين وأصوله من علم الحقوق المعروف عند ارباب القانون اليوم . ولا شك في ان الشرائع الرومانية أثّرت مباشرة ، وبواسطة التلمود وغيره في التشريع الأموي . بيد ان مدى هذا التأثير لم يتحقق بعد .

ولقد شهد هذا العصر نشأة العلوم العربية التي جاء معظمها عن طريق الترجمة. وكان أقدم ما أخرج للناس رسالة في الطب نقلها إلى العربية رجل يهودي عن كتاب يوناني ألفه كاهن مسيحي في الاسكندرية . واعتنى العرب في بدء نهضتهم الأدبية بعلم الكيمياء كما فعلوا بعلم الطب فأبدعوا فيهما . وكان لهم فضل كبير في هذه العلوم التي اتسع مداها على تعاقب الأيام .

وازدهر فن الشعر في البلاط الاموي في دمشق . وكذلك ازدهر فن الموسيقى على الرغم من مقاومة المحافظين الذين اعتبروا في الموسيقى والغناء بمنزلة الخمر والميسر اللذين حرمهما القرآن . ولا شك في ان الرقي الفكري في عهد الامويين بلغ أبعد

غاياته في صناعة الشعر . أما عصر الفتوحات السابق فقد كان مجدباً إذ لم يظهر فيه شاعر واحد في العرب وهم أمة الشعراء . وما إن تسلم الأمويون زمام الحكم حتى استعادت آلهة الخمر والغناء والشعر منزلتها السابقة فظهر لأول مرة شاعر الحب في العربية عمر ابن أبي ربيعة المتوفى حوالى ٧١٩ ، وهو قرشي أمه يمنية جعل التعرض بحديث الحب للفتيات الجميلات القاصدات الحج دأبَه وديدنه ، وتودد إلى سُكينة بنت الحسين المشهورة بجمالها وأدبها .

أما أعظم براعة فنية أظهرها المسلمون فكانت في الهندسة المعمارية ولا سيما بناء المساجد . فالمعماريون المسلمون وبعض من استُخدِموا في هذه السبيل أحدثوا في فن البناء نسقاً جديداً بسيطاً رائعاً قام على أساس من نماذج قديمة ولكنه تفرّد بميزة خاصة وهي إظهار روح الدين الجديد . ولنا ان نعتبر المسجد خلاصة لتاريخ امتداد الثقافة الاسلامية سواء أكان ذلك ضمن الاسلام وعناصره المختلفة أم خارج الاسلام فيما يتعلق بالامم الأخرى . فالمسجد خير مثال يمكننا أن نتخذه دليلاً على العلاقات الثقافية بين المسلمين وجيرانهم .

ولقد أصبح المسجد النبوي البسيط في المدينة على الجملة نموذجاً لمعابد القرن الاسلامي الأول . وكان أول أمره عبارة عن بهوٍ بلا سقف بنيت جدرانه باللِبن . ثم مد النبي سقف البيوت المجاورة فظلل بها البهو المكشوف اتقاءً لأشعة الشمس المحرقة . وكانت عمَدُهُ من الجذوع وسقفه من الجريد عليه الطين .

وكان الرسول بادئ الأمر يخطب الناس غير مستند إلى شيء ، ليخطب بعدُ إلى جذع قائم في هذا المسجد يعتمد عليه إذا طال قيامه . ثم بدا له ان يتخذ منبراً فاتخذه من الطرْفاء (الأثل) ذا درجات ثلاث على نحو ما عرف من المنابر في الكنائس النصرانية في الشام . وكان كل ما اشتمل عليه المسجد الجامع الأول فِناءً وسقفاً يقي المصلين ومنبراً يرقاه الخطيب .

ولما تقدم العرب يفتحون الأمصار القريب منها والبعيد من أنحاء آسيا الغربية وافريقيا الشمالية صارت إلى أيديهم بنايات لا تحصى منها الباقي والعافي ، تمثّل رقياً فنياً رفيعاً . والأهم من ذلك انه أصبح في حوزتهم معارف فنية حية ورثها أبناء الأمم المغلوبة عن العصور الخالية . وما لبثت هذه الأوضاع الفنية التي حوّرتها حاجات الجماعات الاسلامية الدينية أن أصبحت تُعرف على مرور الأيام بالفن العربي .

وانتهى بيت المقدس إلى أن يكون منذ بدء عهد الاسلام بلداً مقدساً في نظر المسلمين بأجمعهم . ويرجع ذلك إلى منزلة بيت المقدس في التوراة ولأنه كان القبلة الأولى في الاسلام والموضع الذي وطئه محمد قبل صعوده إلى السماء ليلةَ الاسراء . وفيه تقوم اليوم قبة الصخرة التي بنيت عام ٦٩١ في بقعة تُعدّ أكثر بقاع الأرض قداسةً ساهم في احترامها اليهود والوثنيون والنصارى والمسلمون وعدّها التقليدُ الموضعَ الذي أراد ابراهيم ان يقدم اسحق ابنه فيه ذبيحةً لله . وتختلف هندسة قبة الصخرة هذه عن الأساليب القديمة فقد أدخلت في بنائها الفسيفساء وسواها

من أسباب الزخرفة . ولقد أسرِف في صنع القبة كما تفوق قبة كنيسة القيامة أناقة وفناً . فكانت النتيجة أثراً هندسياً رائعاً قلما تجد ما يضاهيه في أقطار العالم .

أما الجامع الأموي في دمشق فأكبر دليل على ما وصلت اليه المدنية العربية من تطور . ففي سنة ٧٠٥ أخذ الوليد بن عبد الملك « باسيليكا » دمشق المسيحية المكرّسة للقديس يوحنا ، وكانت في الاصل هيكلاً لجوبيتر ، فابتنى هنالك المسجد العظيم المعروف بالجامع الأموي . ومن العسير ان نتبين ما بقي في هذا الجامع من أصل البناء المسيحي . إلا ان المئذنتين الجنوبيتين تقومان على ابراج كنيسة قديمة هي من ابراج « الباسيليكا » . أما المئذنة الشمالية التي كانت تُستخدَم برجاً للاستطلاع فمن الثابت ان بانيها الوليد . ولقد أصبحت بعد نموذجاً لسواها من المآذن في سورية وشمالي افريقيا واسبانيا . وهي أقدم المآذن الاسلامية الصرفة الباقية . واستخدم الخليفة في بناء هذا الجامع الصناع الفرس والهنود والمعماريين الوطنيين ، ولعلّ بعضهم كان من الروم الذين أوفدهم امبراطور القسطنطينية . وتفيد أوراق البَرْدِيّ المكتشفة حديثاً ان بعض مواد البناء استُقدمت من الديار المصرية، وكذلك بعض حُذّاق العمال .

ومما تقدّم وما يلي يتبيّن ان العرب لم ينالوا قصب السَّبْق في ميدان الحروب فقط بل في ميدان العلوم والفنون أيضاً .

بغداد في أوج مجدها

ما كان انهماك العرب في التافه من حضارة زمانهم ليقلّ عن انهماكهم في علومها وفنونها ولا سيما بعد ان أخذ أبناء الجواري يتسنّمون عرش الخلافة . وكان أول هؤلاء يزيد بن الوليد (٧٤٤) وأمّه أمّ ولد ، وكذلك كان الخليفتان اللذان تبعاه وهما آخر السلالة — من أمّي ولد . ففي هذا الزمن نشأ نظام الخصيان الذي لولاه لما قام نظام الحريم . وبازدياد الثروة وكثرة العبيد ازداد انغماس القوم في الترف . فلم تستطع السلالة المالكة المفاخرة بصفاء دمها العربي . وما ذلك إلا دليل واضح على الانحطاط الاخلاقي الذي كان متفشياً في المجتمع عامة .

ومما زاد في ضعف السلالة الأموية وانحلالها اتساع شقة الخلاف بين قبائل عرب الشمال وبين قبائل عرب الجنوب . والحق ان هذا الاختلاف كان قائماً قبل الاسلام ولكنه بلغ

الآن أقصاه ، فهو يثير أشدّ النفور والخصام . فعلى ضفّتي الاندَلس وشواطئ صقليّة وتخوم الصحراء الافريقية ظهرت تلك الضغائن الكامنة من أمد بعيد وتبلورت في شكل حزبين سياسيين هما قَيْس ويَمَن . واستمرّ هذا النزاع إلى العصور الحديثة إذ نشبت معارك بين الفريقين في لبنان وفلسطين حتى القرن الثامن عشر .

وهنالك عامل آخر زاد السلالة الاموية وَهَناً وهو عدم وجود نظام ثابت صريح يجري بموجبه التعاقب في الخلافة . ولقد أدرك معاوية خطورة هذا الأمر فأوصى بالخلافة من بعده لابنه يزيد ، فأدخل بعمله هذا مبدأ جديداً حكيماً يرتكز على الوراثة . لكن مبدأ الاقدمية في السنّ الذي جرى عليه العرب كان أبداً يناقض ميل الخليفة إلى جعل الخلافة في ذريته . وعلى كلّ حال فقد بقيت المبايعة معمولاً بها ، ولكن في الظاهر فقط.

وفي سنة ٧٤٧ قام العباسيون بثورة على أبناء عمهم الأمويين . والعباسيون هم أبناء العباس عمّ الرسول. فنجحوا في حركتهم وكادوا يُبيدون البيت الأموي . ويُروى ان قائدهم عبد الله بن العباس دعا ثمانين رجلاً من الامويين للطعام في أبي فُطْرُس — على نهر العوجاء قرب يافا — فأمر قومهُ أن يضربوا رؤوسهم حتى أتوا عليهم ، ثم أمر فطُرحت عليهم البسط وجلس عليها ودعا بالطعام فأكل ، وهو يسمع أنينهم . ولُقّب الخليفة العباسي الأول بالسفاح فلزمهُ هذا اللقب . وعمد العباسيون إلى استعمال العنف في تنفيذ خططهم . ولأول مرة في تاريخ

الأسلام صار النّطع إلى جانب كرسي الخليفة ، واتُخِذ منه ومن قوة الجلاد أداة لتوطيد صولة العرش . وخضع لحكم العباسيين القسم الشرقي من العالم الاسلامي ، أما شمالي افريقيا والأندلس فلم يخضعا قط . ودام ملكهم خمسة قرون تعاقب فيها سبعة وثلاثون خليفة حتّى قُضي على الأخير منهم سنة ١٢٥٨ على يد المُغُول . وفي أيامهم ارتقت الحضارة العربية فبلغت عصرها الذهبي .

وفي سنة ٧٦٢ باشر المنصور الخليفة العباسي الثاني بناء بغداد عاصمته الجديدة على ضفة دجلة الغربية وهو موقع قامت فيه قريةُ ساسانية باسم بغداد ، ومعناه « هبة من الله ». وفي وادي دجلة والفرات ازدهرت بعض حواضر العالم القديم . قال المنصور : « هذا موضع معسكر صالح . هذه دجلة ... يأتينا فيها كل ما في البحر ، وتأتينا الميرة من الجزيرة وارمينية وما حول ذلك ، وهذا الفرات يجيء فيه كل شيء من الشام والرقة وما حول ذلك . » وكان اختيار المنصور لهذا الموضع حكيماً حقاً . واستغرق بناء المدينة أربع سنوات استُخدم في بنائها مئة الف من المهندسين والصناع والفعلة . وما لبثت أن أصبحت مدينة عظيمة .

وجعل المنصور مدينته مدورة فسميت بالمدينة المدورة . وبنى سوراً مؤلفاً من حائطين من اللبن ، واحتفر خندقاً عميقاً وأقام سوراً ثالثاً داخلياً علوه تسعون قدماً يحيط بأواسط المدينة . وجعل للمدينة أبواباً أربعة تمرّ فيها طرق اربع تبتدئ من وسط

المدينة وتترامى إلى أطراف الامبراطورية الاربعة وكأنها شعاعٌ ينبثق من دولاب . فكانت المدينة عبارة عن دوائر ذات مركز واحد قام في قلبها قصر الخليفة المسمى بباب الذهب أو القبة الخضراء ، وإلى جانبه المسجد الجامع . أما قبة مجلس القصر الخضراء التي غلب اسمها على القصر بأجمعه فارتفعت مائةوثلاثين قدماً . ولقد جاء في رواية متأخرة ان صنماً بهيئة فارس يحمل رمحاً كان في أعلى هذه القبة ليشير في الأوقات الحرجة إلى الجهة التي قد يجيء منها العدو . ولكن فساد هذه الخرافة لم يفت ياقوت الحموي فقال ان الصنم لا محالة يتوجه إلى جهة ما في كل حين مما يدل على وجود عدو يطل على المدينة في كل وقت : « أما الملة الاسلامية فانها تجلّ عن هذه الخرافات » .

وقُرْبُ مركز الخلافة الجديد من فارس حدا بها على ان تتجه نحو الشرق . فخضع الاسلام العربي للمؤثرات الفارسية ، وأصبحت الخلافة أشبه بحكومات الاستبداد الفارسية ، منهـا بمشيخة عربية . فتسرب إلى الحياة العربية من فارس شيء كثير كالألقاب والخمر والزوجات والسراري والأغاني والأفكار . على ان هذه ليّنت خشونة الحياة العربية ومهدت السبيل لبزوغ عهد ممتاز بالعلوم والاستنباط الفكري . إلا ان مسحة العروبة احتفظت بأمرين هامين وهما الاسلام دين الدولة ، والعربية لغة الدواوين الرسمية .

وفي مستهل القرن التاسع ظهر عاهلان بارزان في الشؤون العالمية ، هما شرلمان في الغرب وهرون الرشيد في الشرق. وليس

من شك في ان هرون كان أقوى من زميله ، وفي انه كان يمثل ثقافة أرفع من ثقافة الغرب . وقد تبادل العاهلان علاقات ودية أساسها المصلحة ، فابتغى شرلمان صداقة هرون كي يعينه على خصمه امبراطور بيزنطية ، وودّ هرون مساعدة شرلمان على منافسيه وأعدائه الأمويين في الاندلس الذين كانوا قد شادوا دولة منيعة الجانب تتمتع بالرخاء . ولهذا تبادل الاثنان — على قول المؤرخين الغربيين — السفراء والهدايا . ويروي مؤرخ افرنجي عرف شرلمان معرفة شخصية ان سفراء الملك العظيم في الغرب رجعوا من الشرق يحملون الهدايا الثمينة من « ملك فارس هرون » وبينها منسوجات وأفاويه وفيل واحد وساعة دقيقة التركيب تقيس الوقت بواسطة الماء . أما خبر الأرغن الذي يقال ان هرون أهداه إلى شرلمان فهو ككثير من الاخبار الجذابة في التاريخ وليد الخيال ولا يستند إلى الحقيقة . وقد نفى البحث العلمي أيضاً القصة التي تقول بأن هرون أعطى شرلمان مفاتيح كنيسة القيامة . والغريب في أمر تبادل السفراء والهدايا هذا الذي جرى ما بين سنتي ٧٩٧ و ٨٠٦ ان المؤرخين لا يشيرون اليه البتة ، على الرغم من انهم أشاروا إلى مبادلات ديبلوماسية أخرى .

وفي أيام هرون الرشيد هذا (٧٨٦ — ٨٠٩) أصبحت بغداد مركزاً للغنى الباذخ والأهمية العالمية ، ولم يكن قد مضى بعد على تأسيسها نصف قرن ، فوقفت وحدها تضاهي بيزنطية . وكان مجدها متناسباً مع تقدم الامبراطورية التي كانت هي عاصمتها حتى قيل « لم يكن لبغداد في الدنيا نظير » .

وكان القصر الملكي وما يتبعه من ملحقات للحريم والخصيان والخدم يبلغ ثلث المدينة المدورة . وأعظم ما فيه المجلس المفروش بالطنافس والمجهّز بالسجُف والمساند بحيث لم يكن في الشرق أبدع منه . وكانت زُبيدة ، زوج هرون وابنة عمه ، تشاركه في تلك الهالة من المجد التي اكسبتهما إياها الاجيال المتتالية . فلم تتسامح في ان ترى على مائدتها أوعية غير مصنوعة من الذهب أو الفضة وغير مرصّعة بالجواهر . ويقال انها أنفقت في حجّة لها ثلاثة ملايين ديناراً منها نفقة إسالة الماء خمسة وعشرين ميلاً إلى الحرم بمكة .

وكانت لزُبيدة مزاحمة هي عُليّة الفتانة ، أخت هرون لأبيه من أمّ ولد . وكان بها عيب في جبينها فاتخذت العصائب المكللة بالجواهر لتستّر بها جبينها فأحدثت شيئاً لم يكن ، فيما ابتدعته النساء ، أحسنُ منه . فأخذته النساء عنها .

وبلغ بذخ البلاط وعظمته أقصى درجاتهما في الاحتفالات الرسمية كتنصيب الخليفة والاعراس والحج والاحتفاء بالسفراء الاجانب . وقد أنفق في زواج الخليفة المأمون على بُوران ابنة وزيره سنة ٨٢٥ مقاديرُ هائلةٌ من المال. فحفظ لنا الأدب العربي قصة هذا الزواج الذي « لم يُعهد له مثيلٌ في عصر من العصور » قيل : ولما جلس العروسان وقد بُسط لهما فرش كان الحصير منها منسوجاً بالذهب ومكللاً بالدرّ والياقوت ، نُثرت على بوران الف دُرّة كانت في صينية ذهب وأوقدت شموع العنبر في كل واحدة مئتا رطل فانقلبت بنورها الظلمة ضياء . وانتهى

أمر ذلك الفرح العظيم بأن نُثر على الهاشميين والقواد والكتّاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع باسماء ضياع وأسماء جوارٍ وغير ذلك . فكانت البندقة إذا وقعت في يد رجل فتحها وقرأ ما فيها ومضى ليتسلم مضمونها سواء أكانت ضيعة أم فرساً أم جارية أم مملوكاً . وفي سنة ٩١٧ استقبل الخليفة المقتدر في قصره رسل الامبراطور الشاب قسطنطين السابع استقبالاً فخماً . والظاهر أن القصد من زيارتهم كان تبادل الاسرى وافتداءهم . ولقد مشى في موكب الاستقبال يومئذ مائة وستون الف فارس وراجل ، وسبعة آلاف خصي منهم البيض والسود ، وسبعمائة حاجب ونحو مائة أسد . وكان ما عُلّق من الستور في قصر الخليفة ثمانية وثلاثين الف ستر منها اثنا عشر الفاً وخمسمائة من الستور المذهبة. وبلغ ما حواه من البُسُط اثنتين وعشرين الف قطعة — وقد أصاب الرسل من الاعجاب والروعة الشيء الكثير ، ولما نظروا إلى دار الحاجب ودار الوزير حسبوهما مجلس الخليفة فقيل لهم ان هذه دار الوزير وتلك دار الحاجب . ولكن دهشتهم كانت على أشدّها عندما دخلوا دار الشجرة وفيها شجرة من الفضة والذهب وزنها خمسمائة الف درهم وعلى كل غصن عصافير وطيور من كل نوع مذهبة ومفضضة تتحرّك حين تحرّك الريح ورق الشجر فتصفر الطيور وتهدر . ثم أخرجوا إلى بستان فيه نخل طويل كل نخلة خمسة أذرع قد لُبّست جميعها ساجاً منقوشاً وهي مثقلة بغرائب التمر .

وكان هرون مثالاً أسمى للملوكية في الاسلام . وسخاؤه

كسخاء الخلفاء الذين تبعوه مباشرة جَذَبَ إلى العاصمة الشعراء وأهل الذكاء والفكاهة وأرباب الموسيقى والغناء والرقص وغيرهم من أرباب الملاهي كمربي الكلاب والديوك التي كانوا يعرضونها تقتتل أمام النظّارة . ولقد وصف الشاعر المجوني أبو نواس ، وهو نديم الرشيد ورفيقهُ في كثير من جولاته الليلية ، حياة البلاط خلال هذا العصر الزاهي ، في أعذب الشعر ، وصفحات « الاغاني » للاصفهاني طافحة بالقصص التي تمثل هذه الحياة بألوان برّاقة لا يصعب استخلاص الحقيقة من تلافيفها . قيل ان الخليفة الامين بن هرون غنّاه ابراهيم بن المهدي عمّه ،وهو مغنٍّ شهير ،صوتاً في شعر لابي نواس فأمر له بثلاثمائة الف دينار.فقال ابراهيم: « يا أمير المؤمنين قد أجزتني إلى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم.فقال: هل هي إلا خراج بعض الكُوَر ؟ » وكان للأمين عدّة حرّاقات خاصة في دجلة على صورة الأسد والفيل والعُقاب . ولقد أنفق في عمل واحدة منها ثلاثة ملايين درهماً . وفي « الاغاني » أيضاً نطالع وصف مشهد من مشاهد الرقص الغنائي الرائع فاذا دارُ الخليفةِ الامين مملوءة بالوصائف يغنّين على الطبول والسرنابات. والأمين واقف في وسطهن يرتكضن في دارة الملهى ، والجواري والمخنّثون من حوله يزمّرون ويضربون . وذكر المسعودي ان ابراهيم بن المهدي استزار أخاه الرشيد فلما وُضعت البوارد على المائدة رأى الرشيد السمك فاستصغر القطع فقال ابراهيم « هذه ألسنة السمك » وأردف الخادم قائلاً : « يا امير المؤمنين فيها أكثر من مائة

وخمسين لساناً » . فاستحلفه الرشيد عن مبلغ ثمن السمك فأخبره انه أكثر من الف درهم . واننا إذا جرّدنا صورة حياة البلاط ببغداد عما البسته اياها القرائح الشرقية من الاطناب والمبالغة لرأينا فيها بعد ذلك التجريد ما يملأ النفس عجباً بل دهشة .

وامتدّ مرسى بغداد أميالاً وحوى مئات السفن ومن بينها السفن الحربية ومراكب اللهو والسفن الصينية والاطواف وهي قِرَبٌ يُنفخ فيها ويُشدّ بعضها إلى بعض كهيئة السطح ، وتشابه الأطواف المعروفة في عصرنا هذا السائرة بين الموصل وبغداد ، وكان يردُ إلى أسواق المدينة الخَزَفُ والحرير والمسك من الصين ، والطيوب والمعادن والأصباغ من الهند وأرخبيل ملَقّة ، والياقوت واللازَورْد والمنسوجات والارِقّاء من أراضي الترك في آسيا الوسطى ، والعسل والشمع والفراء والعبيد البيض من اسوج ونروج وروسيا ، والعاج والتبر والعبيدالسود من شرق افريقيا . وقد أفردت لبضائع الصين سوق خاصة بها . وكانت الامصار تُرسل محصولاتها سواء بحراً أو براً في القوافل : فيردُ الارز والحبوب والكتّان من مصر ، والزجاج والادوات المعدنية والفواكه من الشام ، والقماش الحريري والمقصّب واللؤلؤ والاسلحة من جزيرة العرب ، والحرير والعطر والبقل من فارس .

وقد قام التجار العرب بتصدير المنسوجات والجواهر والمرايا المعدنية والخَرَز الزجاجي والطيوب وغير ذلك من بغداد ومراكز التصدير الأخرى إلى أنحاء الشرق الأقصى وأوروبا وافريقيا . وتشهد النقود المسكوكة التي وُجدت طائفة كبيرة

منها في روسيا وفنلندا واسوج والمانيا على اتساع نطاق تجارة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها سواء في هذه الحقبة أم في الحقب المتأخرة من تاريخهم . وليست حكايات السندباد البحري التي هي من أمتع قصص «الف ليلة وليلة» إلاّ أخباراً ذات أساس واقعي لسفرات قام بها أهل التجارة من المسلمين . ولقد لعب التجار دوراً هاماً في حياة بغداد . فكان لكل تجارة أو صناعة سوق خاص بها كما هو الحال اليوم . ولم يكن يغيّر من اطراد الحياة في السوق إلاّ مرور مواكب الأعراس أو المحتفلين بختان .

وبدأ أصحاب المهَن من أطباء ومحامين ومعلمين وكتّاب وغيرهم يشغلون مراكز هامة في المجتمع . وقد أبقى لنا ابن خلّكان صورة مصغّرة لاعمال احد هؤلاء اليومية وهو الطبيب السرياني حُنين بن اسحق عميد المترجمين من اليونانية . فنحن نراه في كل يوم ، بعد فراغه من ركوب الخيل ، يدخل الحمام فيَصُبّ على جسده الماء ثم يخرج فيلتفّ في قطيفة ويشرب قدح شراب ويأكل كعكة ويتكيء حتى ينشف عرقه ، وينام . ثم يقوم ويتبخّر ويُقدّم له طعامه ، وهو فرّوج كبير مسمّن ورغيف وزنه مئتا درهم فيحسو المرق ويأكل من الفرّوج والخبز وينام ، فاذا انتبه شرب اربعة أرطال شراباً عتيقاً ، فاذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامي والسفرجل .

واشتهرت هذه الحقبة في القصص التاريخية والخيالية لأسباب منها بذخ الحياة فيها وزهوها . ولكن السبب الأهم انه ظهرت

فيها أعظم يقظة فكرية في الاسلام أو قل إحدى الحركات الفكرية والثقافية العظيمة في العالم بأسره . وترجع هذه اليقظة في معظم أسبابها إلى موثرات خارجية بعضها هنديّ أو فارسي أو سرياني وأكثرها يوناني . وهي يقظة تعاظمت فيها حركة النقل إلى العربية من الفارسية والسنسكريتية والسريانية واليونانية لأن العربي المسلم لم يكن لديه الشيء الوفير من العلم والفلسفة والأدب . ولكنه كان يمتاز بذكاء طبيعي ، وبقوىً عقلية دفينة ، وبرغبة في الاطلاع على الجديد . فأصبح بعد وقت قصير وريث حضارة الشعوب العريقة في القِدَم التي تغلّب عليها أو احتكّ بها . فلما جاء الشامَ استمدّ منها حضارتها الآرامية التي كانت قد تأثرت بمدنيّة اليونان . أما في العراق فاستمد حضارتها الآرامية التي كانت قد تأثرت بمدنية الفرس . ولم يمضِ على تأسيس بغداد ثلاثة أرباع قرن حتى أصبح في حوزة العرب فيها أهم كتب ارسطو الفلسفية ، ونخبة من كتب الشروح لأهل الفلسفة الافلاطونية الجديدة ، ومعظم كتب جالينوس الطبية ، وطائفة من الكتب العلمية من فارسية وهندية . ففي عشرات السنين تسنّى للعرب الوقوف على آثار علمية فلسفية كان اليونان قد أنفقوا القرون في انشائها . ولا شك في ان الاسلام خسر الكثير من طابعه الأصلي باستمداده هذا من الحضارتين الفارسية واليونانية إذ كان طابعهُ صحراوياً عليه مسحة العصبية العربية ، فصار الآن يشغل مركزاً هاماً في ثقافة العصور الوسطى التي ربطت جنوبي أوروبا بالشرق الأدنى .

وهذه الثقافة تغذّت من مجرى واحد ترجع أصوله إلى مصر القديمة وبابل وفينيقية واليهودية . وعرّج هذا المجرى على بلاد اليونان فرجع منها إلى الشرق الأدنى بشكل الحضارة اليونانية . وسوف نرى فيما بعد كيف اتجه هذا المجرى الثقافيّ صوب أوروبا عن طريق العرب في اسبانيا وصقليّة حتى أدى إلى عصر النهضة الأوروبية الحديثة .

وكانت الهند من أقدم مصادر الفكر وخصوصاً في الحكمة والأدب والرياضيات . فحوالى سنة ٧٧٣ قدم رحّالة هندي بغدادَ ومعه رسالة في الفلك . فأمر الخليفة بترجمتها فترجمها الفَزاري إلى العربية . أما عناية العرب بالنجوم فترجع إلى عهود البادية . ولكن الاهتمام العلمي بها لم يظهر حتى هذا الزمن . ولقد ولّد الاسلام حافزاً جديداً لدرس علم الفلك وهو الرغبة في تعيين جهة القبلة بالضبط . ثم جاء الخوارزمي المشهور (المتوفى عام ٨٥٠) فوضع جداوله الفلكية المعروفة استناداً إلى كتاب الفَزاري فجمع ما بلغهُ اليونان والهنود في هذا العلم ووحّدهُ وزاد عليه أموراً جديدة . ويعود فضل إدخال الأرقام إلى العالم الاسلامي إلى ذلك الرحّالة الهندي نفسه . فانه حمل معه رسالة في الرياضيات حوَت تلك الارقام التي تُعرف في أوروبا بالعربية ، وفي البلاد العربية بالهندية . وعقب ذلك أمدّ الهنود علمَ الرياضيات العربي في القرن التاسع بقانون الكسورالعشرية .

أما التراث الفكري اليوناني فكان بلا شك أثمن ما حواه الهلال الخصيب عند الفتح العربي . فجاءت الثقافة اليونانية أشدّ

العوامل الاجنبية تأثيراً في الحياة العربية . وقد بلغ هذا التأثير أوجَهُ في أيام المأمون وذلك لما كان لهذا الخليفة من النزعات الفكرية الحرة . ولمّا كان يعتقد كالمعتزلة بوجوب الاتفاق بين الكتب المنزلة وبين أحكام العقل انصرف إلى فلسفة اليونان رغبة منه في الاطّلاع فيها على ما يؤيّد آراءه . وفي سنة ٨٣٠ انشأ بيت الحكمة في بغداد وهو عبارة عن خزانة كتب ودار علم ومكتب ترجمة . فكان هذا المعهد ، من وجوه عدّة ، أعظمَ المعاهد الثقافية التي نشأت بعد المتحف الاسكندري الذي ظهر في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد . وقبل تأسيس بيت الحكمة كان بعض النصارى واليهود والمستحدثين من معتنقي الاسلام قد قاموا بتراجم متفرقة من تلقاء أنفسهم .أما الآن ، في أيام المأمون وخلفائه ، فتمركزت الترجمة في هذا المعهد الجديد . ولقد دام عصر الترجمة هذا ما يقرب من قرن ابتداءً من سنة ٧٥٠ . ولما كانت الاراميّة (السريانية) لغة معظم المترجمين فقد نُقل كثير من الكتب اليونانية اليها أولاً قبل صوغها في العربية .

بيدَ ان الناقلين إلى العربية لم يتعرّضوا للأدب اليوناني . ولم يكن هنالك من تماسٍّ بين العقلية العربية وبين درامة اليونان أو شعرهم أو تاريخهم . فبقيت السيادة في هذه الميادين للمؤثرات الفارسية . على ان نقطة البدء في خوض غمار التراث الفكري كانت الفلسفة اليونانية التي وضعها أفلاطون وأرسطو وتوسع فيها رجال الفلسفة الافلاطونية الجديدة .

وكان شيخ المترجمين حُنين بن اسحق (٨٠٩ — ٨٧٣) وهو أحد أعاظم العلماء وأنبل بني عصره خُلقاً . وكان عِبادياً ، والعِباد هم قوم من النساطرة أقاموا بظاهر الحِيْرة . وفي حداثته خدم الطبيب يوحنا بن ماسَوَيه بصفة صيدلي . وغضب عليه يوحنا يوماً فقال له : « ما لأهل الحيرة والطب ؟ عليك ببيع الفلوس في الطريق ! » فخرج حُنين باكياً وعزم على درس اللغة اليونانية . ومن الترجمات التي تُعزى إلى حُنين ترجمة كُتب لجالينوس وأبقراط ودِيقوريدس فضلاً عن كتاب السياسة (الجمهورية) لأفلاطون والمَقُولات والطبيعيات والخُلقيات لارسطو . وتُعَدّ أهمّ مجهوداته ترجمته لجميع مؤلفات جالينوس العلمية تقريباً إلى اللغة السريانية فالعربية . وقد فُقدت لجالينوس كُتب سبعة في علم التشريح في أصلها اليوناني إلا انها لحسن الحظّ محفوظة في اللغة العربية . أما ترجمة حنين للعهد القديم من الترجمة اليونانية السبعينية فقد فُقدت .

ومما يَشهد لحُنين بالبراعة في الترجمة ما رُوي من انه هو ومن معه من النَّقَلة كانوا يُرزَقون حوالى خمسمائة دينار في الشهر ، وان المأمون كان يعطيه من الذهب زِنَةَ ما ينقله من الكتُب . على انه لم يبلغ ذروة مجده كناقل بل كطبيب لما جعله الخليفة المتوكل طبيبه الخاص . ثم ان المتوكل حبسه في بعض القلاع سنة كاملة لأنه امتنع عن وصف دواء للخليفة يقتل به عدواً . ثم أحضره وأعاد عليه القول وأحضر سيفاً ونطعاً فقال حُنين « قد قلت لأمير المؤمنين ما فيه الكفاية » . قال الخليفة

« فاني اقتلك » . قال « لي ربّ يأخذ لي حقي غداً في الموقف الأعظم » . فتبسم المتوكل وقال له « طِبْ نفساً فاننا اردنا امتحانك » . ثم سأله « ما الذي منعك من الاجابة مع ما رأيتهُ من صدق الأمر منا ؟ » . فأجابه حُنين « شيئان هما الدين والصناعة ، أما الدين فانه يأمرنا باصطناع الجميل مع أعدائنا فكيف ظنك بالاصدقاء . وأما الصناعة فانها موضوعة لنفع أبناء الجنس ومقصورة على معالجتهم ، ومع هذا فقد جُعل في رقاب الاطباء عهدٌ مؤكّد بأيمان مُغلظة ان لا يُعطوا دواءً قتالاً لأحد . » ويقول مؤرّخ فرنسي حديث ان حُنيناً كان أعظم شخصية في القرن التاسع .

ولم يكد عصر الترجمة ينصرم حتى كانت مؤلفات أرسطو الموجودة ، وكثير منها منسوب اليه خطأ ، قد أصبحت في متناول القارئ العربي . كلّ هذا وأوروبا لا علم لها بالافكار والعلوم اليونانية . وبينا كان الرشيد والمأمون يتبحران في الفلسفة اليونانية والفارسية كان أمثالهما في الغرب كشرلمان ونبلائه يحاولون اتقان الكتابة البسيطة . ولم تلبث مؤلفات ارسطو في علم البيان والمنطق وعلم الشعر وكتاب الايساغوجي لبُرْفيروس ان تسنّمت مركزاً عالياً إلى جانب الصرف والنحو كمتون للعلوم الانسانية في الاسلام ، ولا تزال تحافظ على مقامها هذا حتى اليوم . واعتنق المسلمون عقيدة المدرسة الافلاطونية الجديدة القائلة بأن تعاليم ارسطو وافلاطون هي واحدة أساساً . وتجلّت مؤثرات الافلاطونية الجديدة في الصوفية إلى حدّ كبير .

وتطرّقت الفلسفة الارسطية والافلاطونية إلى الآداب اللاتينية عن طريق مؤلفات ابن سينا وابن رُشد فأنارت عقول فلاسفة المسيحيين في العصور الوسطى كما سنرى .

وتبعَ دور الترجمة هذا بما كان فيه من انتاج دورٌ آخر هو الابتكار والابتداع ، وسنتطرّق اليه في فصل آخر من هذا الكتاب . فلم يأتِ القرن العاشر حتى تحوّلت اللغة العربية ، تلك اللغة التي استعملتها الجاهلية اداةً للشعر فقط وعرفها المسلمون بعد محمد في الأصل لغة للوحي والدين ، نقول تحوّلت إلى لغة جديدة عجيبة دقيقة البنيان سهلة المنال تُطاوع رغبة المرء في التعبير عن الفكر العلمي والافصاح عن الآراء الفلسفية ذات التعقيد . وفي الوقت نفسهِ أصبحت لغة السياسة والتخاطب الأدبي من آسيا الوسطى إلى شمالي افريقيا فالأندلس . ومنذ ذلك الحين وأهل العراق وسورية ولبنان وفلسطين ومصر وتونس والجزائر ومراكش يُفصحون عن أسمى أفكارهم باللسان العربي .

مناحي حياة العامة

قصر مؤرخو العرب اهتمامهم على مشاكل دار الخلافة ،وعلى قيام السلالات الملكية وسقوطها وما اتصل بذلك من حوادث دموية معقّدة ، وعلى القوّاد والوزراء ورجال السياسة يومئذ وما أصابوا من انتصارات وما أصابهم من نكبات . لهذا لم يتركوا لنا صورة جليّة عن حياة العامة الاجتماعية و الاقتصادية . غير انه يمكننا ان نستخلص صورة تعيننا على الألمام بهذه الحياة من وجهتيها الاجتماعية والاقتصادية من فقرات وَرَدت عرضاً مبعثرة في كُتُبهم ومن بعض مصادر أدبية وخصوصاً من درس الحياة العادية اليوم في الشرق الاسلامي الذي لم يتغير كثيراً عما كان عليه في الماضي .

تمتّعت المرأة في القرن التاسع بقسط وافر من الحرية يعادل قسط المرأة التي سبقتها . ولكن في آخر القرن العاشر أصبحت

أحكام الحجاب وعزل المرأة التام عن الرجال معمولاً بها دونما هوادة . ولم تكن نسوة الطبقة العليا في أوائل العصر العبّاسي الوحيدات اللواتي كان لهنّ شأن وتأثير بليغ في سياسة الدولة بل كانت الفتيات العاديات يخرجن إلى الحرب ويتولّين قيادة الجيوش وينظمن الشعر ويناظرن الرجال في الحرفَ الأدبية ، وطالما أتحفن المجالس بالنكات والموسيقى والغناء .

وفي حقبة الانحطاط كثر التسرّي والانغماس في الملذّات وسقط مستوى الآداب الجنسية . فانحطّت منزلة المرأة إلى أسفل الدركات التي تجد وصفها في « الف ليلة وليلة » وصارت تُعتبر مثال المكر والدّسيسة ومستودع الأفكار الرديئة والميول السّافلة .

واعتُبِرَ الزواج في الاسلام بوجه العموم واجباً محتماً فمن أهمله استحقّ اللّوم . وعُدّ الأولاد ولا سيما الذكور منهم هبةً من الله تعالى . أما الزوجة فاقتصر واجبها على خدمة بعلها والعناية بصغارها وتدبير شؤون منزلها . وما بقي عندها من فراغ فللغزل والحياكة .

ويظهر ان المثل العُليا للجمال النسائي عند العرب الاقدمين ، كما يُستدل على ذلك من تعابير الغزل والتشبيب الواردة في منظومات شعرائهم ، لم تتغير كثيراً . وقد أفرد النّوَيريّ جانباً ضافياً من مؤلّفه « نهاية الأرب في فنون الأدب » للأقوال المعروفة في جمال أعضاء المرأة . فقدود الغواني تُستحَبّ فيها قامة الخيزران . ومحيّاها أفضلهُ ما كان كالبدر استدارةً .

وشعرها أجوده ما حاكى الليل سواداً . واللّون أحبّه البياض مع حمرة في الخدّين ، وخال كحبّة عنبر في صحن مرمر . وقد عشقوا في المقلتين السواد الشديد دون أثر الكحل . والكبيرة منها شبّهوها بعيون المهى ، والجفن شبّبوا به ناعساً سقيماً ، والمبسم صغيراً ترتبت الاسنان فيه كعقد اللؤلؤ في مرجانه ، والنهدان كرمانتين والخصران مرتبطان بردفين ثقيلين . والأصابع ارادوها مستدقّة الأطراف مصبوغة بالحناء .

وكان الديوان أهمّ قطع الأثاث في هذا الزمن وهو كناية عن أريكة للجلوس تمتدّ بحذاء ثلاثة جوانب من الغرفة . وكانت المقاعد المرتفعة على شكل الكراسي قد اتخذت في الدولة السابقة إلا ان المساند الملقاة على « طرّاحات » مربعة موضوعة على الأرض يجلس عليها المرء القُرفُصاءَ مرتاحاً لا تزال رائجةً إلى يومنا هذا . وكانت أرض الغرفة تُغطّى بالطنافس المنسوجة باليد . وكان الطعام يُقدّم في أطباق نحاس واسعة مدوّرة على موائد واطئة أمام الدّواوين أو على الأرض مقابل الوسائد . وفي منازل الأغنياء كانت الاطباق تُصنع من الفضة . والأخوِنة من الخشب المغشّى بالابنوس واللؤلؤ أو الصدف على طراز المصنوع اليوم في دمشق . هذا هو الشعب العربي نفسه الذي كان سابقاً في شظف العيش وخشونته يفاخر بأكل العِلْهز (وبر الابل مطبوخاً بالدم) والذي حسب أبناؤه الارز لأول وهلة سُماً وظنوا المرّقق من الخبز رقاعاً للكتابة . هذا الشعب تهيأت له الآن أسباب الحضارة فهذّبت شهوته للطعام المريء وجعلته يستطيب لذائذ

المدنيّة فصار يأكل من طعام الفرس السِّكباج (وهو مرق يُعمل من اللحم والخلّ) والفالوذج (وهو حلواء) ، وأصبح دجاجهُ يُعلف الجوزَ المقشر واللوز ويُسقى الحليب. وصارت منازله في الصيف تُبرّد بالثلج ومُرَطّباته قِوامها الماء يُذاب فيه السكّر ويُعطّر بماء البنفسج والموز والورد أو بعصير التوت. أما القهوة فلم ينتشر استعمالها حتّى القرن الخامس عشر ، وكذلك التبغ فلم يُعرف قبل اكتشاف العالم الجديد . ونجد في « كتاب المُوَشّى » للوشاء من أدباء القرن العاشر وصفاً للرجل الظريف الأديب في ذلك العصر . فالظريف كان يتحلى بالأدب الجمّ والمروءة والكياسة ، يترفّع عن المزاح ، ويعاشر أهل الصّلاح ، يكره الكذب ويفضّل الصدق ، ويفي بالمواعيد، ويكتم السرّ ، ويرتدي الثياب النظيفة الّتي لا رُقَع فيها . وهو إذا جلس على المائدة جعل لُقَمَهُ صغيرة ، فلا يُكثر من الضحك والكلام ، ولا يُسرع في مضغ الطعام ، ولا يلعق أصابعه ، وهو يتجنب الثوم والبصل ، ويتحاشى استعمال مسواك الاسنان في الخلاء والحمّام والمحافل العامة وعلى قارعة الطريق .

ولقد أسرف الناس في الشراب سرّاً وعلناً . ويُستدَلّ من قصص الدعاية والمجون في « الاغاني » و « الف ليلة وليلة » وسواهما من كُتب الأدب والشعر ومن الخمريات الّتي نظمها الشاعر أبو نواس ان تحريم الخمر الذي شدّد عليه الاسلام لم يُلاقِ نجاحاً أكثر مما لاقى قانون تحريم المسكرات في الولايات المتحدة فقد شرب الخمرَ الخلفاء والوزراء والامراء والقضاة غيرَ

مبالين بتحريمه في الدين . وكان أحبّ الخمور عند القوم المصنوع من عصير التمر .

وكان لمعاقرة بنت الحان حلقات تُسمى « مجالس الشرب » يأنس اليها القوم . فكان المضيف وضيوفه يُعطّرون لحياهم بالمسك أو ماء الورد ويرتدون أثواباً خاصة للمنادمة زاهية الالوان ، وارجاءالغرفة تتضوّع فيهارائحة العنبر والندّالمشتعل. وكانت أكثر المغنيات اللواتي يحضرن هذه المجالس من السبايا الخليعات كما تشهد بذلك القصص الكثيرة . فكنّ أكبر بليّة على اخلاق فتيان ذلك العصر . وتوصلت عامة الشعب إلى الخمر في الاديرة ، وفي حانات خاصة كان يديرها على الغالب يهود . وكانت تجارة الخمر على الجملة في أيدي النصارى واليهود .

« النظافة من الايمان » حديث نبوي لا يزال شائعاً على الالسن في البلدان الاسلامية . ولم يكن في الجزيرة العربية حمامات فيما نعلم قبل محمد الذي قيل عنه انه استنكرها ولم يسمح لاحد بدخولها إلا للنظافة وعلى شرط ان يكونمتزراً.أما في هذا العصر الذي نلمّ به فقد كثرت الحمامات العمومية وراج ارتيادها ليس للوضوء فقط بل للهو والترف أيضاً . وأجيز للنساء دخولها في أيام معينة . وقد فاخرت بغداد في أوائل القرن العاشر بسبعةوعشرين الفاً من هذه الحمامات اليومية ، وكانت في زمن آخر ستين الفاً . وهذان الرقمان وسواهما من الارقام التي نجدها في المصادر العربية لا ريب مبالغ فيها. أما الرحالةالمغربي ابن بطوطة الذي زار بغداد سنة ١٣٢٧ فانه شاهد في الجانب الغربي من المدينة

ثلاث عشرة محلة ، كل محلة فيها حمامان أو ثلاثة من أبدع الحمامات مجهزةً بالماء الحار والبارد .

وكانت الحمامات يومئذٍ مثلها اليوم تحتوي خلواتٍ كثيرة مرصوفة بالفسيفساء مُطلى نصّف حائطها مما يلي الارضَ بالقار والنصف الآخر الأعلى بالجصّ الابيض الناصع ، ومبنيّة حول ردهة واسعة عليها قبّة فيها ثقوب للنور . وفي كل خلوة حوض من الرخام فيه انبوبان للماء الحار والبارد . أما الغُرَف الخارجية فتُصطنع للاتكاء والاستراحة ولتناول المشروبات والاطعمة الخفيفة .

والالعاب الرياضية ، كالفنون الجميلة ، كانت في كل العصور من ميزات المدنية الأوروبية الهندية أكثر ممّا هي في السامية . فابن الصحراء العربية اعتبر الرياضة الجسمية في حدّ ذاتها امراً سقيماً يتطلّب جهداً لا يتلاءَم مع حرّ الشمس الذي يتعرّض له في نهاره . ومن الالعاب الرياضية التي تعاطاها العربي في الخلاء الرماية والجوكان (لفظة فارسية معناها عصا معقوفة وهو «البولو») والصولجان ولعب السيف والترس والجريد وسباق الخيل ، والصيد وهو أهمّها جميعاً . ومن المزايا التي وجب أن تتوفر في النّدماء المهارةُ في الرماية والصيد ولعب الكُرة والشطرنج . وفي كل هذه الألعاب لم يكن من حَرَج على النديم فيما إذا ساوى سيده . ومن الخلفاء المغرمين بالجوكان المعتصم . وقد جعلَ يوماً الافشينَ قائدَه التركي في جهة وأقامهو في جهة فاستعفى الافشين قائلاً : « لا أرى أن أكون على أمير المؤمنين في جدّ ولا هزل »

وهنالك اشارات إلى لعبة الطبْطاب وهي خشبة عريضة يُلعب بها ولعلّها لعبة « التنس » في شكلهـا البدائي . والراجح ان اشتقاق اسم هذه اللعبة يرجع إلى بلدة تنّيس في الدلتا من أعمال مصر التي اشتهرت في العصور الوسطى بصنع القماش المعروف بهذا الاسم .

وإنما يدلنا على اهتمام العرب بهذه الضروب من اللهو ما نجدهُ من كتب قديمة تبحث في موضوعات الصيد ونصب الشراك وترويض الصقور . وقد دخلت تربية الصقور والبواشق واستعمالها للصيد إلى الجزيرة عن طريق فارس كما تشير الالفاظ المستعملة لها . وشاعت على التخصيص في أواخر هذه الخلافة وفي عصر الحروب الصليبية . ولا يزال الناس في فارس والعراق وسورية والجزيرة يصطادون بالباز والباشق على الطريقة الموصوفة في « الف ليلة وليلة » . وعلى الصياد المسلم أن يبادر إلى ذبح فريسته قبل موتها وإلا حرّم عليه أكلها .

وكان الخليفة مع أفراد أسرته على رأس أصحاب المكانة الاجتماعية ، يتلوهم كبار الموظفين ومن لاذ بهاتين الفئتين من ضباط وحرس وأصدقاء مقربين وندماء وموالٍ وخدم .

وكان أكثر الخدم من الشعوب غير المسلمة يؤخذون قسراً أو يؤسرون في الحرب أو يشتَرَوْنَ في السلم وفيهم الزنجي والتركي وآخرون من البيض . وكان معظم العبيد البيض من اليونان والصقالبة والسلاف والارمن والبربر ومنهم الخصيان المُلحقون بالحريم خداماً . أما الغلمان وفيهم الخصيان أيضاً

فكانوا موضوع عناية خاصة من أسيادهم الذين ألبسوهم حللاً جميلة على طراز واحد وجعلوهم يتزيّنون ويتطيّبون إلى درجة التخنّث . وإذا كانت بعض الكتب قد أشارت إلى وجود الغلمان في عهد الرشيد فالراجح ان الامين كان أول من انشأ نظام الغلمان في العالم العربي لغاية اللواط اقتداءً بالفرس . ولقد عاش في زمن المأمون قاضٍ افتُضح باللواط فجاهر باربعمائة غلام مُرْد حسان الوجوه كانوا له . ولم يستنكف الشعراء كأبي نواس من النظم في المُرْد ومدح اللواط والمجاهرة بميولهم الجنسية الشاذة .

واتخذ سراة القوم الجواريَ من طبقة الأرقّاء مغنّيات وراقصات وسراري . وكان لبعضهنّ تأثير محسوس في سادتهن من الخلفاء كذات الخال التي اشتراها الرشيد بسبعين الف درهم ثم هاجته الغَيْرة ذات يوم فوهبها أحدَ وصفائه . وعلق الرشيد جاريةً أخرى فأهدتْه زوجُهُ زبيدة عشر جوار لتُبعده عنها ، فولدت له إحداهن المأمون وأخرى المعتصم . وكانت بعض هذه الجواري من المثقّفات الرّاسخة أقدامهن في العلم والأدب . وتروي قصة خرافية في « الف ليلة وليلة » أن الرشيد عرض مائة الف دينار ثمناً لتودّد الجارية الجميلة الموهوبة بعد ان اجتازت بتفوّق امتحاناً صعباً وضعه العلماء في الطبّ والفقه والفلك والفلسفة والموسيقى والرياضيات فضلاً عن علوم المعاني والبيان والنحو والشعر والتاريخ والقرآن . ويُعرف عن الامين انه نظّم كتائب من الجواري الحسان فقصّ شعورهن وألبسهن ثياب الغلمان

وكسا رؤوسهن بالعمائم الحريرية فسُمِّين الغُلاميّات . وقد راجت سوق هذه البدعة بين الخاصة والعامة من الناس . روى شاهد عيان انه دخل يوماً على المأمون في أحد آحاد الشعانين فرأى بين يديه عشرين وصيفة يونانية متزينات بالديباج يرقصن وفي أعناقهن صُلبان الذهب وفي أيديهن أغصان الزيتون وسَعَف النخل حتى إذا انتهت هذه الحفلة الراقصة أمر الخليفة بأن توزع عليهن ثلاثة آلاف دينار .

وتقول بعض المصادر انه كان للمتوكل اربعة آلاف سُرية شاطرن فراشه وهو قول يصعب تصديقه . وجرت بين العمال والقوّاد عادة اهداء الخليفة أو الوزير هدايا تشتمل على الفتيات اللواتي يأخذونهن من الرعية وإلاّ حسب الخليفة تخلّفهم عن ذلك علامة العصيان .

وكانت عامة الناس مؤلفة من طبقة عالية لها بعض مزايا الارستقراطية وفيها الادباء والعلماء والفنانون والتجار والصنّاع وأهل المهن الحرّة ، وطبقة سُفلى مؤلفة من سواد الشعب وهم الفلاحون ورُعاة المواشي وأهل الريف وهؤلاء أهل البلاد الأصليون الذين أصبحوا الآن أهل الذمة . ثم ان اتساع نطاق الامبراطورية وما وصلت اليه من علوّ في المدنية قضى بنشوء تجارة عالمية واسعة تقلّد زعامتها الباكرة النصارى واليهود وأتباع زرادشت ، ليعود المسلمون بعدُ فيتفوّقوا فيها ، إذ انهم لم يزدروا التجارة بقدر ازدرائهم الزراعة . وما لبثت أن أصبحت مرافىء بغداد والبصرة وسيراف والقاهرة والاسكندرية

مراكز نشيطة للتجارة البرية والبحرية .

وقد توغّل التجار المسلمون شرقاً حتّى الصين فاستجلبوا الحرير الصيني الفاخر ، وهو أقدم ما أتحف به الصينيون العالمَ الغربي . وقد سلكت هذه التجارة طريقاً عُرفت بـ « طريق الحرير العظيمة » مارّة بسمرقند وتركستان الصينية التي قلّ من يطرقها من المسافرين والسيّاح حتّى اليوم . وكانت هذه البضائع تُنقل مرحلةً فمرحلة . وقلّ من القوافل ما قطع هذه المسافة كلها دون تبديل في الرّواحل . وبفضل هذه التجارة توغّل الاسلام في الجزر التي تألّف منها عام ١٩٤٩ الولايات الاندونيسية التي يزيد عدد سكانها المسلمين على ثمانين مليوناً ويقرب من عدد سكان باكستان التي تعتبر أعظم بلد اسلامي عدداً .

وبلغت تجارة الاسلام مراكش واسبانيا غرباً . وقد فكر الرشيد بحفر قناة السويس قبل ده لَسَبس بألف سنة . ولكن العرب لم يبرّزوا في ميدان تجارة البحر المتوسط ولم تنل تجارتهم على شواطئ البحر الاسود فلاحاً ، مع ان القرن العاشر شهد لهم تجارة نشيطة في أنحاء الفولغا شمالاً . وكانت تجارتهم على شواطئ بحر قزوين نشيطة جداً لقربها من الاوساط الفارسية ومدن سمرقند وبخارى العامرة وغيرها من المدن الداخلية الآهلة بالسكان . وكان التجار المسلمون يحملون التمور والسكر والقطن والمنسوجات الصوفية والأدوات الفولاذية والاواني الزجاجية ثم يعودون ومعهم أمتعة كثيرة من التوابل والكافور والحرير

من أقاصي آسيا ، والعاج والابنوس والرقيق الاسود من افريقيا .

أما بعض الثروات في ذلك العصر فكانت لا تقل عن ثروات ملوك المال في عصرنا هذا . ولا أدل على ذلك من حكاية ابن الجصاص الجوهري ببغداد إذ ظل له من الثروة بعد أن صادر الخليفة المقتدر أملاكه ستة عشر مليون دينار ، وهو أول مُثْرٍ في أسرة اشتهرت بعده بتجارة الجواهر . وكان الدخل الفردي لبعض تجار البصرة الذين نَقَلَت بواخرهم البضائعَ إلى الاصقاع النائية يُنيف على مليون درهم . واشتهر في بغداد والبصرة تاجر أمي صاحب مطاحن بتصدّقه اليومي على الفقراء بمبلغ مئة دينار . وكان التاجر العادي في سيراف ينفق على داره أكثر من عشرة آلاف دينار في حين ينفق غيره من التجار ثلاثين الفاً . وأثرى الكثيرون من تجار البحر فبلغت ثروة الواحد منهم اربعةَ ملايين دينار .

ولولا الاهتمام بالصناعة الوطنية والوزراعة لما بلغ التوسع التجاري هذا المدى . فازدهرت في كثير من أنحاء الامبراطورية صناعة اليد ، وانحصرت في آسيا الغربية صناعات حياكة السجاد والقطن والصوف والأطلس والاقمشة المطرزة والارائك وأغطية المساند وغيرها من قطع الرياش وأواني الطعام. واشتهرت أنوال الحياكة في فارس والعراق بصنع البُسُط والمنسوجات الفاخرة. وكان لأمّ الخليفة المستعين سجادة صُنعت خصيصاً لها انفقاتها مئة وثلاثون مليون درهم ، وعليها صور مختلفة فيها الطيور الذهبية

ذات العيون من الياقوت وسواه من الاحجار الكريمة . وكان في بغداد حيّ يدعى بالعتّابي نسبةً إلى أمير أمويّ كان من قاطنيه . فأصبح النسيج المخطط المصنوع فيه والذي ظهر لأول مرة في القرن الثاني عشر يُعرف بذلك الاسم « العتابي » . ثم أخذ عرب الأندلس في تقليد حياكته حتّى اشتهرت لفظة « تابي » في فرنسا وايطاليا وسواهما من أقطار أوروبا إلى أن دخلت اللغة الانكليزية التي تُطلق فيها هذه اللفظة على القطط المخططة الجلد . وأنتجت الكوفة المناديل الحريرية لباساً للرأس وهي المعروفة ليومنا هذا بالكوفية . وكان في تُستَر والسوس بخوزِستان (سوزيانا القديمة) معامل عديدة شهيرة بزركشة الدمَقْس (وهو نسيج صنع أصلاً في دمشق) الموشى بالذهب والستائر المصنوعة من الخز . أما منسوجاتهم المصنوعة من وبر الابل والمعزى والأردية المصنوعة من الحرير المغزول فقد كانت كثيرة الانتشار . وأصدرت شيراز العباءات الصوفية المخططة والأقمشة الناعمة الشفافة والمنسوجات المقصبة . وكانت سيدات العصور الوسطى الأوروبيات يبتعن من الأسواق الحرير الفارسي المعروف بالتافته (وهي كلمة فارسية) .

أما زجاج صور وصيدا وغيرهما من مدن الشام فقد ضُرب المثل برقته وصفائه . ولقد تحدرت صناعة الزجاج هذه من الفينيقيين الذين برعوا بها وكانوا أقدم من تعاطاها بعد المصريين . وتعرّف الأوروبيون إلى هذا الزجاج عن طريق الحملات الصليبية فأصبح مثالاً لصنع الزجاج الملوّن الذي كانوا يزينون

به كنائسهم . وشاعت الأواني الزجاجية الملونة من صنع الشام حتى صارت من لوازم المنزل والرفاهية ، فكثر الطلب عليها في البلدان العربية .

ومما يسترعي النظر ان صناعة ورق الكتابة دخلت البلدان العربية في أواسط القرن الثامن من الصين عن طريق سمرقند . وكان ورق سمرقند التي استولى عليها المسلمون عام ٧٠٤ منقطع النظير بجودته . وقبل اختتام ذلك القرن شاهدت بغداد أول معمل للورق ثم تلته تدريجياً معامل أخرى . وظهر أول معمل للورق في مصر حوالى سنة ٩٠٠ أو قبل ذلك ، وفي مراكش سنة ١١٠٠ ، وفي اسبانيا حوالى سنة ١١٥٠ . ثم ظهرت ضروب مختلفة من الورق منها الابيض والملون . ووصلت صناعة الورق إلى أوروبا المسيحية خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر عن طريق الاندلس وايطاليا . وكان للورق أهميته الكبرى لا سيما عندما اخترعت الطباعة بالحروف المتحركة بين عامي ١٤٥٠ و ١٤٥٥ إذ سهل الاثنان انتشار العلم والتهذيب العام انتشاراً لا تزال أوروبا واميركا تتمتعان إلى اليوم بحسناته .

وانتعشت الزراعة في دور العباسيين الأوائل انتعاشاً محسوساً لأن عاصمتهم بغداد قامت في بقعة خصبة من السواد ، ولأنهم أدركوا ان الفلاحة تدر على الدولة أهم موارد الدخل ، ولأن حراثة الأرض وجني خيراتها كان معظمه في أيدي أهل البلاد الأصليين الذين كانت قد تحسنت حالتهم نوعاً ما في عهد المسلمين . وعاود العمران المزارع المهجورة والقرى الخربة في

أنحاء الامبراطورية . وقد وجهت الحكومة المركزية عناية خاصة إلى القسم الأسفل من وادي دجلة والفرات ، وهو بعد وادي النيل أكثر البلاد خصباً حتّى اعتبرته التقاليد البقعة التي قامت فيها جنة عدن . وقد شقت للماء أقنية من الفرات تألفت منها شبكة متسعة . أما ما يقوله جغرافيو العرب عن حفر الخلفاء للأقنية أو فتحهم للانهار فلا يؤخذ به بحرفه لأن أكثر الأقنية التي ذكروها إنما كانت أقنية اعاد الخلفاء حفرها ، أو فتحها ويرجع عهدها إلى زمن البابليين القدماء . وقد انحصر الأمر في العراق كما في مصر في حفظ الاقنية الراجعة إلى عهد البابليين والفراعنة . ولما عهدت الحكومة العثمانية إلى السير وليم ولكوكس قبيل الحرب العالمية الأولى درس مسائل الري في العراق أشار في تقريره بتنظيف مجاري المياه القديمة وترميمها لا بشق مجار جديدة . ويجب ان لا يفوتنا هنا ان سطح الأرض في السواد قد تغير كثيراً منذ أيام العباسيين ، كما ان دجلة والفرات قد تحول مجراهما عما كان عليه مراراً .

ومعظم الاشجار المثمرة والبقول التي تنبت اليوم في آسيا الغربية كانت معروفة لذلك العهد باستثناء التبغ والبطاطس والطماطم وسواها من المزروعات التي دخلت البلدان العربية في العصور الحديثة من العالم الجديد وبعض المستعمرات الأوروبية النائية . أما شجرة البرتقال فكان منبتها الأصلي ، كالأترج والليمون الحامض ، في شمالي الهند أو ملقة ، ومنها امتدت الى آسيا الغربية والبلدان المحيطة بحوض البحر المتوسط ، ثم دخلت

أوروبا عن طريق العرب في الاندلس . وفي هذا العصر ظهرت مزارع قصب السكر ومعامل تصفيتها المشهورة في ساحل الشام على طراز المعروف منها في الجهة الجنوبية الغربية من فارس . ومن الشام أخذ الصليبيون قصب السكر وأدخلوه مع السكر إلى أوروبا . وهكذا تدرجت بطريقها إلى أوروبا هذه السلعة الطيبة التي قد يرجع أصلها إلى مقاطعة البنغال في الهند ، فأصبحت من العناصر التي لا يُستغنى عنها في مآكل الانسان المتمدن اليومية .

وكان دخل الدولة الرئيسي من طبقة الفلاحين،وهم أكثرية الشعب وأهل البلاد الأصليون ، وقد عُرفوا بأهل الذمة لأنهم كانوا قد دخلوا في عهد الاسلام . أما العربي فاستنكف عن تعاطي الزراعة وحسبها دون مقامه . وكان أهل الكتاب في بادئ الأمر ، وهم المعروفون بأهل الذمة ، يشملون النصارى واليهود والصابئة ثم ألحق بهم أتباع مذاهب أخرى . وأقام الذميون في أريافهم ومزارعهم متمسكين بثقافاتهم الخاصة القديمة ومحافظين على لغاتهم الأصلية . وقد احترم المسلمون على وجه العموم وضع أهل الذمة هذا على الرغم مما عانوه في بعض الحقب من الاضطهاد الديني .

أما في المدن فقد تقلد النصارى واليهود مناصب سامية في دوائر الحكومة من مالية وكتابية وغيرها من المهن . فأثار هذا غيرة المسلمين وحسدهم مما أدى إلى سن شرائع تميز بين المسلم والذمي . إلا ان هذه الشرائع بقيت « حبراً على ورق » ولم تُنفذ إلا في بعض الاحايين .

وكان عمر الثاني الخليفة الاموي المتدين أول من أمر النصارى واليهود أن يرتدوا ألبسة تميزهم من المسلمين ، وحرمهم مناصبَ الدولة . والظاهر ان هذه الأحكام لم يُعمل بها بعده ، إلى أن جاءَ هرون الرشيد فأمر بتنفيذ بعضها . وقد بلغت المراسيم المتخذة ضد أهل الذمة أشدها في زمن المتوكل الذي أمر في سنة ٨٥٠ و ٨٥٤ أن يضع النصارى واليهود على أبواب دورهم صور شياطين من خشب تفريقاً لمنازلهم عن منازل المسلمين ، وان يجعلوا قبورهم لا تعلو عن سطح الأرض كي لا تشبه قبور المسلمين ، وأن يلبسوا الطيالسة (جمع طيلسان) العسلية وان يلصقوا رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالفٌ لونهما لون الثوب الظاهر على أن تكون احداهما بين يدي المملوك عند صدره والأخرى على ظهره . ولم يرخّص لهم بركوب غير البغال والحمير وباتخاذ السروج من الخشب وبتصبير كُرَتين على مؤخر السروج . وقد أطلق على الواحد من أهل الذمة لقب « الأرقط » اعتباراً لهذا اللباس الذي أمِروا باتخاذه . ومن أشد أنواع الحيف التي أنزلت بالذميين ذلك المرسوم الذي أفتى به متشرّعو الاسلام في هذه الحقبة وهو أن شهادة النصراني واليهودي لا تقوم على مسلم ، مستندين إلى ما جاء في القرآن من أن اليهود والنصارى حرفوا الاسفار المنزلة ولهذا لا يمكن الوثوق بهم . ولكن النصارى على الرغم من هذه القيود تمتعوا في ظل الخلافة بقسط وافر من الحرية . ويشهد على ذلك ما تذكره المدونات من مناظرات بين دعاة النصرانية وبين دعاة

الاسلام في حضرة بعض الخلفاء من الامويين والعباسيين ومن تقلّد بعض النصارى كرسي الوزارة في النصف الثاني من القرن التاسع . وكان كبار الموظفين من النصارى ينالون ما يناله زملاؤهم المسلمون من الاكرام والتبجيل . فنحن نقرأ مثلاً ان بعض المسلمين اعترض على تقبيل أيديهم . ومما يسترعي النظر والاعجاب ان النصرانية حازت في ظل الخلفاء من النشاط والحيوية قدراً كافياً أهاب بكنيستها إلى التوسع وارسال المبشرين إلى أمصار بعيدة كالهند والصين . ولم يزل في مالابار بجوار مدراس إلى اليوم كنيسة مسيحية تنتسب إلى مار توما وترجع أصولها إلى هذا العهد . وفي سيان فو من أعمال الصين أثرٌ حجريٌ نصب عام ٧٨١ يحمل اسماء ستة وسبعين مبشراً من الكنيسة السريانية .

ولقي اليهود ، وهم ممن دخلوا في عهد الاسلام ، من حسن صنيع المسلمين فوق ما لقيه النصارى على الرغم مما جاء في بعض الآيات القرآنية من التنديد بهم . وكان منهم في أزمنة عدد من الخلفاء غير واحد تبوأ اسمى المناصب في الدولة كما كان لهم في بغداد نفسِها مستعمرة كبيرة ظلت مزدهرة إلى ان سقطت هذه المدينة في يد المغول . ويروي بنيامين التطيلي الذي زارها سنة ١١٧٠ انه وجد فيها عشر مدارس للحاخامين وثلاثة وعشرين كنيساً أهمها كنيسٌ مزدان بضروب الرخام ومجمل بالذهب والفضة . وأفاض هذا الرحالة في وصف الاحترام الذي أصابه رئيس الحاخامين من المسلمين الذين اعتبروه سليل النبي

داود ورئيس الملة اليهودية . وكان هذا الرئيس إذا خرج للمثول في مجلس الخليفة ارتدى الملابس الحريرية المطرزة وعمامة بيضاء تشع بالجواهر ، وأحاط بـه رهطٌ من الفرسان وسار أمامه ساعٍ يصيح بأعلى صوته « افسحوا درباً لسيدنا ابن داود » .

هذه هي صورة مصغرة لحياة الناس في عهد الخلافةوعلاقتهم بعضهم ببعض . وها نحن على عتبة المرحلة الثالثة في سلسلة الفتوحات العربية . كانت المرحلة الأولى هي المرحلةَ الحربية السياسية ، وكانت المرحلة الثانية هي المرحلة الدينية التي ابتدأت في القرن الأول من حكم العباسيين واعتنق خلالها السواد من سكان الامبراطورية الدين الاسلامي . أما المرحلة الثالثة التي سنبحثها في الفصول التالية فتمثل فوزَ اللغة العربية على لغات الشعوب المغلوبة . إلا أن هذه المرحلة كانت أبطأ المراحل إذ أبدت فيها الشعوب المغلوبة أشد مقاومة ، مما يدل على انه اسهل على الناس التخلي عن كيانهم السياسي وعن دياناتهم إذا لزم الأمر من التخلي عن لغاتهم .

والواقع انه تسنى للعربية الانتصار كلغةِ علمٍ قبل أن تسنى لها الانتصار كلغة تخاطبٍ . ولقد لاحظنا في الفصل السابق كيف تسربت مجاري التفكير في الثقافات اليونانية والفارسية والهندية إلى بغداد في القرن التاسع فجاءت أساساً لظهور ثقافة جديدة . وبهذا أصبحت اللغة العربية أداة للتعبير عن المدنية العربية فكان ذلك بدء العصر الثقافي الذهبي في الاسلام .

العلوم والآداب

وصلنا الآن إلى الحقبة التي أصبحت فيها اللغة العربية أداة للتعبير عن العلوم المستجدة كالطب والفلك والكيمياء والجغرافية والرياضيات فضلاً عن الفلسفة والتاريخ والأخلاق والأدب . ولقد ابتدأت هذه الحقبة في النصف الثاني من القرن التاسع على اثر عصر الترجمة الذي دام نحو قرن (٧٥٠ – ٨٥٠) ، فجاءت طافحة بأعلام العلم والادب الذين نفحوا المدنية بالشيء الكثير من مبتكراتهم والذين لا يعرف الناس اليوم منهم إلا نفراً معدودين .

لم يكتفِ العرب بالنقل والتقليد بل تعدوهما إلى التكييف والتجديد . فهم لم يقنعوا باستيعاب تراث فارس الفني وتراث اليونان العلمي على ما كانا عليه بل حوروا التراثين بموجب حاجاتهم الخاصة وطرق تفكيرهم . وبعد أن طبعوا ما ترجموه

بطابع العقلية العربية في خلال قرون عدة انتهى أخيراً مع ما ابتكروه إلى أوروبا ، عن طريق سورية واسبانيا وصقلية ، فصار أساس العرفان الذي دان له الفكر الأوروبي في القرون الوسطى . على ان نقل الأفكار والعلوم ليس في تاريخ الثقافة بأحط مقاماً من الابتكار . فلو أن أبحاث ارسطو وجالينوس وبطليموس فُقدت لافتقر العالم اليها وكأنها لم تكن قط . ويتعذر في غالب الأحيان وضع حد فاصل بين المترجم والمبتكر فمن المترجمين من كان مترجماً ومبتكراً في وقت معاً .

وكانت أهم مبتكرات العرب في الطب والفلسفة والفلك والرياضيات والجغرافية والكيمياء، فضلاً عن التاريخ والشرع والأدب . واهتمام العرب بعلم الشفاء يدل عليه الحديث النبوي المشهور : « العلم علمان علم الأديان وعلم الابدان » . وقد جمع الطبيب العربي إلى علمه بالطب المعرفة بما وراء الطبيعة وأصول الفلسفة والحكمة . وخطا العرب في هذا العصر خطوات واسعة في الاستدواء بشتى العقاقير . فهم أول مَن أوجد حوانيتَ لبيع الأدوية ، وأقدمُ من أسس مدرسة للصيدلة ، وصنّف في الاقراباذين رسائل . وكان يُفرض على الصيادلة والأطباء منذ زمن المأمون والمعتصم اجتياز امتحان خاص . وعلى إثر سوء تصرّف جرى من احد الاطباء أوعز الخليفة المقتدر عام ٩٣١ إلى سنان بن ثابت بن قُرّة ، وهو طبيب مشهور ، أن يمتحن كل الاطباء ويعطي الأجازات الطبية لمن توفرت فيهم الأهلية فقط . فاجتاز الامتحان في بغداد ما ينيف على ثمانمائة وستين ،

وبذلك تخلصت العاصمة من الدجالين . ومما يدل على العناية بصحة أهل الريف ما أمر به عليّ بن عيسى الوزير في عهد المقتدر من ارسال بعثات من الأطباء تحمل الأدوية وتطوف أنحاء البلاد تعالج المرضى والمعوزين . وكانت بعثة من الاطباء تتفقد السجون يومياً . فمن هذه الحقائق يظهر لنا اهتمام أولياء الأمر بالصحة العامة وهو أمرٌ لم يكن معروفاً في باقي أقطار العالم آنذاك . وفي مطلع القرن التاسع أسس هرون الرشيد أول مستشفى في الاسلام على الطِراز الفارسي . ولم يطل الوقت حتى نشأ في العالم الاسلامي مستشفيات أخرى بلغ عددهااربعةوثلاثين ولقد شاهدت القاهرة أول مستشفياتها في أيام ابن طولون حوالي عام ٨٧٢ فبقي إلى القرن الخامس عشر .أما المستوصفاتالسيارة فقد ظهرت أولاً في القرن الحادي عشر . وكانت في المستشفيات الاسلامية أجنحة خاصةبالنساء، وكان لكل مستشفى مستوصف مخصوص به . وكانت بعضها مجهّزة بمكتبات وتقوم بتدريس بعض الموضوعات الطبية .

وأشهر المؤلفين في الطب الذين ظهروا على إثر عصر الترجمة رجال فارسيو القومية عربيو اللغة . ولاثنين منهم ، هماالرازي وابن سينا ، اسمان تزدان بهما القاعة الكبرى في مدرسة الطب في باريس .

ولعلّ الرازي (٨٦٥ — ٩٢٥) أعظم الأطباء وأشدهم ابتكاراً وأكثرهم إنتاجاً ليس في الاسلام فقط بل في القرون الوسطى قاطبةً . ومما يُروى أن الخليفة استشاره في الموضع الذي

يجب أن يُبنى فيه مستشفى بغدادالعظيم الذي كانهو رئيس الطبابة فيه . فأمر ان يعلّق في كل ناحية من جانبي بغداد شقة لحم ثم اعتبر الناحية التي لم يتغيّر ولم ينتن فيهااللحم بسرعة فأشار بأن يُبنى المستشفى فيها . وإلى الرازي ينسب اختراع الفتيلة في الجراحة . ومن أهمّ ما وضعه في الكيمياء « كتاب الاسرار » الذي تداولته فيما بعد أيدي محررين عديدين . ولقد نقله إلى اللاتينية جرارد الكرْمُوني Gerard of Cremona فظلّ مرجعاً رئيسياً لعلم الكيمياء حتى القرن الرابع عشر . واقتبس منه الفيلسوف الانكليزي المعروف روجر باكون Bacon .
أما رسائله فأشهرها رسالته في « الجُدَري والحصبة » وهي أقدم ما كتب في هذا الموضوع ، وتُعدّ تحفةً في علم الطب عند العرب . ولقد نشرها الدكتور فانديك في بيروت عام ١٨٧٢ .
بيد أن أشهر مؤلفاته على الاطلاق « الحاوي » وهو كتاب جامع نقله إلى اللاتينية فرج بن سالم الاسرائيلي سنة ١٢٧٩ برعاية ملك صقلّية . وقد طبعَت هذه الترجمة مرات أولها عام ١٤٨٦ في حين ظهرت طبعتها الخامسة في البندقية عام ١٥٤٢ . والكتاب كما يدل اسمه موسوعة طبية حوَت خلاصة ما كان في حوزة العرب من المعارف المستقاة من المصادر اليونانية والفارسية والهندية مع ما جاء به العرب أنفسهم من الابتكارات الخاصة الطريفة .
ولقد ظلت مؤلفات الرازي هذه ـ التي طبعت باللاتينية لما كانت صناعة الطباعة لا تزال في بدء عهدها ـ تسيطر على عقول اللاتين في الغرب قروناً عديدة .

وأشهر الأطباء العرب بعد الرازي ابن سينا ، وقد امتاز بمواهب باهرة فبرع في الطب والفلسفة والشعر والفقه . وألف كتباً ورسائل كثيرة في هذه العلوم وغيرها . ويقال إن مؤلفاته ورسائله بلغت تسعةً وتسعين . أما مؤلفه الجليل « القانون في الطب » فقد كان موسوعة جامعة احتلت مقاماً سامياً في آداب ذلك العصر الطبية وأصبحت كتاباً مدرسياً تعتمد عليه دور العلم في أوروبا . وفي الثلاثين السنة الاخيرة من القرن الخامس عشر صدر « القانون » في خمس عشرة طبعة لاتينية وطبعة عبرانية واحدة . ولقد نُقل بعضه حديثاً إلى اللغة الانكليزية . ومما يدل على سعة محتويات « القانون » ان قسماً منه يبحث في نحو سبعمائة وستين من العقاقير والأدوية . فلا عجب إذا أدرك هذا الكتاب تلك المنزلة التي أصبح فيها دليل طلاب العلوم الطبية في المشرق والمغرب حتى القرن السابع عشر . ولا يزال الناس في الشرق الاسلامي يستعينون به أحياناً .

وأول عمل خطير قام به العرب في علم الفلسفة هو التوفيق بين فلسفة اليونان والفكر الاسلامي . والفلسفة عند العرب هي معرفة مسببات الأمور كما هي على قدر ما تستطيع الوصول إلى تحقيقه قوى الانسان العاقلة . وهذه النظرة الفلسفية يونانية في جوهرها أخذها العرب بعد أن كانت قد تحورت بمؤثرات الشعوب المغلوبة وسواها من الشعوب الشرقية . فطبقوها على ميول الاسلام العقلية ونشروها عن طريق اللغة العربية . وحسب العرب ان مؤلفات ارسطو حوت مجمل التراث الفلسفي اليوناني

كما حوت مؤلفات جالينوس مجمل تراث اليونان الطبي . واعتقدوا ان القرآن وعلم الألهيات الاسلامي حَوَيا مجمل الشرع والاختبار الديني . فشحذوا اذهانهم وأعملوها في الهامش المشترك بين الفلسفة وعلوم الدين وبين الفلسفة والطب ، فاتحفوا العالم بمبتكرات قيمة . ومما يخلد مجد الاسلام في القرون الوسطى ان اتباعه كانوا أول من نجح في تاريخ الفكر البشري في التوفيق بين فكرة التوحيد — الاعتقاد بالـه واحد وهو اسمى ما جاد به العالم السامي القديم — وبين الفلسفة اليونانية التي كانت اسمى ما جاد به العالم الهندي الأوروبي القديم . وبذلك أرشد الاسلام أوروبا المسيحية إلى النظرة الحديثة في العلم والدين .

وكان العلم في العصور المتوسطة ، ولا سيما في العالم الاسلامي ، اقل تجزئة واختصاصاً مما هو عليه اليوم . فالفيلسوف مثلاً ربما كان رياضياً وموسيقياً أيضاً والفلكي قد يكون شاعراً . ولعل القارىء الذي يعهد عمر الخيام مؤلف الرباعيات شاعراً فارسياً ومفكراً حراً يذهل إذا سمع ان عمر كان رياضياً بارعاً وفلكياً ممتازاً . والكِنْدي الفيلسوف العربي المشهور لم يكن فيلسوفاً فقط بل كان عالماً بالتنجيم والكيمياء والبَصريات وأصول الموسيقى أيضاً. وقد سعى ، شأن أصحاب الفلسفة الافلاطونية الجديدة ، إلى مزج آراء افلاطون وارسطو والتوفيق بينهما وحسِبَ الرياضيات التي خلفتها مدرسة فيثاغورس المتأخرة أساس العلم على الاطلاق وقد نُسب إلى الكندي ما لا يقل عن ٢٦٥ كتاباً أكثرها مفقود . ومن كتبه التي انتشرت في

الشرق والغرب مؤلفه الفريد في علم البصريات وهو يستند إلى مؤلف اقليدس في هذا العلم . وكان ممن تأثر بهذا الكتاب روجر باكون . ويستدل من رسائل الكندي في الموسيقى ان العرب عرفوا الأوزان الغنائية والقياسات الموسيقية قبلما عرفتها أوروبا المسيحية بقرون .

وبدأت دراسة الفلك العلمية في الاسلام تحت تأثير كتاب هندي (السِّنْد هِنْد) أتى أحدهم به إلى بغداد في عام ١٧٧١. وفي مطلع القرن التاسع تمت أول أرصاد منظمة استخدمت فيها آلات دقيقة الضبط صُنعت في جنديسابور (من أعمال فارس الجنوبية الغربية) . وقُبيل منتصف هذا القرن شاد الخليفة المأمون مرصداً في بغداد وآخر في ضواحي دمشق .وقد تجهزت المراصد في تلك الأيام بآلات منها مقياس الارتفاع والأسطرلاب وساعة شمسية (مِزْوَلة) وكرَة . ولقد أجرى فلكيو الخليفة المأمون عمليةً من أدق العمليات الجغرافية وهي قياس طول الدرجة الأرضية ، ورموا بذلك إلى تحديد حجم الارض ومحيطها على افتراض ان الأرض مدورة . والقياس الذي أجروه في سهل سنجار شمالي الفرات وكذلك بالقرب من تدمر أدى إلى نتيجة جعلت درجة الطول ستة وخمسين ميلاً عربياً وثلثي الميل وهو رقم لا يزيد على الرقم الصحيح بسوى ٢,٨٧٧ قدماً .

وكان على رأس العلماء الفلكيين الذين ساهموا في هذه العملية الخوارزْمي ، وهو من أشهر رجال العلم في الاسلام ، وقد ترك أثراً بليغاً في الفكر الرياضي لم يتركه غيرهُ في العصور

الوسطى . وفضلاً عما قام بـه من جمع تقويم فلكي (زِيْج) وتنسيقه فقد أنشأ أقدم كتاب في الحساب وآخر في الجبر «حساب الجبر والمقابلة » وكلاهما منقول إلى اللاتينية . ولقد بقي مؤلفه هذا في الجبر كتاباً مدرسياً رئيسياً للرياضيات في جامعات أوروبا حتى القرن السادس عشر . وبواسطته تطرّقت إلى أوروبا مبادئ علم الجبر ومعه اسم هذا العِلم الذي اقتبسته كل اللغات الأوروبية عن العربية . وإلى مصنّفات الخوارزمي أيضاً يعود الفضل في نقل الارقام العربية (التي يسميها العرب الارقام الهندية دلالة على الاصل الذي اتخذوها منه) إلى الغرب .

وكان أعظم ما أسداه العربُ إلى العلم بعد الطب والفلك والرياضيات مآثرهم في علم الكيمياء الذي لم يزل يحتفظ باسمه العربي في جميع اللغات الأوروبية . ففي دراسة الكيمياء وسواها من العلوم الطبيعية أدخل العرب التجربة الموضوعية ، وهي خطوة تحسينٍ راهنٍ على تأملات اليونان الغامضة . إلا انهم على الرغم من اقتدارهم على ملاحظة المظاهر العلمية وجدّهم في جمع الحقائق وجدوا صعوبة في رسم النظريات السديدة واستخراج النتائج العلمية المحققة ، فكان هذا أضعفَ المواطن في طرق تفكيرهم .

وكان ابو الكيمياء العربية جابر بن حَيّان الذي لمع نجمه في الكوفة حوال ٧٧٦ . وقد وجه جابر اهتمامه إلى ما شُغِل بـه اسلافه في العلم من مصريين ويونان وهو حُسْبان ان المعادن السفلى مثل الحديد والنحاس يمكن تحويلها إلى ذهبٍ أو فضة

بواسطة مادة عجيبة جعل البحث عنها أمنيّته الكبرى . ولجابر الفضل في أنه أول الكيماويين الذين نادوا بأهمية البحث التجريبي وفي انه خطا خطوات واسعة في سبيل التقدم الكيماوي من وجهتيه النظرية والعملية . وتنسب اليه الروايات الغربية التقليدية الكشف عن عدة مركّبات كيماوية لم تذكرها المصنّفات العربية الاثنان والعشرون الباقية من المؤلفات المنسوبة اليه . والظاهر ان أكثر الكتب المائة التي تحمل اسمه في اللغتين العربية واللاتينية ملفق . ومهما يكن الأمر فهذه الكتب المنسوبة اليه أصبحت بعد القرن الرابع عشر أشد كتب الكيمياء تأثيراً في أوروبا وآسيا . ومن المؤكد ان بعض أبحاثه العلمية تناولت التكليس (تحويل المعدن إلى مسحوق أو رماد بواسطة الاحتراق) والتصفية . ولقد حسّن جابر في أساليب التبخّر والتصعد والتصهير والتبلور. وعرف طريقة تحضير الحامض الكبريتي العَكِر وحامض النيتريك العَكِر وعوّل على إخراج الماء الملكي (حامض نيترو هيدو كلوريك) من خليطهما الذي يمكن إذابة الذهب والفضة فيه . وعلى العموم فانه عدّل نظرية ارسطو في بسائط تركيب المعدن على أساس لم تُدخل عليه تغييرات كثيرة إلى أوائل عصر الكيمياء الحديث في القرن الثامن عشر .

ومما أهاب بالعرب إلى دراسة الجغرافية حوافز دينية . منها فريضة الحج وتوجيه القِبلة نحو مكة في بناء المساجد وضرورة تعيين القِبلة بالضبط كي يولي العابد عند الصلاة وجهه شطر الكعبة . كما ان علم التنجيم الذي يتطلب تعيين خطوط الطول

والعرض لكل موضع في الأرض حدا بأربابه على الاعتناء بالجغرافية . ثم ان تجار الاسلام كانوا قد بلغوا بين القرن السابع والتاسع الصينَ في الشرق براً وبحراً ، وانتهوا إلى جزيرة زنجبار وأقاصي شواطئ افريقيا جنوباً وتوغلوا في روسيا شمالاً ، ولم تصدهم في أسفارهم غرباً إلا أمواج « بحر الظلمات » الاتلانتيكي. فكان للاخبار التي عادوا بها تأثيرها في إثارة اهتمام القوم للاطلاع على اسرار البلدان القصية والشعوب الغريبة . ونُقلت «جغرافية» بطليموس إلى العربية مراراً من اليونانية مباشرة ومن الترجمات السريانية . وعليها اعتمد الخوارزمي الذائع الصيت في رسم خريطة دعاها « صورة الأرض » ساهم في رسمها تسعة وستون عالماً . وهي أول خريطة في الاسلام تُظهر السماوات والارضين . وكان أول جغرافيي العرب قد أخذوا عن الهند فكرة القول بأن للعالمين مركزاً اسموه أرين تحريفاً لكلمة أوجيني (اوزيني في جغرافية بطليموس) وهو اسم بلدة هندية قام فيها مرصد فلكي على خط طول قالوا ان قبة الأرض فيه ، وان أرين هذا إنما هو على خط الاستواء بين طرفي الشرق والغرب ومما اعتقدوه ان قمة خط الطول في الغرب إنما هي على بعد تسعين درجة من هذه القبة الوهمية . واعتاد جغرافيو الاسلام عامة قياس خط الطول ابتداء من خط الطول الأول الذي عمل به بطليموس ، وموقعه في الجزائر المعروفة اليوم بجزائر الكناري .

وكما اعتمد كتّاب العرب على أصول الفلسفة والطب عند اليونان كذلك اعتمدوا على الاصول الفارسية في التاريخ والانشاء

الأدبي . أما أساليب التعبير فلم تخرج عن طريقة رواية الحديث الاسلامي . بمعنى ان كل حادثة كانت تُروى بلسان المحدثين من شهود العيان والمعاصرين ثم يتناقلها الحفاظ إلى ان تصل إلى راويها الاخير وهو المؤلف الذي يذكر سلسلة الأسانيد كلها . ولقد ساعد هذا على ضبط الحوادث وتعيين تواريخها بالشهر واليوم . إلا ان مبلغ صحة الرواية كلها يقوم عندهم على مواصلة الأسانيد وعدم انقطاعها والثقة برواتها أكثر مما يقوم على نقد الواقعة ذاتها وتمحيصها . نعم ان المؤرخين تخيروا الثقات ورتبوا المدلولات غير ان اهتمامهم بتحليل هذه المدلولات ونقدها ومعارضتها وتمحيصها كان قليلاً .

ومع ان مؤرخي العرب ألفوا كثيراً في أحداث ذلك الزمن فان فُضلى معالجتهم التاريخية انحصرت في الحديث أو علم التقاليد الدينية . وفي خلال القرنين والنصف التي عقبت وفاة محمد ازدادت الأقوال والاعمال المنسوبة إلى النبي فتضخم المجموع منها وغزرت مادته . وكان كلما نشب خلاف في الاسلام بين فريق وفريق ، سواء أكان دينياً أم سياسياً أم اجتماعياً ، حاول كل من الفريقين أن يؤيد دعواه بكلمة قالها النبيّ أو حكم أصدره صحيحةً كانت هذه الكلمة (أو هذا الحكم) أم ملفقة .

ولكلّ حديث قسمان : الاسناد والمتن . والمتن يتلو الاسناد ويتخذ شكل الاقتباس الحرفي : « حدثني فلان قال حدثنا فلان عن فلان عن فلان الخ قال ... » . وهذه الصيغة نفسها درَج

عليها المؤلفون في كتابة التاريخ والادب . وفي كل هذه الموضوعات كان النقد عادةً سطحياً مقصوراً على التثبت من صدق الرواة .

ولم يكن في القرون الوسطى بعد الرومان أحدٌ غير العرب عُنِيَ بعلم الشريعة فأنشأ لها نظاماً مستقلاً . والفقه عندهم مبني في الدرجة الأولى على القرآن والسُنة (أي الحديث) ولا شك في انه تأثر بالنظام اليوناني الروماني . وبواسطة الفقه اتصلت الشريعة ، أي أوامر الله المنزّلة في القرآن الموضّحة في الحديث ، بالاجيال اللاحقة .

وفروض الشريعة الاسلامية تنظم للمسلم حياته من وجهاتها الدينية والسياسية والاجتماعية وتحدد علاقاته الزوجية والمدنية وشؤونه مع غير المسلمين . كذلك أدب السلوك يستمد التصديق والنهي من لدن الشريعة التي تقسم أعمال الانسان إلى خمسة ضروب هي (١) الفرض أي ما أوجبه الله بدليل قطعي يُجزى فاعله خيراً ويُعذب تاركه . (٢) المستَحب مما يجزى فعله ولا يلام تركه . (٣) الجائز المباح . (٤) المكروه الذي يُستَنْكَر ولو لم يعذب صاحبه . (٥) الحرام الذي يعذب فاعله .

والمؤلفات في علم الاخلاق المبنية على القرآن والحديث ، وان كثرت ، لا تستنفد كل ما في الآداب العربية مما يعنى بهذا العلم (الاخلاق) . وكانت هذه الفلسفات الاخلاقية جميعاً تحبذ فضائل معينة كالزهد في الدنيا والقناعة والتحمل، وتحسب

الرذائل عللاً نفسية بحيث يتطلع الفرد المسلم إلى فيلسوف الاخلاق تطلعه إلى طبيب الجسم . أمـا ترتيب هذه العلل فقد قام على تحليل القوى النفسية وإخراج ما لكل قوة من فضيلة أو رذيلة خاصة بها .

أما أدب اللغة العربية بمعناه الضيق فقد بلغ أوجه حوالى العام الألف للميلاد . وإذْ قد تأثر بالأدب الفارسي مال إلى التعمل والتأنق . وهكذا زال الايجاز والاقتصاد اللفظي وبساطة العبارة التي اتصف بها أدب العصور الأولى وحل محلها أسلوب الزخرفة والأناقة والتبسط في المجاز والأقبال على السجع . ومن أدب هذه الحقبة انتقى الغرب كتاباً واحداً أولاه اهتمامه هو كتاب « الف ليلة وليلة » وأصله قصص فارسية قديمـة نقلها إلى العربيـة الجَهْشِياري المتوفى عام ٩٤٢ . إلاّ ان القصاصين المتعاقبين أضافوا اليه قصصاً أخرى كثيرة . كما أضافوا اسم بطلة هـذه الروايات « شهرزاد » . وعلى تعاقب الاجيال الحقت بهذه المجموعة حكايات كثيرة جديدة من مصادر لا تحصى — هندية ويونانية وعبرانية ومصرية وشرقية مختلفة الصفات والالوان . وتطرّق اليها أيضاً نوادر ونكات وغراميات من بلاط هرون الرشيد . بيد ان المجموعة التامة لهذه القصص ، وهي المتداولة اليوم ، لم تتخذ شكلها الحاضر حتّى القرن الرابع عشر. والواقع ان الاقبال على هذا الكتاب هو في الغرب أكثر منه في الشرق .

وفي الوقت الذي وضع فيه كتاب « الف ليلة وليلة » في شكله العربي الناجز كان عصر الاسلام الذهبي في العلم والأدب

قد انقضى . ولم يقم العرب بعد العصر العباسي بتقدم ملحوظ في
اىما علم طبيعي . ولو اقتصر مسلمو عصرنا الحاضر على المؤلفات
الاسلامية التي بين أيديهم لوجدوا أن ماعندهم منها أقل بكثير
مما كان عند اسلافهم في القرن الحادي عشر . فكأن العرب
وصلوا إلى حد معين في علوم الطب والفلسفة والرياضيات والنبات
وغيرها جمدت عنده قرائحهم ، وقعدوا منذ ذاك الحين لا يأتون
بشيء غير المفاخرة بالماضي وتقاليده ، سواء في الدين أو العلم ،
مما قيد الفكر العربي بقيود محكمة . بيد ان العرب بدأوا
يستيقظون في السنوات الأخيرة ويعملون على التفلت من هذه
القيود .

الفنون الجميلة

إن شأن العربي في الفنون الجميلة كشأن سائر الساميين له في فنه وشِعره عناية خاصة بالدقائق وتقدير ٌ للتفاصيل وإحاطة بما هو نفسي موضوعي ، ولكنه بعيد ٌ عن المقدرة على موازنة الأجزاء المختلفة وضبطها وتنظيمها في كيان واحد شامل .
وجهوده ُ في الفنون كجهوده في العلوم انتهت باكراً إلى حد من الارتقاء معلوم ، وذلك في القرن العاشر ، لم تتجاوزه فيما بعد باستثناء الهندسة المعمارية والتصوير والخط .

والعصر الأموي مُخلّد ٌ في بناءَين يعدّانِ من أبدع ما أبقاه الفن الاسلامي وهما المسجد الأموي في دمشق وقبة الصخرة في بيت المقدس . ولكن صروحِ الابنية الرائعة التي ازدانت بها بغداد في العهد العباسي لم يبقَ لها اليوم من اثر خلا القصر العباسي وبناية المدرسة المستنصرية التي شيدها الخليفة المستنصر

عام ١٢٣٤ وكانت مستودعاً للكمرك حتى عام ١٩٤٥ وفيها اليوم متحف للآثار . فالخراب الذي جرّته الحرب الأهلية بين الأمين والمأمون والتدمير الذي أنزله بالعاصمة المغول سنة ١٢٥٨ وعوامل الفناء الطبيعية قد محّت الاطلال والعمارات وأصبح من المتعذّر اليوم تعيين مواقع معظمها بالتأكيد .

أما في غير بغداد العاصمة فأطلال العباسيين لا يمكن إرجاع عهد أقدمها إلى ما قبل خلافة المتوكل (٨٤٧ — ٨٦١) باني الجامع العظيم في سامرّا الذي بلغت نفقته سبعمائة الف دينار ، وهو قائم الزوايا تدل قناطر شرفاته المتعددة على تأثير هندي . والآثار العبّاسية الباقية في الرقة (من أعمال سورية الشمالية) التي ترجع إلى آخر القرن الثامن ، وفي سامرّا تمتّ إلى التقليد الاسيوي بنسب ولا سيما هندسة البناءالفارسية ، بخلاف الأبنية الأموية التي تحمل آثار الفن البيزنطي السوري .

ولقد جاء التعليم القرآني شديد الاستنكار لمعاقرة الخمر ، بيد أنه لم يستأصل عادة الشراب في المجتمع الاسلامي. كذلك فأن عداوة الفقهاء لأنواع الفن التصويري لم تحل دون ارتقاء هذا الفن على أساليب اسلامية . وقد قدّمنا ان الخليفة المنصور أقام على قبة قصره تمثال فارس ربما كانت الغاية منه الاستدلال على جهات الريح . وكانت للخليفة الامين حرّاقات ، على دجلة في شكل الأسود والعقبان وفيلة الماء . وكان للخليفة المقتدر دار فسيحة ذات بساتين فيها شجرة وسط حوض ماء

لها ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة . وكانت تقوم على كل جانب من هذا الحوض تماثيلُ خمسة عشر فارساً يلبسون الحرير المدبّج ويتقلدون رماحاً تتحرّك على الاستمرار كأنهم في وطيس معركة حربية . أما الخليفة المعتصم باني سامرّا فقد زين جدران قصره بنقوش تظهر فيها أجسام نساء عارية ومشاهد للصيد لعلّها من عمل الفنانين النصارى . وفي عهد الخليفة الثاني ، المتوكل ، بلغت هذه العاصمة الموقتة أوج مجدها . وقد استخدم المتوكل فنّانين بيزنطيين لتزويق جدران قصره فلم يتورّع هؤلاء عن إضافة صور الكنائس والرهبان إلى هذه التزاويق .

إن الفنون الجميلة ، ومنها التصوير ، لم تستعمل في الديانة الاسلامية كما هي الحال في الديانتين المسيحية والبوذية . فالاسلام قلما استخدم النحت والتصوير لمصلحته . وأقدم رسم يمثل النبي شاهده أحد السياح العرب في بلاط أحد أمراء الصين ، ولعله كان من رسم النساطرة . فهذا التصوير الاسلامي الديني المحدود لم يظهر كاملاً حتى أوائل القرن الرابع عشر . والظاهر انه مشتق من فن الكنائس الشرقية ، وبالاخص اليعقوبية والنسطورية ، ومُتّبِعٌ نماذج الزخرفة في الكتب .

وبمساعي الفرس الذين كانوا منذ أقدم العصور سادة فن الزخرفة والتلوين بلغت فنون الأسلام الصناعية درجة راقية . فنمت حياكة السجاد ، وهي تعود بقدميتها إلى زمن الفراعنة ، وارتقت وخصّها المسلمون باظهار مشاهد الصيد والحدائق .

واستعملوا حجر الشب في الصباغ لتثبيت الألوان. وكـانت المنسوجات الحريرية المزخرفة من صنع أنوال المسلمين اليدوية في مصر والشام موضوعَ إقبال أوروبا حتى ان الصليبيين وغيرهم من أهل الغرب اختاروها دون سواها لحفظ آثار قديسيهم .

وفي صناعة الفخّار ، وهي فن آخر يرجع بقدميته إلى عصور مصر القديمة وعصور سوسا ، أعاد المسلمون ثانية تمثيل صور الجسد البشري والحيوانات والنباتات والاشكال الهندسية والكتابية فبلغ هذا الفن أعلى درجة في الجمال بين الفنون الاسلامية . والآجر القاشاني المزوّق بأنواع الزهور المألوف استعمالها دخل دمشق عن طريق فارس ، فذاع أمره وانتشر كما انتشر استعمال الفسيفساء في زخرفة الابنية من الداخل والخارج . وقد امتازت الحروف العربية بقابليتها للزخرفة فأصبحت عاملاً كبيراً في الفن الاسلامي . وأُتقن طلي الزجاج بالميناء وتغطيته بالذهب ولا سيما في انطاكية وحلب ودمشق وبعض المدن الفينيقية القديمة كصور . وفي خزائن متحف اللوفر والمتحف البريطاني والمتحف العربي في القاهرة قطع فنّية من سامرّا والفسطاط فيها الصحون والاقداح والمزهريات والاباريق والقناديل المستعملة في المنازل والمساجد مطلية طلياً زاهياً براقاً أو مصقولة بمواد معدنية بهيئة تماوج فيها ألوان قوس قُزَح .

وظهر فن الخط الذي يؤيده النص القرآني في القرن الهجري

الثاني أو الثالث . ولقد استمدّ هذا الفن مكانته من نزوع أربابه إلى تخليد كلام الله فأصبح فناً معززاً مرغوباً فيه . وهو فنّ اسلامي خالص ينشد فيه المسلم واسطة للتعبير عما انطبع عليه من تذوق الجمال الذي حُظر عليه التعبير عنه بواسطةالتصوير . وقد كان للخطاط مكانة وكرامة لم يتمتع بهما المصور حتى ان الحكام أنفسهم سعوا إلى الحظوة الدينية بواسطة نسخ القرآن . ولقد حفظت لنا كتب التاريخ والأدب العربية أسماء عدد من الخطاطين وأغدقت عليهم النعوت الطيبة بخلاف المهندسين المعماريين والمصورين وصنّاع الأواني المعدنية الذين سكتت هذه الكتب عن ذكرهم . ولعل فنّ الخط هو الفنّ العربي الوحيد الذي ظل مزدهراً إلى يومنا هذا ، وله ممثلون من مسيحيين ومسلمين في القسطنطينية والقاهرة وبيروت ودمشق جاءوا بمنتجات تفوق في جمالها وأناقتها أحسن ما أخرجه الاقدمون .

وفن الخط وغيره من فنون الزخرف والتلوين وصناعة تجليد الكتب اجمالاً يعود الفضل في نشوئها وازدهارها إلى علاقتها بكتاب الله. وقد وُلد فنّ زخرفة الكتب وتزيين المصاحف في عهد العباسيين وبلغ ذروته في القرن الخامس عشر .

ولم يحُل استنكار أهل الشرع لفنّ الموسيقى سواء أكان ذلك في دمشق أم بغداد دون انتشاره . وكان بلاط هرون الرشيد الزاهي شديد الاهتمام بهذا الفن،شأنه في العلم والأدب ، فاجتمعت في جوه كواكب الموسيقى المتألّقة . وقد زها في

كنفه نفر من أقطاب الموسيقى أجريت عليهم الأرزاق يساعدهم عدد كبير من الجواري والعبيد . وقد كان لهذه الفئة الراقية من أهل الفنّ آثار لامعة من النوادر والقصص المبالغ فيها مما تخلّده صفحات «الف ليلة وليلة» . وفي الاخبار انه اشترك في مهرجان موسيقيّ الفان من هؤلاء المغنين والمغنيات تحت رعاية الخليفة الرشيد . أما ابنه الأمين فقد أحيا مرةً ليلة لهو رقص فيها أهل البلاط ذكوراً واناثاً حتى مطلع الفجر .

ومن الذين خصّهم الرشيد برعايته المغني مُخارق الذي اشترته أول امره احدى المغنيات إذ سمعته ينادي بصوته القوي العذب على اللحم الذي كان يبيعه أبوه فأعجبت بصوته. ثم صار إلى حوزة الرشيد فاعتقه ووصله بمائة الف دينار وأدناه من مجلسه . ذكروا انه توسّط في إحدى الليالي دجلة واندفع يغني بأعلى صوته فما بقي أحد من سامعيه إلا بكى . وظهرت الشموع والسرج من جانبي دجلة في صحون القصور والدّور تتساعى بين أيدي أهلها يستمعون غناءه .

وكان مُخارق وسواه من أرباب فنّ الموسيقى في تلك الأيام السعيدة من ندماء الخلفاء الذين خُلدت أسماؤهم . فقد حبتهم الطبيعة فضلاً عن الفن سرعة الخاطر وقوة الذاكرة فاستظهروا الكثير مما رقّ من الاشعار ولذّ من النوادر والفكاهات . فهم إذاً مغنّون ونظّامون وشعراء ورجال علم على السواء. ويقع دون مرتبتهم الآلاتيّون الذين فضلوا العود على غيره ، ثم اولئك الذين استعملوا الرّباب . وتلت هؤلاء طبقة المغنيات

اللواتي لعبن أدوارهن في الخفاء وراء الستار فأصبحن من لوازم الزينة في بيوت الحريم ، وغدا لتربيتهن وتثقيفهن صناعة هامة رائجة . وقد ربّى أحدهم جارية حتّى برعت فجاءه رسول صاحب مصر فبذل فيها عشرة آلاف دينار . وساومه رسول امبراطور الروم عليها بثلاثين الفاً . ثم اوصلها رسول صاحب خراسان إلى اربعين الفاً ، فما كان من مولاها إلا أن أعتقها وتزوجها .

ومن الكتب الكثيرة التي نقلت في العصر العباسي الذهبي طائفة عُنيت بتاريخ الموسيقى النظرية . ومن هذه استمد الكتّاب العرب آراءهم العلمية الأولى في الموسيقى فنشأت لهم ثقافة قائمة بذاتها في مبادئ نظرية الصوت الطبيعية والفسيولوجية. أما من الناحية العملية فان نماذجها عربية بحتة . وفي هذه البرهة اقتبس العرب عن اليونان لفظة موسيقِي (وتُكتَب الآن موسيقى) فأطلقت على مناحي هذا العلم النظرية . وخُصِصت لفظة الغناء القديمة – وقد كانت إلى ذلك العهد تفيد الغناء والموسيقى – للفن العمَلي . أما لفظة « قيثار » و « أرغن » وغيرهما من التعابير الفنية فهي من أصل يوناني . والمعلوم ان الارغن جيء به من بلاد البيزنطيين .

ومما يؤسف له ان معظم هذه الرسائل الفنية فُقدت في لغتها الأصلية . والموسيقى العربية بعلاماتها وعُنصريها المكوّنين لها ، النغم والايقاع ، كانت تُنقل من جيل إلى جيل شفهياً إلى ان تلاشى أمرها . فالاغاني العربية فقيرة بالانغام غنية

بالايقاع . وليس بين ارباب الموسيقى العربية الحديثة مَنْ يستطيع شرح الكتب القليلة الباقية في موضوع الموسيقى الكلاسيكية شرحاً وافياً وتفهّم ما قصده السّلف بعلامات إيقاعهم أو تعابيرهم العلمية . وفي مقدمة هذه الكتب « كتاب الموسيقى الكبير » للفارابي التركي الاصل المتوفى بدمشق عام ٩٥٠ .

قرطبة جوهرة العالم

وفيما كان القسم الشرقي من الامبراطورية الاسلامية ينعم بعصره الذهبي كان القسم الغربي منها في الأندلس يتمتع بما لا يقل عن ذلك اشراقاً وقيمةً . وهذا العهد الأندلسي يهمنا لأن الثقافة العربية تقدمت في اسبانيا المسلمة تقدماً لا مثيل لـه وتخللت الثقافةَ المسيحية في أوائل العصور الوسطى . فكان من نتيجة ذلك النهضةُ الأوروبية الحديثة التي لم يزل أبناء الغرب ينعمون ببركاتها إلى اليوم . وقد ازدهرت المدنية الاسلامية في الغرب وبلغت ذروة مجدها ما بين القرن التاسع والحادي عشر . وعلينا قبل أن نسبر غور هذه المدنية ان نعود بقصتنا هذه إلى عام سبعمائة وخمسين .

في ذلك العام كما اشرنا آنفاً قضى العباسيون على الدولـة الاموية في دمشق . وما كاد يتربع هؤلاء في كرسي الخلافة

حتّى أخذوا يطاردون أعضاء البيت الأموي ويُعدمون كل من استطاعت أيديهم الوصول اليه .

وكان من الافراد القلائل الذين نجَوا بأرواحهم عبد الرحمن ابن معاوية حفيد هشام عاشر خلفاء دمشق . وكان عمره عشرين عاماً وهو شاب طويل القامة نحيف الجسم اقنى الانف بارزه خفيف العارضين أحمر الشعر يزدان بصفات الحزم والاقدام والطموح . تدرج بطريقه إلى اسبانيا متغلباً على الصعاب ، وحارب من فيهـا إلى ان أصبح سيدها المطاع . فاحتفظ هنالك بسلطة السلالة الاموية التي كان قد قضي عليها في الشرق.

وقصة نجاة عبد الرحمن من الموت تمثل دوراً روائياً رائعاً . كان في أحد الايام مختبئاً في مضرب خيام للبدو على ضفة الفرات وإذا بفوارس العباسيين يحملون الرايات السود ويقتربون من المكان ففرّ للحـال ورمى بنفسه إلى النهر واجتازه . أما أخوه وهو ابن ثلاثَ عشرة سنة فعجز في نصف الفرات عن السباحة وعاد إلى مُطارديه مغروراً بالأمان . فأمسكوه وقتـلوه وعبد الرحمن ينظر اليهم . ثم توارى في غيضةٍ حتّى انقطع عن النظر .

هام عبد الرحمن على وجهه متنكراً دون مال أو أصدقاء . وسار مترجلاً جنوباً إلى أن وصل فلسطين بعد صعوبات جمة . وهناك لحق به بدرٌ مولاه الوفي القدير فتوجه كلاهما غرباً حتّى وصلا شمالي افريقيا . وألحّ عامل افريقيا في طلبه فهرب منـه غريباً معدماً يتنقل مع بدر من قبيلة إلى أخرى وجواسيس الدولة

الجديدة تجدّ في طلبه إلى ان وصل سبتة بعد خمسة أعوام . وكان أخواله وهم من البربر يقيمون في تلك الانحاء. فلجأ اليهم فأحسنوا وفادته .

واتصل عبد الرحمن بالجيوش السورية المقيمة في الجهة الجنوبية من الاندلس عبر المضيق في الجهة المقابلة لسبتة ، فبايعوه بالزعامة . وسار على رأسهم متوغلاً في البلاد فأخذت المدن الواحدة بعد الاخرى تسقط في يديه . وثابر على الجهاد بضع سنوات قبل أن خضعت له اسبانيا المسلمة كلها .

وفي وطيس إحدى المعارك عَرَفَ شرلمان ملك الفرنجة بما اتصف بـه عدوه الجبار عبد الرحمن من شدة ومقدرة . وكان شرلمان هذا بمثابة حليف للخليفة العباسي وعدو طبيعي لعبد الرحمن الامير الجديد المتغلّب في اسبانيا . فبعث شرلمان بجيشه في عام ٧٧٨ قاطعاً تخوم اسبانيا وتوغل في الجهة الشمالية من البلاد حتى وصل سَرَقُسطه.إلاان الجيش اضطر إلىالانسحاب عندما اغلقت هذهالمدينة أبوابهافي وجهه وهدّد اعداءامبراطوريته الداخليون سلطة شرلمان في بلاده . وقد هاجم مؤخرةَ جيشه المتراجع في مضايق البرانس اهالي بلاد البشكنش Basques وغيرهم من الجبليين فأصيب جيش الفرنجة بخسائر فادحة في الرجال والمتاع . ومن القواد الذين قُتلوا رولان الخالد الذكر في الاشعار المعروفة بأغنية رولان Chanson de Roland وهي أول ملحمة في الادب الفرنسي بل في آداب الاجيال المتوسطة الأوروبية .

ولكي يضرب على أيدي مناوئيه اضطر عبدالرحمن إلى انشاء جيش منظم مدرّب قِوامه أكثر من أربعين الفاً من البربر المرتزقة . وقد تمكن من الاحتفاظ بولاء هذا الجيش بما كان يغدقه بسخاء على أفراده من الاعطية . وفي سنة ٧٥٧ أبطل الخُطبة باسم الخليفة العباسي ولكنه لم يتخذ لنفسه لقب خليفة . وقد اكتفى هو ومن خلَفه إلى أيام عبد الرحمن الثالث (٩١٢– ٩٦١) بلقب أمير أو سلطان ولكنهم حكموا مستقلين وكانت الأندلس في عهد عبد الرحمن الأول أول الامصار التي خرجت على سلطة خليفة المسلمين .

وبعد ان وحّد عبد الرحمن مملكته ونشر لواء السلام الموقت عليها وجّه اهتمامه نحو السلم حيث اظهر مقدرة تعادل مقدرته في الحرب . فجمّل مدن مملكته وابتنى للماء العذب قناة تحمله إلى العاصمة التي أحاطها بسور . وشيّد دارة (فيلاّ) الرّصافة في ظاهر قُرطبَة على نمط القصر الذي كان سلفه هشام قد بناه في الشمال الشرقي من الشام ، وجر الماء إلى هذه الجنة الغناء وأدخل فيها النباتات الاجنبية كالدراق والرمان . ورُوي انه جاء بنخلة من الشام فلما رآها منفردة بالرصافة أنشد من نظمه :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بارض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرب والنوى وطول التنائي عن بنيّ وعن اهلي
سقتك غوادي المزن من صوبها الذي يسح ويستمري السماكين بالوبل

وأسس عبد الرحمن قبل وفاته سنة ٧٨٨ بعامين جامع

قرطبة العظيم مضارعاً به جامعي الاسلام الكبيرين في بيت المقدس ومكّة . فأصبح هذا الجامع بعد ان انجزه خلفاؤه ووسعوه قبلة المسلمين في الغرب . وفي عام ١٢٣٦ تحوّل هذا الأثر الرائع بأعمدته القائمة المصطفة بتلاحق وتناسق كأنها غابة كثيفة وبهوه الخارجي الفسيح الفخم إلى كاتدرائية مسيحية لا تزال باقية إلى يومنا هذا باسم « لا مسكيتا » La Mezquita تحريفاً للفظة « المسجد » . وفاخرت قرطبة عواصم العالم بهذا الجامع وبجسر قائم على الوادي الكبير جرى توسيعه من بعد فصار يقوم على سبع عشرة قنطرة . ولم تنحصر جهود مؤسس الدولة الأموية في الأندلس في مصالح رعيته المادية بل تعدتها إلى المعنويات . فعبد الرحمن بذل قصارى جهده محاولاً تشكيل أمة واحدة من مختلف عناصر الدولة من العرب والسوريين والبربر والنوميديين والعرب والاسبانيين والقوط . إلا انها كانت محاولة عسيرة بعيدة التحقيق . والحق ان الفضل يعود اليه من وجوه كثيرة في نشوء الحركة الفكرية التي جعلت اسبانيا المسلمة من القرن التاسع إلى القرن الحادي عشر أحد المركزين الهامين في الثقافة العالمية .

وكان البلاط الخليفي في أيام عبد الرحمن الثالث ، وهو الشخصية الثانية البارزة في السلالة الأموية في الأندلس، من أفخم ما عرفته أوروبا . فقد جاءت اليه رُسل امبراطور بيزنطية وسفراء ملوك المانيا وايطاليا وفرنسا . وبلغ عدد سكان العاصمة قرطبة نصف المليون . وكان فيها سبعمائة مسجد وثلاثمائة من

الحمامات العمومية . ولم يكن يفوقها في الفخامة من المدن سوى بغداد والقسطنطينية . وكان قصر الخليفة فيها يضم بين جدرانه اربعمائة غرفة ومقصورة يسكنها الوف الرقيق والحرس. وهو قائم في الشمال الغربي من المدينةعلى إحدى هضاب جبل الشارات (سِيَرّا مُورينا) المشرف على الوادي الكبير. وكان عبدالرحمن قد شرع في بنائه عام ٩٣٦ بمال خلّفته ، على ما تقول الاساطير ، احدى جواريه التي أوصت ان يُنفق هذا المال لافتداء الأسرى من أيدي النصارى . ولما لم يجد عبد الرحمن منهم أحداً عمل بنصيحة جارية أخرى اسمها الزهراء وابتنى هذا الصرح وسماه باسمها وجاء بالرخام له من نوميديا وقرطجنة . أما الاعمدة والاحواض المزدانة بالتماثيل المذهبة فقد استُجلب بعضها من القسطنطينية والبعض الآخر جاءه هدية من امبراطورها . واشتغل في بناء الزهراء عشرة آلاف صانع والف وخمسمائة دابة مدة عشرين سنة . وقام الخلفاء الذين جاءوا بعد المنصور فوسّعوا الزهراء وحسنوها حتى أصبحت نواة لضاحية ملكية عامرة لم تزل آثارها ماثلة إلى الآن . وقد اجريت الحفريات في قسم منها عام ١٩١٠ وفيما بعده .

وفي الزهراء هذه احاط الخليفة نفسه بحرس من الصقالبة عدده ٣٧٥٠ رجلاً يقومون على رأس جيش نظامي بلغ مائة الف . وكان هؤلاء الصقالبة في أول الأمر أسرى من قبائل السلاف قبض عليهم الالمان وسواهم فباعوهم من العرب . ثم أطلق هذا الاسم على جميع الاجانب الذين اشتراهم العرب

سواء أكانوا من الفرنجة أم من الجليقيين أو اللامبارديين وكانوا عادة يؤخذون أحداثاً ثم يستعربون. وبمساعدة هؤلاء «الانكشارية» أو «المماليك» في اسبانيا استطاع الخليفة القضاء على الخونة وقطاع الطرق واضعاف نفوذ الارستقراطية الغربية القديمة. لذلك زهت سوق التجارة والزراعة وتضاعفت موارد الدولة فبلغ دخل خزانة الخليفة ٦,٢٤٥,٠٠٠ دينار. فكان ثلث هذا المال يُنفق على الجيش وثلثه على المشاريع العامة وثلثه الاخير يدخر رصيداً احتياطياً. ولم تعرف قرطبة من قبل مثل هذا الرخاء. ولم تحز الاندلس قط مثل هذه الثروة. ويعود معظم الفضل في ذلك كله إلى مقدرة رجل فرد عاش ثلاثاً وسبعين سنة وصرّح في أواخر أيامه انه لم يصفُ له من الدنيا إلا اربعة عشر يوماً.

كانت السلطة في العالم الاسلامي في عهد كلٍ من دوله متقلقلة متزعزعة. ففي اسبانيا احتفظت الدولة الاموية بالسلطة الرسمية منذ فرضها عليها عبد الرحمن الأول — غير انه لما ارتقى العرش عبد الرحمن الثالث عام ٩١٢ كانت الاضطرابات الاهلية والثورات القبَلية وعدم كفاءة الامراء في السياسة العامة قد فعلت مفعولها في هذه الدولة فتقلصت ولم يبقَ منها إلا قرطبة وضواحيها.

وخلف عبدُ الرحمن الثالث هذا جدّه عبد الله، وعمره ثلاثة وعشرون عاماً. وكان كسلفه ذا عزم ومضاء وفطنة. فنشط لاسترداد الضائع من الامصار فأخضع المقاطعة بعد

الاخرى وأدار الشؤون بحنكة ومقدرة . ودام حكمه نصف قرن (٩١٢ — ٩٦١) وهو من أطول مدات الحكم في تاريخ الخلافة. وكان أهم حادثة سياسية في أوائل عهده إصداره أمراً بأن تكون الخطبة ابتداء من يوم الجمعة في ١٦ كانون الثاني سنة ٩٢٩ باسمه خليفةً واميراً للمؤمنين لا باسم الخليفة العباسي . وبه ابتدأت الخلافة الأموية في اسبانيا . وفي عهده وعهد خلفه الحَكَم الثاني (٩٦١ — ٩٧٦) وتحت ادارة حاجب المملكة الملقب بالمنصور (٩٧٧ — ١٠٠٢) بلغت السلطة الاسلامية في الغرب أوج مجدها . وفي هذه الحقبة تسنّمت العاصمة الاموية قرطبة مركزاً سامياً جعلها أعظم مدن أوروبا ثقافةً، فأصبحت مع القسطنطينية وبغداد أحد المراكز الثلاثة للثقافة العالميـة . واعتزت بما احتوته إذ كان فيها مائة وثلاثة عشر الف دار ، وواحد وعشرون رَبَضاً (ضاحية) وسبعون مكتبة، وحوانيت شتّى تباع فيها الكتب ، ومساجد وقصور . فحازت بذلك شهرة عالمية ، وأخذت من أهل الاسفار بمجامع القلوب ، ونعمت بشوارع طولها أميال مضاءة بقناديل المنازل المحاذية، في حين ان لندن لم يكن فيها قنديل واحد عمومي إلى بعد سبعمائة سنة . أما باريس فظلت قروناً بعد ذلك كان الذي يتخطى فيها عتبة داره في يوم ماطر لا يأمن من الخوض في لجّة من الوحل .

أما وجهة نظر العرب إلى الأوروبيين في الشمال — الجرمان النورديين — وغالبهم همج — فيمكن الاستدلال عليها مما قاله صاعد بن احمد القاضي الطُلَيْطُلي المتوفى عام ١٠٧٠ :

« فافراط بعد الشمس عن مسامتة رؤوسهم برد هواءهم وكثف جودهم ، فصارت لذلك امزجتهم باردة وأخلاطهم فجة ، فعظمت ابدانهم وابيضت الوانهم وانسدلت شعورهم ، فعدموا بهذا دقة الافهام وثقوب الخواطر ، وغلب عليهم الجهل والبلادة ، وفشا فيهم العمى والغباوة . »

وكان أمراء ليون أو نافارا وبرشلونة إذا احتاجوا جرّاحاً أو مهندساً أو مغنياً أو خياطة ولّوا وجوههم شطر قرطبة . فذاع صيت العاصمة الاسلامية حتى أقاصي المانيا حيث وصفت راهبةٌ سكسونية قرطبة بأنها « جوهرة العالم » .

وكانت اسبانيا في عهد الخلافة أوفر بلدان اوروبا ثروةً وأشدها ازدحاماً بالسكان . وتباهت العاصمة بنحو ثلاثة عشر الف حائك وبصناعة راقية للجلود . ومن أسبانيا سرت صناعة صبغ الجلود وتزيينها بنقوش بارزة إلى مراكش ، ومن هذين القطرين انتقلت هذه الصناعة إلى فرنسا وانكلترا . أما الحرير والصوف فكانت الانسجة تحاك منهما ليس في قُرطبة فقط بل في مالَقَة وألمَرِية وسواهما من العواصم . وكان أهل الصين قد احتكروا صناعة الحرير إلى ان ادخل المسلمون إلى اسبانيا صناعة تربية دود القزّ حيث زهت وازدهرت وكانت ألمريّة تُنتج الأواني الزجاجية والنحاسية . أما موطن صناعة الخزف فكان في باترْنا من أعمال بلَنسِية . واشتهرت جيان والغرب بمعادن الذهب والفضة كما اشتهرت قُرطبة بالحديد والرصاص ومَالقَه بالياقوت . وكانت طُلَيْطُلة كدمشق معروفة في كل أقطار المعمور بسيوفها . أما فن ترصيع الفولاذ وسواه من المعادن

بالذهب والفضة وتزويقها بصور على شكل الزهر ، وهو فن منقول من دمشق ، فقد زها في بضعة مراكز اسبانية وأوروبية وترك أثراً في اللغة تدل عليه الفاظ في اللغات الأوروبية الحديثة محرّفة عن لفظة دمشق .

ولقد أدخل العرب إلى اسبانيا الاساليبَ الزراعية المتعارَفة في آسيا الغربية . فاحتفروا الترع وأدخلوا أجناساً جديدة من العنب وجاؤوا بنباتات واثمار منها الارز والبرقوق (المشمش) والفرِسْك (الدراق) والرمان والبرتقال وقصب السكر والقطن والزعفران . وكانت سهول الجنوب الشرقي من اسبانيا قد خصتها الطبيعة بأقليم معتدل وتربة صالحة، فنشأت فيها مراكز هامة للزراعة في المدن والأرياف . ونمت فيها كل أنواع الحبوب وكذلك الزيتون وأنواع الفاكهة بعهدة الفلاحين الذين قاموا على جني الأرض مقابل حصص يتقاضونها من الملاكين .

ويُعَدّ هذا الرقي الزراعي من مفاخر الاندلس . ومن آثار العرب الخالدة في الأراضي الاسبانية الحدائق التي لا تزال إلى يومنا هذا محافظة على الصبغة العربية . ومن أشهر الحدائق (جنة العريف) وهي من آثار الدولة النصرية في أواخر القرن الثالث عشر وكانت ملحقة بدار فخمة في أطراف الحمراء . وكانت هذه الجنّة على ما وصفها ابن الخطيب « المثل المضروب في الظلّ الممدود والماء المسكوب والنسيم البليل » . وقد ترتبت أقسامها شرفات فظهرت كأنها مُدَرّج (أمفِثياتر) بديع التنسيق ترويها مياه الجداول التي تتساقط في عدة شلاّلات ثم

تتوارى بين الزهور والادغال والاشجار . وهي لا تزال إلى اليوم عبارة عن مجموعة باذخة من السرو والآس .

وفاضت حاصلات الاندلس الصناعية والزراعية عن حاجة البلاد . فكانت إشبيلية ، وهي من أهم الموانئ النهرية ، تصدر القطن والزيتون والزيت وتستورد الاقمشة والرقيق من مصر والقيان من أوروبا وآسيا . وشملت صادرات مالَقة وجيان الزعفرانَ والتين والرخام والسكر . وسارت حاصلات اسبانيا بطريق الاسكندرية والقسطنطينية حتّى بلغت أقصى أسواق الهند وآسيا الوسطى . واتسع نطاق التجارة مع دمشق وبغداد ومكّة بوجه خاص. وفي الالفاظ التي تُعرِب بها لغات أوروبا الحديثة عن الصناعة البحرية ما يشير إلى سيادة العرب الماضية في البحار كـ « أميرال » admiral (أمير البحر) و « أرسِنال » arsenal (دار الصناعة) . و « كابيل » cable (حبْل) .

وتولّت الحكومة تنظيم البريد وسكّت النفود متّبعة فيها النماذج الشرقية . فكان الدينار أساس التعامل في الذهب والدرهم في الفضة . ودرجت المسكوكات العربية في ممالك النصارى شمالاً ، وظلت هذه البلدان طيلة اربعمائة سنة وليس لها من المسكوكات إلا العربية والفرنسية .

على ان مجد هذه الحقبة لم يكن في حلْبة السياسة بل في الثقافة. فكان الحكَم نفسه خلف عبد الرحمن الثالث عالماً يعمل على تشجيع العلم ونشره . فأجرى على العلماء المرتبات وابتنى في العاصمة سبعاً وعشرين مدرسة مجانية . وفي عهده ازدهرت

جامعة قُرطُبة التي أسسها سلفه في المسجد الكبير والتي أصبحت من معاهد العلم البارزة في العالم، فسبقت بتأسيسها الأزهر في القاهرة والنظامية في بغداد . وأخذ يؤمها الطلاب من نصارى ومسلمين ليس من اسبانيا فقط بل من بلدان أوروبية أخرى ومن افريقيا وآسيا . ووسع الحكَم نطاق المسجد الذي قامت الجامعة بين جدرانه وأجرى اليه الماء في أنابيب الرصاص وزينه بالفسيفساء التي جاء بها مَهَرة الصناع البيزنطيين . واستدعى إلى هذه الجامعة أساتذة من الشرق ووقف أموالاً خاصة ينفق ريعها على مرتباتهم .

وضمت العاصمة – عدا الجامعة – مكتبة من الدرجة الأولى في سعتها ، وكان الحكَم من غواة الكتب فتفقد عمالهُ مكاتب الاسكندرية ودمشق وبغداد قصدَ ابتياع المخطوطات أو نَسْخها وجلبوا منها إلى الاندلس الشيء الكثير فبلغ عدد المجموع من الكتب اربعمائة الف ، حتى كان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب اربعة واربعين مجلداً في كل مجلد عشرون ورقة فيها أسماء الدواوين الشعرية . واستوعب الحكَم ، ولعله أعظم عالم بين خلفاء الاسلام قاطبة ، عدة من هذه الكتب علّق عليها في الحواشي ملاحظات زادتها قيمةً لدى هواة الكتب في العهود المتأخرة . وبذل في « كتاب الاغاني » لمصنّفه أبي الفرج الاصفهاني الأموي الأصل الفَ دينار فأرسل اليه بنسخة منه قبل أن يخرجه في العراق . وبلغت درجة الثقافة في الاندلس مستوى عالياً في هذا الوقت حدا العالِم الهولاندي الكبير دوزي Dozy

إلى القول ان « كل فرد تقريباً (من أهل الأندلس) كان يحسن القراءة والكتابة » . كل هذا بينا كانت أوروباالمسيحية لا تعرف من العلوم إلا مبادئ بسيطة أكثرها في حوزة عدد قليل من رجال الدين .

فضل العرب على المدنية الغربية

يُستدل على اهتمام العرب بالعلم والثقافة والأدب من العبارة التي كانت تظهر منقوشة على أبواب معاهد العلم في الاندلس « العالَمُ يقوم على أربعة أركان : معرفة الحكيم وعدالة العظيم وصلاة التقي وبسالة الشجاع . » ومما يلفت النظر ان المعرفة جاءت في هذه العبارة ، التي تصف المُثُل العليا الاسلامية في أوروبا ، في المقدّمة .

ولقد كان لقوة العرب الحربية أثرها الفعّال في العالم العربي ولكنه أثر لم يدم . والدين الاسلامي لم يستهو خيال الأوروبيين كثيراً . على ان العدل العربي ترك وراءه سوابقَ يستشهد بها الأوروبيون . أما العالم الاسلامي فقد دخل الفكر الاوروبي من نواحٍ عدّة . ذلك بأن الاندلس سطرت فصلاً رائعاً في التاريخ الفكري للعصور الوسطى الأوروبية . فبين

منتصف القرن الثامن ومطلع القرن الثالث عشر حسبما تقدم كانت الشعوب العربية اللسان في مقدمة من حمل مشعال الثقافة والمدنية في العالم قاطبة . وبواسطة جهود هذه الشعوب أيضاً تسنى لعلوم الاقدمين وفلسفتهم ان تعود إلى أوروبا مشروحة ومضافاً اليها . فسهّل هذا السبيل لنشوء عصر النهضة في أوروبا الغربية . ولعل أعظم علماء الأندلس وأكثرهم ابتكاراً عليّ ابن حزم (٩٩٤ — ١٠٦٤) وهو احد الاثنين أو الثلاثة الذين يعتبرون أخصب مؤلفي الاسلام وأغزرهم مادة . وقد نسب اليه ابن خلكان والقِفْطيّ اربعمائة مجلد في التاريخ والدينيات والحديث والمنطق والشعر وغيرها من العلوم . أما أنفس كتبه الباقية إلى الآن وأفيدهـا فهو « الفصل في الملل والاهواء والنحل » الذي يؤهّل مؤلفه لاحتلال مركز الاولية بين العلماء الذين عنوا بدرس الأديان على سبيل النقد والمعارضة . وفي هذا الكتاب لفت ابن حَزْم الانظار إلى بعض مشاكل في قصص التوراة لم يتنبّه لها فكر أحد من العلماء حتى ظهور مدرسة نقد التوراة العلمي في القرن السادس عشر .

أما في النثر فالحكايات والروايات والقصص الأدبية التي أخذت تزدهر في أوروبا الغربية خلال القرن الثالث عشر يظهر فيها بلا ريب تأثير الكتب العربية السابقة سواء أكانت هندية أم فارسية الاصل . أما حكايات « كليلة ودمِنة » الممتعة فقد نُقلت إلى الاسبانية برعاية ألفونسو العاشر الحكيم ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ — ١٢٨٢) . ولم تلبث ان نُقلت إلى اللاتينية

بقلم يهودي متنصّر . ثم أصبحت ترجمتها الفارسية عن طريق الافرنسية احد مصادر لافونتين حسبما أقرّ لافونتين نفسه .
وتمت القصة الاسبانية الساخرة (بيكارسك picaresque) بنسب واضح إلى المقامة العربية وما اتصفت به من السجع وتضمنته من ضروب التزويق اللفظي وما رمت اليه من مغزى أدبي يستخرج من سرد مجازفات بطل القصة المغوار . وكان اول من وضع المقامة في العربية بديع الزمان الهمذاني (٩٦٩ – ١٠٠٨) وتبعه الحريري (١٠٥٤ – ١١٢٢) .
وظلت هذه المقامات نحو سبعة قرون اروع مثال في الادب العربي بعد القرآن . إلا ان اعظم فضل للغةالغربية على أدب العصور الوسطى الأوروبية كان في اسلوبها الذي ساعد على تحرير المخيلة الغربية من الانظمة الضيقة الجامدة التي قضى بها التقليد الموروث . وينم الأدب الاسباني بما فيه من خيال وافر عن نماذج عربية تدل عليها النكتة في كتاب « دون كيخوته » Don Quixote الذي قضى مؤلفه سرفنتيس Cervantes في الجزائر ردحاً من الزمن سجيناً وادعى على سبيل الدعابة ان كتابه يرجع إلى أصل عربي .
وحيثما حلّت اللغة العربية وفي أي عصر انتشرت كان ولع ابنائها في الانشاء الشعري فيها شديداً وتناقل متكلموها على الالسن أبياتاً منها لا تحصى أصبح بعضها موضوع اعجاب الرفيع منهم والوضيع . وهذا الطرب الشعري الذي يستملك شعور الناطقين بالضاد بفضل عذوبة الالفاظ وحسن السبك وبديع المعاني تجلّى في الاندلس . فقد كان الامير الأموي

الأول عبد الرحمن شاعراً ومثله عدد من خلفائه . وكان لأكثر هؤلاء الامراء شعراء ممتازون في بلاطاتهم اصطحبوهم في أسفارهم وحملاتهم الحربية . وفاخرت إشبيلية بأكبر عدد من الشعراء الظرفاء الملهمين مع ان آلهة الشعر كانت استقرّت لزمن طويل قبل هذا في قُرطُبة وانتقلت إلى غَرْناطة لما كانت هذه حصناً للاسلام .

ومن أفذاذ الشعراء ابو الوليد أحمد بن زيدون (١٠٠٣ — ١٠٧١) الذي ينتمي إلى بني مخزوم ، وهم فرع من قريش . ويعدّه بعضهم أعظم شعراء الاندلس . وكان ابن زيدون في أول أمره يقوم على خدامة ابنِ جهْوَر رأس حكومة قُرْطُبة إلى ان غضب عليه . والسبب الراجح في ذلك عشقُ ابن زيدون للشاعرة ولاّدة بنت الخليفة المستكفي . فقضى الشاعر عدة سنين في السجن والمنفى إلى ان انتدبهُ المعتضِد العَبّادي لرئاسة الوزارة وإمارة الجيش فسمّي بذي الوزارتين — وزارة السيف ووزارة القلم . وكانت ولاّدة هذه المتوفاة عام ١٠٨٧ أديبة شاعرة بالغةً الغايةَ في الظرف وحسن المنظر . وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار العصر . ولقد أظهرت نساء الاندلس العربيات ميلاً خاصاً للشعر والادب . فخصّ المَقّرِيّ جانباً كاملاً من كتابهِ « نفح الطيب » بالنساء الشهيرات في الاندلس « كي يُعْلَمَ ان البراعة في أهل الاندلس كالغريزة لهم حتى في نسائهم وصبيانهم . »

وتحرّر الشعر العربي الاندلسي إلى حدّ معلوم من قيود

التقليد فنشأت له أوزان جديدة واكتسب ذوقاً في تحسس الجمال في الطبيعة بصورة تكاد تكون حديثة . وتجلّت في أغانيه الشعبية وأناشيده الغرامية عواطف الجمال التي سبقت عصر الفروسية في القرون الوسطى . وفي الاندلس ، كما في كل مكان وزمان ، بقيت أواصر الارتباط وثيقة بين الموسيقى والشعر .

واستثار الشعر العربي عامة والغنائي منه خاصة إعجاب النصارى الاندلسيين ، فأصبح من العوامل الفعّالة في طبعهم بطابع المدنية العربية . ومن الزجل والموشح نشأ ضرب من الشعر العامي القشتالي استخدمه المسيحيون كثيراً في أناشيدهم الدينية ومن بينها أغاني عيد الميلاد . ولم يزل إلى الآن في لبنان شعراء عاميون يرتجلون ما يسمونه زجلاً وموشحاً .

ومن مآثر الشعر العربي ما ظهر في الشعر الاسباني العُذْري ، باكراً في القرن الثامن ، من اسلوب خاص تتجلّى فيه موثرات الشعر العربي . وفي فرنسا الجنوبية لم يظهر شعراء البروفنسال على أتم النضج حتى أواخر القرن الحادي عشر فاذا بقصائدهم فياضة بالحب الخافق تعبر عن لغة مترعة بالمجاز المعنوي والخيال البعيد . وقلّدت جماعة التروبادور التي زهت في القرن الثاني عشر معاصريها الجنوبيين من منشدي الزجل . واتباعاً للانموذج العربي أصبح التغزل بالمرأة شعراً ، أمراً مألوفاً في أوروبا الجنوبية والغربية . أما « أغنية رولان » وهي أنبل تراث في الأدب الأوروبي القديم ، فقد ظهرت قبل سنة

١٠٨٠ مؤذنةً بطلوع شمس مدنية جديدة — مدنية أوروبا الغربية — والأغنية مدينة بظهورها لمعركة بين مسيحيي فرنسا ومسلمي اسبانيا .

ولقد قام التعليم الابتدائي في البلدان الاسلامية وانتشر ، كما أسلفنا ، على أساس الكتابة والقراءة من القرآن وعلى تعلّم الصرف والنحو والشعر . ومقام المرأة في الحياة العلمية يبرهن على ان الاندلس قلما أعارت أذناً مصغية للأقوال والاحاديث التي نهت عن تعليم المرأة . أما التعليم العالي فانه قام على تفسير القرآن والدينيات والفلسفة وأصول اللغة العربية والشعر وعلم المفردات والتاريخ والجغرافية . وازدانت بعض المدن الرئيسية بمدارس تصحّ تسميتها بالجامعات وفي طليعتها قرطبة وإشبيلية ومالَقَة وغَرناطة . ومن دوائر التدريس التي تضمنتها جامعة قرطبة دائرة للفلك وغيرها للرياضيات والطب والعلوم الدينية والشرعية . ولعل عدد الطلاب الذين أمّوها بلغ الآلاف . وكانت شهادتها من أهم المؤهلات لشغل أوفرمناصب الدولة دخلاً . وشمل منهاج الدراسة في جامعة غَرناطة علوم الدين والفقه والطب والكيمياء والفلسفة والفلك . ولقد أمّ هذه الجامعة الطلاب من قشتالة وسواها من الاقطار الاجنبية .

ونشأت إلى جانب الجامعات خزائن للكتب منها خزانة قُرطُبة الملكية ، أوسع المكاتب وأفضلها . وكان لبعض مشاهير الأمّة ونسائها البارزات مجموعات كتب خاصة . وإذ لم يعرف المسلمون هذه المحافل السياسية ودور التمثيل التي امتازت بها

بلاد اليونان ورومة ، فقد اقتضت الحياة الاسلامية ان تكون الكتب الواسطة الوحيدة لتحصيل المعرفة .

ولولا صناعة الورق البلدية في الأندلس ، وهي من أهم ما أسداه الاسلام إلى أوروبا ، لما راجت سوق الكتب إلى هذا الحد كما لاحظنا في درسنا لبغداد . ومن مراكش التي أدخلت اليها هذه الصناعة من الشرق انتقلت إلى اسبانيا في منتصف القرن الثاني عشر . ومن الالفاظ التي تُذكرنا بهذه الحقيقة « رزمة » العربية التي دخلت محرفة إلى لغات أوروبية كثيرة . ثم تطرق فنّ صنع الورق إلى ايطاليا نحو سنة ١٢٧٠ ، بفضل تأثير المسلمين في صقلية على الراجح . أما في فرنسا فالفضل الأول في ظهور مصانع الورق يعود إلى تأثير اسبانيا لا إلى تأثير الصليبيين العائدين كما ادّعى بعضهم . ومن هذه البلدان انتشرت هذه الصناعة إلى سائر أنحاء أوروبا . وكان لعبد الرحمن كاتب اعتاد انشاء الرسائل الرسمية في منزله ثم إنفاذها إلى ديوان خاص يصير فيه « طبعها (على الحجر) » في نسخ عدة توزع على عمال الدولة .

وعقب تقلّص السلطة الاسلامية عن اسبانيا انقرضت معظم الكتب العربية فيها ولم يبقَ منها سوى نحو الالفين من المجلدات ، فقام الملك فيليب الثاني (١٥٥٦ — ١٥٩٨) وخلفاؤه في جمعها من مختلف مخازن الكتب العربية .فغدت هذه المجموعة نواة مكتبة الاسكُوْريال Escurial التي لا تزال قائمة بظاهر مدريد. وحدث في القسم الأول من القرن السابع عشر ان الشريف زيدان

سلطان مراكش ارسل خزانة كتبه على ظهر سفينة ، وكان هارباً من عاصمته ، فأبى الربان ان يوصل هذه الكتب إلى المكان المقصود لأنه لم يستلم اجرته بكاملها سلفاً . وبينا السفينة في طريقها إلى مرسيليا إذا بها تقع في أيدي قرصان البحر الاسبانيين فيأمر فيليب الثالث بايداع هذه الغنيمة من الكتب المتراوح عددها بين الثلاثة والاربعة آلاف في مكتبة الاسكُورْيال ، وبذلك أصبحت هذه المكتبة من أغنى المكاتب الأوروبية بالمخطوطات العربية .

وليس بين كتّاب العصر الاندلسي من كان أغزر مادة في التاريخ من الصديقين ابن الخطيب وابن خلدون .

كان لسان الدين بن الخطيب (١٣١٣ — ١٣٧٤) متحدراً من أسرة عربية هجرت الشام فنزلت اسبانيا . وفي زمن سابع سلاطين بني نصر ، يوسف ابي الحجاج ، وابنه محمد ، أطلق عليه لقب « ذي الوزارتين » . وفي سنة ١٣٧١ فرّ من غرناطة بسبب الدسائس في البلاط فلم تطل نجاته لأنه مات خنقاً بعد ثلاث سنين في مدينة فاس بيد بعض أعدائه . وبموته خسرت غرناطة ، إن لم نقل الاندلس كلها ، آخر من قام فيها من جهابذة التأليف والشعر والسياسة . ولم يبق من الكتب الستين التي صنفها ابن الخطيب — وأكثرها في الشعر والتاريخ والجغرافية والطب والفلسفة — إلا نحو ثلثها . وأهم ما يعنينا من هذه التآليف كتابه « الاحاطة في تاريخ غرناطة » .

أما عبد الرحمن بن خلدون (١٣٣٢ — ١٤٠٦) فقد وُلد

في تونس من اسرة اسبانية عربية ربطت نسبها بقبيلة كِنْدة . وكان مؤسس هذه الاسرة قد هجر اليمن في القرن التاسع فنزل اسبانيا . وزهت ذرّيته في إشبيلية حتّى القرن الثالث عشر . وتقلب عبد الرحمن في مناصب عدة رفيعة في فاس قبل ان غضب عليه وليُّ الأمر فيها . وفي عام ١٣٦١ اتصل بلسان غرناطة محمد السادس فاحتلّ وظائف مختلفة ولعب دوراً سياسياً هاماً إلى ان ثارت عليه عواصف الحساد فاعتزل الوظائف وعكف على التأليف . إلا أن شهرة ابن خلدون الواسعة ترتكز على مقدمته إذ فيها وردت لأول مرة نظرية النشوء التاريخي المبنيّة على الاخذ بحقائق الاقليم والجغرافية فضلاً عن الحقائق الاخلاقية والروحية . ويمكن اعتبار ابن خلدون من حيث بحثُهُ عن قوانين التقدم والانحلال القومي ومحاولتهُ ان يضع قواعد لها مكتشفاً لطريقة جديدة — هكذا قال هو عن نفسه — في علم التاريخ والعمران . وأقل ما يمكن ان يقال عنه إنه مؤسس علم الاجتماعيات . والحق انه ليس من كاتب أوروبي أو غربي نظر قبلهُ إلى التاريخ نظرةً تعادل نظرته شمولاً واطّلاعاً فلسفياً . ويُعدّ ابن خلدون باجماع الآراء بين النقدة أعظم فيلسوف تاريخي اسلامي ، ومن أعظم فلاسفة التاريخ في العالم .

لم يكن لدراسة العرب الجغرافية إلا أثر محدود في الغرب كان من نتائجه ابقاء الفكرة القديمة القائلة بكروية الأرض حيّةً . وقد أشرنا سابقاً إلى الفكرة الهندية القائلة بأن نصف الكرة

الأرضية المعروف إنما كان له مركز أو قبّة على أبعاد متساوية من الخوافق الاربعة . هذه هي نظرية آرين التي وصلت إلى مصنّف لاتيني صدر سنة ١٤١٠ فاتخذ كولمبس عنه مذهبهُ الذي قاده إلى الاعتقاد بأن شكل الأرض يشبه الاجّاصة وان في نصفها الغربي الذي يقابل آرين مركزاً آخر مرتفعاً ومماثلاً .

والحق ان العرب أتحفوا الغرب بعدة آراء جديدة ومعلومات واسعة النطاق في الجغرافية الفلكية والرياضيات . ففي اسبانيا عظم الاقبال على العلوم الفلكية بعد منتصف القرن العاشر. وخصّ امراء قُرْطُبة وطُلَيْطُلة وإشبيلية هذه العلوم برعاية وعناية . وكان معظم الفلكيين الاندلسيين يؤمنون بأن علل أكثر الحوادث التي تحدث للانسان ما بين ولادته وموته إنما ترجع إلى تأثير النجوم . واقتضت دراسة هذا التأثير الفلكي – علم التنجيم – تحديدَ الاماكن في الأرض ووضع مقاييس الطول والعرض لها . ثم تطرّقت هذه المؤثرات الشرقية بواسطة اسبانيا إلى الغرب اللاتيني فأهابت به إلى دراسة الفلك والتنجيم. ونُقلت معظم كتب الفلك الاسلامية في اسبانيا إلى اللاتينية. وما جداول الفلك الألفونسية التي وضعها الفونسو العاشر في القرن الثالث عشر إلا أمثلة لمؤثرات علم الفلك العربي . ومن دراسات العرب للنجوم جاءتنا أسس علم المثلثات الكروية والاستوائية . فالعرب هم الذين وضعوا علم المثلثات كما وضعوا علمي الجبر والهندسة التحليلية . ومن يطالع أسماء النجوم التي تتحلى بها القبة الزرقاء يدركْ حالاً ان الفلكيين العرب تركوا

آثاراً خالدة تنطق بمقدرتهم واجتهادهم . وليست جمهرة أسماء النجوم في اللغات الأوروبية عربية الأصل فقط أمثال « العقرب » Acrab و « الجدي » Algedi و « الطائر » Altair و « الفرقد » Pherkad بل ان كثيراً من مصطلحاتها الفلكية يرجع إلى الفاظ عربية أمثال « السّموت » Azimuth و « النظير » Nadir و « السّمت » Zenith . وما هذا غير قليل من كثير مما اتحف به الاسلامُ أوروبا المسيحية .

ومن أمتع المفردات الرياضية وأفيدها لفظة « صفر » التي استعارتها اللغات الأوروبية من العربية . نعم انالعرب لم يخترعوا الصفر ولكنهم هم الذين أدخلوهُ مع الأرقام إلى أوروبافعلّموا الغربيين طريقة استخدامها . وبذلك سهّلوا استعمال الحساب في أمور الحياة اليومية . وهذه الأرقام سمّاها العرب هندية لأنهم اقتبسوها عن الهنود ، وسماها الأوروبيون عربيةً لأنهم اتخذوها عن العرب .

على ان انتشار الارقام الهندية في أوروبا غير المسلمة كان بطيئاً جداً . فقد بقي علماء الحساب المسيحيون طيلة القرن الحادي عشر والثاني عشر وبعض الثالث عشر يستعملون الارقام الرومانية القديمة القائمة على بعض حروف الهجاء . واستخدِمت هذه الأرقام لمقاصد علمية لأول مرة في ايطاليا . ففي سنة ١٢٠٢ رحل ليوناردو فيبوناتشي من أهالي بيزا — بعد أن درس على استاذ مسلم — في طلب العلم إلى شمالي افريقيا . فنشر كتاباً كان المَعْلَمَ الرئيسي في تعريف الارقام الهندية إلى

أوروبا . زد على ذلك انه بهذا الكتاب تعينت بداية علم الرياضيات في أوروبا . ولو بقيت الارقام القديمة المبنية على الحروف سائدةً لتعذر ارتقاء علم الحساب في بعض فروعه . ولا مبالغة في القول إن علامة الصفر والارقام الهندية هي أساس علم الحساب على ما نعرفهُ اليوم .

وفي موضوع التاريخ الطبيعي ، ولا سيما علم النبات ، كما في الفلك والرياضيات زادت بحوث المسلمين الغربيين في ثروة العالم . فالعلماء العرب أبدوا ملاحظات صائبة في موضوع الفرق الجنسي التناسلي بين النخيل والقُنّب ، ورتّبوا النباتات على مبدأ ما ينمو منها من الفسائل وما ينمو من البذور وما ينمو من تلقاء نفسه . وحوالى نهاية القرن الثاني عشر وضع ابن العوّام رسالة في الزراعة هي أهم ما صنّفه المسلمون في هذا الموضوع بل أهم مؤلفات العصور الوسطى فيه . وهذا الكتاب الذي اقتبست بعض مواده عن اليونان القدماء وعن مصادر عربيـة وجاء باقيها نتيجةً لاختبارات المزارعين في اسبانيا إنما يعـالج ٥٨٥ نبتةً ويشرح طريقة تربية أكثر من خمسين شجرة مثمرة ويورد ملاحظات جديدة في موضوع التطعيم وفي خصائص التربة والسماد ويبحث في اعراض عدة من أمراض الاشجار والكرمة مع اوصاف طرق معالجتها .

وكان اشهر علماء النبات والصيادلة في الاندلس بل في العالم الاسلامي عبد الله بن أحمد البيطار الذي توفي في دمشق سنة ١٢٤٨ تاركاً وراءه أعظم رسائل العصور الوسطى في العلاجات

البسيطة بعنوان « الجامع في الادوية المُفرَدَة » .

وكان معظم الذين انصرفوا إلى صناعة الطب من عرب الاندلس يتخذونها مهنة كمالية إلى جانب عمل يتعاطونه . فابن رشد وابن ميمون وابن باجّة وابن طُفَيل كانوا في الدرجة الأولى فلاسفة . اما ابن الخطيب كما قدمنا فكان منشئاً ومؤرخاً تقلد منصب الوزارة شأن غيره من الأطباء . وبمناسبة انتشار مرض الطاعون الهائل في أوروبا في منتصف القرن الرابع عشر ووقوف النصارى حياله مكتوفي الايدي حاسبينه قضاءً وقدراً وضع هذا الطبيب الغرْناطي المسلم رسالةً دافع فيها عن نظرية العدوى حسبما يُستدَلّ من الفقرة التالية :

« فان قيل كيف نسلم بدعوى العدوى وقد ورد الشرع بنفي ذلك قلنا وقد ثبت وجود العدوى بالتجربة والاستقراء والحس والمشاهدة والاخبار المتواترة . وهذه مواد البرهان . وغير خفي عمن نظر في هذا الامر وادركه هلاك من يباشر المريض بهذا المرض غالباً وسلامة من لا يباشره . كذلك ووقوع المرض في الدار والمحلة لثوب او آنية حتى ان القرط اتلف من علق باذنه واباد البيت باسره . ووقوعه في المدينة في الدار الواحدة ثم اشتعاله منها في افذاذ المباشرين ثم في جيرانهم واقاربهم وزوارهم خاصة حتى يتسع الخرق . وفي مدن السواحل المستصحبة حال السلامة الى ان يحل بها في البحر من عدوة اخرى قد شاع عنها خبر الوبا ... »

وكانت الثقافة الشرقية ، في القرون الأولى من الحكم الاسلامي للاندلس ، تنتشر في اسبانيا على مستوى عال . فأخذ علماء الاندلس يرحلون في طلب الاستزادة من العلم إلى مصر وسورية والعراق وفارس وإلى ما وراء النهر (سيحون) والصين .حتى

إذا كان القرن الحادي عشر والقرون اللاحقة انعكست الآية ، وخصوصاً في القرن الثاني عشر ، حين بلغت المعارف الاندلسية أشدّها وبلغت من الغزارة حداً طما معه سيلها على أوروبا. وفي نقل الطب العربي إلى أوروبا لعبت افريقيا الشمالية الغربية واسبانيا لا سيما طُلَيْطُلة، حيث عاش جيرارد الكَرْموني وميخائيل سكوت Scot دوراً هاماً . وهكذا تسنّى أخيراً للتقاليد الطبيّة الثلاثة الاسلامية واليهودية والنصرانية ان تلتقي في مركز واحد فتندمج . وبواسطة الترجمات انتقلت إلى اللغات الأوروبية الفاظ عربية فنية كثيرة محرفة عن مفردات هذه اللغات .

بيد أنّ أسمى درجات الرقي التي بلغها الفكر العربيّ في الاندلس إنما تمّت في حقل الفلسفة . فههنا أحكَمَ العرب آخر الحلقات وأمتنها في تلك السلسلة التي نقلت فلسفة اليونان إلى الغرب اللاتيني بعد أن طبعها العرب في الشرق والغرب بطابعهم الخاص وألبسوها ثوباً قشيباً . وكان أهم ما احتفوا به الفلسفة هو توفيقهم بين الايمان والعقل وبين الدين والعلم . فقد اعتبر مفكّرو الاسلام ان تعاليم ارسطو وتعاليم افلاطون وتعاليم القرآن كلها تعاليم صادقة . وآمنوا بأن الصدق واحد لا يتجزأ وإذاً فلا بدّ من التوفيق بين هذه التعاليم الثلاثة وادماجها في نظام موحّد . لهذا وجّه علماء الاسلام جهودهم إلى معالجة هذه المعضلة . ولقد واجه فلاسفة النصارى المدرسيّون (السكولاستيك) المعضلة نفسها ، إلا ان مهمتهم كانت أصعب لما حواه اللاهوت عندهم من متراكم الطقوس والاسرار

الكنسية . والحق ان الفلسفة كما وضعها اليونان وديانة التوحيد التي انشأها أنبياء العبرانيين كانتا ، حسبما أشرنا سابقاً ، أثمن ما للغرب القديم والشرق القديم من تراث وانبله .

وإنما تتعين نهاية العصور المظلمة وفجر الحقبة المدرسية بتدفّق الأفكار الجديدة عن طريق الاندلس إلى أوروبا الغربية ، لا سيما في الفلسفة والطب . فالواقع ان هذا الاحتكاك بالفكر العربي والفلسفة اليونانية عن طريق العربية أحيا الفكر وانعش الروح العلمية والفلسفية في أوروبا وقادها سراعاً إلى حياة فكرية خاصة مستقلة أدت إلى النهضة الفكرية الحديثة التي لا نزال نجني إلى اليوم ، ثمراتها .

ولا يمكننا ان نذكر في هذه العجالة إلا بعضاً من أعلام الفلسفة في الاندلس . منهم ابن طُفَيل الذي توفي سنة ١١٨٥ وأهم نفثاته رواية فلسفية مبتكرة عنوانها « حَيّ بن يَقْظَان » . وتقوم الفكرة الأساسية في هذه الرواية على ان المقدرة الانسانية تكفي ، دون مساعدة خارجية ، للتوصل إلى معرفة العالم العلوي وان في وسعها الوقوف تدريجياً على ضرورة اتكالها على الكائن الأعلى . وقد نُقِلت هذه الطُرفة التي تُعَدّ من أمتع ما في أدب العصور الوسطى وأشدّه ابتكاراً إلى اللاتينية سنة ١٦٧١ . ثم نُقِلت إلى معظم لغات أوروبا بما فيها الهولاندية (١٦٧٢) والروسية (١٩٢٠) والاسبانية (١٩٣٤) . وقد حاول بعضهم ان يجد فيها مصدراً لقصة روبنصن كُروزو Robinson Crusoe الانكليزية المعروفة .

أما أعظم فلاسفة الاسلام باعتبار تأثيره في الغرب فالطبيب الفلكي الاسباني العربي ابن رشد شارح ارسطو . وُلد ابن رشد في قرطبة سنة ١١٢٦ وكان أهم ما اتحف به علمَ الطب مؤلفه « الكليات في الطب » أثبت فيه ان الجدري لا يصيب المرء مرتين ، وأوضح بدقة وظيفة شبكة العين . أما في العالمين اليهودي والنصراني فان شهرته قامت في الدرجة الأولى على مكانته كشارح لارسطو . ويجب ان نذكر ان عمل الشارح في العصور الوسطى إنما كان ينطوي على وضع مؤلف علمي أو فلسفي معتمداً فيه على كتاب قديم كأساس وإطار . وإذاً فشروح ابن رشد سلسلة رسائل تحمل عناوين كتب ارسطو مع تأويل محتوياتها والحقيقة ان ابن رشد ينتمي إلى أوروبا النصرانية أكثر منه إلى آسيا وافريقيا الاسلامية . فقد عرفه الغرب من بعد بلقب « الشارح » كما عرف ارسطو بلقب « المعلّم » . وليس من كتابات حرّكت عقول فلاسفة النصارى في العصور الوسطى بقدر ما حرّكتها كتابات ارسطو على ما شرحها ابن رشد . وظلّت فلسفة ابن رشد من أواخر القرن الثاني عشر إلى آخر القرن السادس عشر سائدةً عالم الفكر على الرغم من ردّ الفعل الذي أحدثته بين المسلمين في اسبانيا أولاً والتلموديين ثانياً والاكليروس ثالثاً . وكان ابن رشد من القائلين بوجوب تحكيم العقل في جميع الأمور إلا في عقائد الايمان المنزلة . ولكنه لم يكن كما اعتقد الكثيرون ابا الفكر الحرّ والالحاد وعدو الايمان . وكان اتباع ارسطو من المسلمين الباكرين قد حسبوا بعض

الكتب الملفقة ومنها بعض مؤلفات المدرسة الافلاطونية الجديدة من وضع أرسطو نفسه . أما الآن فقد جاءت فلسفة ابن رشد داعية إلى التعويل على فلسفة ارسطو العلمية الصحيحة غير المزيفة وبعد ان غربل رجال السلطة من الاكليروس كتابات ابن رشد وحذفوا منها المواد غير المرغوب فيها أصبحت كتباً للتدريس في جامعة باريس وسواها من معاهد العلم العالي . والحق ان الحركة الفكرية التي أوجدها ابن رشد بما فيها من محاسن وما أضيف اليها من أوهام بقيت عاملاً حياً في الفكر الأوروبي حتى مولد العلم التجريبي الحديث .

وكان المقام الأول بين فلاسفة هذا العصر بعد ابن رشد لمعاصره اليهودي ومواطنه الاسباني ابن ميمون ، أشهر أطباء اليهود وفلاسفتهم طوال هذه الحقبة العربية . وُلد ابن ميمون في قرطبة سنة ١١٣٥ ولكن اسرته هجرت الاندلس بسبب الاضطهاد الذي أثاره الموحّدون فنزلت القاهرة حوالي سنة ١١٦٥ . أما زعمُ القِفْطِي وابن أبي أصَيْبعَة ان ابن ميمون كان في الاندلس يدّعي الاسلام علانية ويمارس اليهودية سراً فقد تعرّض مؤخراً لنقد صارم . وفي القاهرة أصبح ابن ميمون طبيب البلاط في عهد صلاح الدين وعهد ابنه الملك العزيز . ومن سنة ١١٧٧ فما بعدها شغل ابن ميمون رئاسةَ الملة اليهودية في القاهرة وفيها مات عام ١٢٠٤ . وعملاً بوصيته حمل أتباعه جثمانه على الاكفّ على الطريق التي سلكها النبي موسى قبلاً فدفن في طبرية من أعمال فلسطين حيث لا يزال ضريحه الوضيع

مقصداً لجماهير الحجاج . وإلى اليوم ترى ذوي الحاجة من مرضى يهود مصر يطلبون الشفاء بالاقامة ليلاً في دهليز الكنيس المسمى باسمه في القاهرة .

كان ابن ميمون فلكياً ولاهوتياً وطبيباً ممتازاً . وكان فوق ذلك كله فيلسوفاً . ففي علم الطب حسّن طريقة الختان ونسب علة البواسير إلى الامساك فوصف لها علاجاً الطعامَ الخفيف المؤلف أكثره من الخضر . كذلك اعتنق أفكاراً راقية بشأن حفظ الصحة . وأشهر كتبه الطبية « الفصول في الطب » . وفي مؤلفه الرئيسي في الفلسفة « دلالة الحائرين » حاول ان يوفّق بين اللاهوت اليهودي وفلسفة ارسطو المعروفة عند العرب . وبكلمة أخرى سعى إلى التوفيق بين الايمان والعقل . وأما الرؤى النبوية في الاسفار المنزلة فقد عللها كاختبارات ذاتية نفسانية . وبذلك وقف موقف المدافع عن الفكرة العلمية الحرة ضد فكرة التوراة المحافظة فأثار غضب اللاهوتيين المحافظين الذين سموا كتابه « ضلالة » . أما آراؤه الفلسفية المعبّر عنها في هذا المصنّف وسواهُ فتَطَبْعَ على غرار مصنّفات ابن رشد مع انه لم يعتمد على تلك في وضعها . وابن ميمون كابن رشد لم يعرف اليونانية بل اعتمد على الترجمات العربية . أما نظرية الخليقة التي بسطها وان لم يؤمن بها فانها نظرية الجوهر الفرد التي تختلف عن النظريتين الاخريين اللتين نادى بهما مفكرو العرب أي نظرية الاسفار المقدسة التي قالت بأن الله خلق كل شيء والنظرية الفلسفية التي قال بها اتباع الافلاطونية الجديدة واتباع ارسطو .

أما كتبهُ فقد وُضعت كلها بالعربية باستثناء واحد منها ، ولكن بحروف عبرانية . ثم ما لبثت أن نُقلت إلى العربية وبعد ذلك بزمن إلى اللاتينية . وظل تأثيرها على تراوح الزمن وتباعد الاقطار أشد ما يكون في اليهود والنصارى . وبقيت كتبه حتى القرن الثامن عشر الواسطة الوحيدة التي أوصلت الفكر اليهودي إلى الاوساط غير اليهودية . والنقدة المحدثون يرون في تآليف سبينوزا Spinoza وكانت Kant وفي تعاليم بعض الدومينيكيين الكاثوليك كألبرتوس ماغنوس Albertus Magnus ما يثبت أثر ابن ميمون .

أما في التصوف فكان إمام هذا العصر قاطبة محيي الدين ابن عربي ، أعظم النظريين من ارباب التصوف الاسلامي . وقد لمع نجم ابن عربي في إشبيلية ومات في دمشق سنة ١٢٤٠ ولا يزال ضريحهُ قائماً في أحد مساجدها . وفي كتاب « الاسرا إلى مقام الأسرى » شرح ابن عربي مفصلاً قصة الاسراء بمحمد وصعوده إلى السماء السابعة ووضع بذلك مثالاً احتذاهُ ، على ما يظن بعضهم ، دانتي ، أعظم شاعر ايطالي .

وفي ختام القرن الثالث عشر كان قد تم نقل العلوم العربية والفلسفة العربية إلى أوروبا ، بعد ان شقت التيارات الفكرية الممتدة من أبواب طُلَيْطُلة طريقها عبر جبال البرانس وعرجت حتى بلغت بروفانس ومضايق الألب ثم اجتازتها إلى اللورين فالمانيا وأوروبا الوسطى وعبرت الخليج إلى انكلترا . وأصبحت رمسيليا وتولوز وأرْبونة ومَنتيبليه من مدن فرنسا الجنوبية

مراكز هامة للفكر العربي . اما في شرقي فرنسا فان بلدة كلوني التي آوت في ديرها الشهير عدداً من الرهبان الاسبان كانت في القرن الثاني عشر مركزاً هاماً لنشر العلوم العربية . وفيها تعهد بطرس الفنرابل (١١٤١ — ١١٤٣) أول ترجمة للقرآن إلى اللاتينية ووضع عدة كرّاسات ناقش فيها عقائد الاسلام .
وباتصال العلم العربي باللورين في القرن العاشر أصبحت تلك الناحية مركزاً علمياً طوال القرنين اللاحقين . وغدت لياج وغورز وكولون وسواها من مدن اللورين أخصب تربة لنمو العلوم العربية . ومن اللورين سرت موجة الدراسات العربية إلى سائر أنحاء المانيا ، ومنها انتقلت إلى انكلترا النورمندية بواسطة علماء ولدوا وتهذبوا في اللورين . وهكذا تخلّلت العلوم العربية الاندلسية سائر أنحاء أوروبا الغربية .

أفول نجم العروبة في الشرق والغرب

إن كان ثمّة ما يضارع السرعة المدهشة التي افتتح بها أبناء البادية العربية معظم العالم المتمدن في القرن الاسلامي الأول فهو سرعة انحطاط السلطة العربية ما بين منتصف القرن الثالث والرابع من بعد محمد . فحوالى سنة ٨٢٠ كان قد استقام لخليفة بغداد من السلطة الواسعة ما لم يستقم لعاهل آخر في تلك العصور . حتى إذا كانت سنة ٩٢٠ كان الخليفة قد أضاع كل سلطته حتى في بغداد نفسها . وما وافت سنة ١٢٥٨ حتى سقطت بغداد وأصبحت خراباً . وبسقوطها زال السؤدد العربي واضمحلّت الزعامة العربية وانتهى تاريخ الخلافة العربية الشاملة .

وإذا بحثنا الاسباب المؤدّية إلى هذا الانحطاط والسّقوط وجدنا ان هجمات القبائل البربرية من مغول وتتر على كثرتها

وشدّتها كانت في الواقع ثانوية . كذلك نشوء الدول العديدة والامارات المستقلة في قلب الخلافة وعلى أطراف مناطقها ما كان إلاّ عَرَضاً من أعراض داء الخلافة لا سبباً من أسبابه . ومَثَل الخلافة في ذلك مَثَل الامبراطورية الرومانية الغربية من قبل التي أصبحت بمثابة رجل عليل على فراش الموت فانتهز اللصوص فرصة مرضه فسطوا على بيته ونهبوا حصّتهم من ميراثه .

أما العوامل الداخلية في سقوط الخلافة فأهمّ من العوامل الخارجية . وإن القارئ الذي تتبّع الفصول السابقة لا ريب أدرك الاسباب الحقيقية ولاحظ مفعولها خلال القرون . فالكثير من الفتوحات الاسلامية الاولى لم يكن إلاّ اسمياً . ولم تكن طريقة الحكم بما رافقها من الاستهتار بحقوق الشعب واستغلاله وجباية الخراج مما يعين على الاستقرار والدوام . ولقد ظلت الفوارق الجنسية والدينيّة بين العرب وغير العرب وبين المسلمين وأهل الذمة تفعل مفعولها حتى في الجماعة العربية نفسها . فالعداوة القديمة بين أهل الشمال وأهل الجنوب بقيت مستحكمة . ولم يكن هنالك امتزاج كافٍ بين الفرس الايرانيّين والترك الطورانيّين والبربر الحاميين وبين العرب الساميّين لتتكوّن منهم أمة متجانسة موحدة بل ظلت هذه العناصر المختلفة بلا رابطة متينة تُحكم الوثاق بينها . فأبناء ايران لم ينسوا قط مجدهم الشعبي القديم ولم يرضوا بالنظام الجديد رضى تامّاً . أما معاشر البربر فلا أدلّ على شعورهم القبلي وكثرة اختلافاتهم

من انضمامهم إلى مختلف الفرق الاسلامية غير السنيّة . كان أهل الشام لا يفتأون يترقبون ظهور زعيم سُفياني يرفع عن كواهلهم كابوس النير العباسي . ولقد ظهر ضمن نطاق الدين نفسه من النزعات المتنافرة ما لا يقلّ اثراً عن فعل الاحزاب السياسية في تمزيق الاواصر . ومن هذه النزعات نشأت الشيعة والقرامطة والاسماعيلية وجماعة الحشاشين وغيرهم . إلا ان هذه الفرق لم تقصر همها على الدين وحده . فالقرامطة فاجأوا الجانب الشرقي من الامبراطورية بضربات قاصمة . وما طال أمر الفاطميين حتى استولوا على الامصار الغربية . والواقع ان الاسلام عجز عن ادماج أتباعه في وحدة متراصّة كما عجزت الخلافة عن ربط الأراضي المتاخمة للبحر المتوسط بأراضي آسيا وجعلها كلها دولة واحدة منيعة .

وهنالك عوامل اجتماعية وأخلاقية كان لها مفعولها في تفكيك عرى الدولة وتجزئتها . فاختلاط دم العرب الفاتحين على كرّ الاجيال بدم الموالي أفقدهُ خصائصه الذاتية وأدّى إلى ضياع سلطة الغالب . وبانحطاط الحياة القومية العربية وهنت قوى العرب وضعفت معنوياتهم فأخذت السيادة تنتقل تدريجياً إلى أيدي الاقوام المغلوبة حتى صارت لهم بكاملها . وكان للتسرّي بما فيه منشآت الحريم والخصيان ضلع في تقويض معنويات الامة . ورافق ذلك إقتناء الجواري والغلمان فأدّى هذا كله إلى انحطاط مقام المرأة وفساد اخلاق الرجل . وبالسراري المتعددات تكاثر الابناء المولودون من أمهات مختلفات في بلاط الخلافة

واتسع المجال للتحاسد والفتن . وعظم الترف والبذخ بمافيه الاسراف في الشرب والغناء . فكل هذه العوامل وما يماثلها امتصت حيوية الاسرة المالكة فنتج عن ذلك ظهور اولياء عهد ضعفاء الاجسام والنفوس . ومما زاد في الاضطراب ان حق التعاقب في الخلافة لم يكن منصوصاً عليه بصراحة .

كذلك كان للعوامل الاقتصادية أثرها . فالخراج المرهق وتقسيم البلاد إلى مقاطعات تحكمها الطبقات الآمرة لمصلحتها الخاصة أوهن الحياتين الزراعية والصناعية. فكان الشعب يزداد فقراً كلما ازداد الحكام غنىً . وقامت دويلات ضمن دول ابتزّ اولياء الأمر فيها أموال الرعية . وقضت الحروب المتواصلة بانقاص عدد الرجال فغدت المزارع مهجورة خَربة . وزاد تكرر الفيضان في أنجاد العراق الجنوبية والمجاعات في مختلف أنحاء الامبراطورية في مصائب القوم وشقائهم . وانتشرت الاوبئة من طاعون وجدري وملاريا وسواها من الحميّات التي وقف الانسان حيالها في العصور الوسطى مكتوف اليدين ففتكت في السكان فتكاً ذريعاً . وقد سجلت المدوّنات العربية للقرون الاربعة الأولى من التاريخ الاسلامي ما لا يقلّ عن أربعين وباء كبيراً .

أما أسباب انحطاط السيادة الاسلامية في اسبانيا وغيرها من الاقطار الأوروبية فكانت على وجه العموم من نوع الاسباب التي أدّت إلى سقوط الخلافة في الناحية الشرقية والوسطى من الامبراطورية . إلا ان الضربة القاضية هنا جاءت على يد

المسيحيين لا المُغول . فعلى اطلال الخلافة الاموية في قرطبة التي سقطت سنة ١٠٣١ نشأت مجموعة من دويلات اسلامية صغيرة انهكت قواها في المخاصمات . فشهد النصف الأول من القرن الحادي عشر ما لا يقل عن عشرين دويلة قامت في نحو عشرين مدينة أو مقاطعة وساسها زعماء وأمراء يُعرفون بـ « ملوك الطوائف » . واستتبّت الزعامة الأولية في البداية لاشبيلية التي تمتع بلاطها بحقبة من الازدهار لم تبزّها فيه غير قرطبة . وقبل اختتام القرن وقعت دولة إشبيلية مثل غيرها فريسة لدولة من بربر مراكش . ومن هنا ابتدأت زعامة البربر في اسبانيا .

وعُرفت دولة البربر التي حكمت افريقيا الشمالية الغربية والاندلس (١٠٩٠ — ١١٤٧) بدولة المرابطين . والمرابطون في الأصل أخوية دينية عسكرية كانوا كأحفادهم الطوارق الضاربين في جنوبي الجزائر إلى هذا اليوم يُغطّون وجوههم ما دون العيون باللثام ، فعُرفوا بالملثّمين . وتلا هذه الدولة دولة أخرى من البربر عُرفت بدولة الموحّدين . أما اشهر دولة من دول الطوائف العربية فكانت دولة بني نصر في غرناطة التي شاد أحد أفرادها محمد الملقب بالغالب (١٢٣٢ — ١٢٧٣) دارهُ الشهيرة في الخافقين بالحمراء .

والواقع ان انحطاط السيادة الاسلامية إنما يبدأ بنشوء دُويلات ملوك الطوائف في الشرق وفي الغرب . وإذا كان لا يعنينا هنا تتبّع تقلّبات هذه الدويلات فيجدر بنا على الاقل تدوين الهام من هذه القصة لا سيما قصة عهد السيادة الاسلامية

الأخيرة في أوروبا . وهي قصة ممتعة تدلّ أبداً بوضوح على اتجاه نحو الاندماج والتناسق بين مختلف الشعوب والثقافات حتى في الاوقات التي كانت تحاول الفئة فيها إبادة الأخرى . والحق ان مقدرة المرء على إتحاف غيره بعلمه وفنه دليل على ما في مدنيته من رفعة وديمومة .

بدأ استرجاع النصارى للاندلس منذ سقوط الخلافة الأموية في القرن الحادي عشر . والواقع ان المؤرخين الاسبانيين يعتبرون موقعة كوفادونغا Covadonga سنة ٧١٨ التي صدّ فيها الزعيم الاستوري بلايو Pelayo تقدّم المسلمين بدء عهد الاسترجاع . ولو تمكن المسلمون في القرن الثامن من القضاء على آخر بقايا السلطة النصرانية في الجهة الشمالية الجبلية لكان تاريخ اسبانيا التالي غير ما هو عليه اليوم . ومما عاق عملية الاسترجاع في أول الأمر النزاع والتنافر بين زعماء النصارى في الشمال ولكنها زادت سرعةً حالما تمّ توحيد قشتالة وليون سنة ١٢٣٠ . ولم ينتصف القرن الثالث عشر حتى تمّ تقريباً استرجاع البلاد بأسرها باستثناء غرناطة التي بقيت بأيدي المسلمين. وكانت طُلَيْطُلة قد سقطت سنة ١٠٨٥ وتلتها قرطبة في ١٢٣٦ وإشبيلية في ١٢٤٨ .

واستهدفت اسبانيا بعد منتصف القرن الثالث عشر عمليتين رئيسيتين : أولاً تنصير البلاد وثانياً توحيدها . وقد اختلف تنصير البلاد عن استرجاع ملكيتها وعن توحيدها . فالقسم الوحيد من شبه جزيرة أيبيرية الذي تأصلت فيه جذور الاسلام

كان حيث زهت الحضارة الساميّة القرطجنية من قبل . ومثل ذلك ينطبق على صِقلية ، وهو أمر له أهميته . فعلى وجه العموم كان الحد الفاصل بين الاسلام والنصرانية يطابق الحدّ الفاصل القديم بين المدنية الفينيقية القرطجنية والمدنية الغربية . وما حل القرن الثالث عشر حتّى أصبح الكثيرون من المسلمين في طول البلاد وعرضها تحت سلطة النصارى إما بالغلبة أو بالمعاهدة . ولكنهم في ما عدا ذلك حافظوا على شرائعهم وديانتهم . وقد أطلِق على أمثال هؤلاء من المسلمين اسم المدَجنّين . وكثيرون منهم كانوا قد استبدلوا بالعربية لغة الرومانس الاسبانية واندغموا في الجماعة المسيحية .

لم يكن توحيدا سبانيا النهائي سريعاً ولكنه كان أكيداً . وكانت البلدان المسيحية كلها آنئذ تتألف من مملكتي قشتالة وأراغون . وجاء زواج فرديناند ملك الأراغون من إيزابيل ملكة قشتالة في سنة ١٤٦٩ منجزاً لتوحيد المملكتين توحيداً تاماً ومنذراً بالقضاء على سلطة المسلمين في اسبانيا . ولم يكن في مقدور سلاطين بني نصر الصمود أمام هذا الخطر المحدق المتزايد . وقد تورّط المتأخرون منهم في مشاكل سلالية زادت مركزهم تقلقلاً وضعفاً . فبين السلاطين الواحد والعشرين الذين حكموا البلاد من سنة ١٢٣٢ إلى ١٤٠٢ ستة تولّى كلٌ منهم الأمر مرّتين ، وواحدٌ تولاّه ثلاثاً . وفي ٢ كانون الثاني من سنة ١٤٩٢ ، وهي السنة التي اكتشف فيها كولمبس اميركا ، دخلت الجيوش المسيحية غرناطة بعد حصار طويل شديد وحلّ

الصليب محل الهلال في أبراجها .

ولكنّ صاحبي الجلالة الكاثوليكية فرديناند وإيزابيل نكثا العهد ونقضا الشروط . ففي سنة ١٤٩٩ انتُدِب الكاردينال خيمانِس Ximenez كاهن الملكة الخاصّ ليتزعم حملة اكراه المسلمين على التنصّر . وأراد الكاردينال أول الأمر مصادرة الكتب العربية التي تُعنى بالاسلام وحرقها . وفي قُرْطُبَة جمعت المخطوطات العربية أكواماً أضرمت النار فيها . ثم أنشىء ديوان التفتيش وهو من الدواوين التي جاءت بالمظالم المشهورة في التاريخ . فاضطُرّ كثيرون من المسلمين إلى مغادرة البلاد . أما من لم يَهجر البلاد من المسلمين بعد سقوط غرناطة فسمي بالـ « مورِيسْكو » Morisco وهي لفظة أطلقت أولاً على معتنقي الاسلام من الاسبانيين . وكان الرومان قد أطلقوا على افريقيا الغربية اسم مُورِيتانيا وعلى سكانها « مُوري » ، ولعل أصل هذه اللفظة فينيقي وتعني « غرْبي » . وهكذا جاء الاسم بالاسبانية « مورو » Moro وفي الانكليزية « مُور » Moor . فالبربر هم « المور » الحقيقيون. غير ان هذه اللفظة أطلِقَت اصطلاحاً على كل مسلمي اسبانيا وافريقيا الشمالية الغربية . فنصف المليون من مسلمي جزائر الفيليبين لا يزالون يُعرفون بهذا الاسم . وقد أطلقه الاسبانيون عليهم عندما اكتشف مجلاّن هذه الجزائر في سنة ١٥٢١ .

وكان للمسلمين من الاسبان لهجة رومانسية إلا انهم استخدموا

الحروف العربية لكتابتها وتحدّر الكثيرون من الموريسكو ، إن لم يكن سوادهم ، من أصل اسباني . ولقد جرى الآن تذكيرهم بأن أجدادهم إنما كانوا نصارى وان عليهم قبول المعمودية أو تحمّل العواقب . وجُعل المدجّنون والموريسكو في فئة واحدة فتظاهر الكثيرون منهم بالنصرانية لكنهم مارسوا الاسلام سراً . وتزوج كثيرون منهم علناً وفق الشعائر المسيحية ثم عادوا وتزوجوا سراً حسب السنّة الاسلامية . ومنهم من اتخذ اسماً مسيحياً عرفهُ به الناس وآخر عربياً عُرف به سراً . وفي سنة ١٥٠١ صدرت ارادة ملكية تقضي على من في قشتالة وليون من المسلمين إما بالرجوع عن دينهم أو بالجلاء عن البلاد . والظاهر ان هذه الارادة لم تنفّذ . وفي سنة ١٥٢٦ واجه مسلمو الأراغون المعاملة نفسها . وفي سنة ١٥٥٦ أصدر فيليب الثاني قانوناً يقضي على البقية الباقية من المسلمين بالتخلي فوراً عن لغتهم وعباداتهم ومعاهدهم وعاداتهم . وأمر أيضاً بهدم الحمّامات الاسبانية باعتبار انها من تراث عهد الالحاد . فتعالت الشكوى بين المسلمين ونشبت الثورة للمرة الثانية في غرْناطة وانتشرت إلى ما جاورها من الجبال ، إلا ان امرها لم يطل . أما القرار الاخير بالطرد فقد أمضاه فيليب الثالث سنة ١٦٠٩ ونجم عنهُ إجلاء كل المسلمين تقريباً عن الأراضي الاسبانية قسراً . وقيل ان عدد الذين جرى نفيهم على هذه الطريقة بلغ نصف المليون نزل بعضهم سواحل افريقيا وركب بعضهم الآخر سفناً حملتهم إلى أقاصي البلدان الاسلامية . ومن هؤلاء

الموريسكو تألف معظم قراصنة البحر المرّاكشيين . وبهذا حُلّت المشكلة الاسلامية في اسبانيا التي شذت عن القاعدة القائلة بثبوت المدنية العربية الدائم حيثما حلّت أقدام العرب . وبهذه المناسبة يقول أحد ثقات الانكليز المحدثين « أقصِيَ المسلمون عن البلاد وأشرق مُحَيّا اسبانيا المسيحية ردحاً من الزمن كالبدر ذي النور المستعار ثم حلّ الخسوف ، وما زالت البلاد تتسكّع في الظلمات منذ ذلك الحين » .

وانقرضت جميع معالم الفنّ الديني في الاندلس ما عدا مسجد قُرْطُبة ، وهو من أقدم تلك الآثار وأفخمها . وضع أساسهُ عبد الرحمن الأول سنة ٧٨٦ في الموقع الذي قامت فيه كنيسة كانت في الأصل هيكلاً رومانياً وأكمل ابنهُ هشام الأول الجانب الرئيسي من هذا المسجد سنة ٧٩٣ وأضاف اليه مئذنة مربعة الشكل . وقد اتّبع في بناء المآذن الاسبانية الانموذج الافريقي الراجع إلى أصل شامي . وكان يدعم سقف هذا المسجد ١٢٩٣ عموداً ظهرت كأنها غابة كثيفة من الاشجار . وأضيء بفوانيس نحاسية صنعت من اجراس الكنائس . وكان بين ثريّاته واحدة يوقد فيها ألف مصباح . أما صغرى هذه الثريات فكان فيها اثنا عشر مصباحاً . واستُخدم في زخرفة بنائه صنّاع بيزنطيون مَهَرَة مثل الذين يقال انهم استُخدموا في بناء مساجد الشام . وكان مؤسسه قد أنفق في بنائه ثمانين الف قطعة ذهب من غنائم القوط . وظلت عملية التوسيع والاصلاح تتناول أفناء هذا المسجد حتى زمن الحاجب

المنصور (٩٧٧ – ١٠٠٢) وهو اليوم كاتدرائية تحمل اسم عذراء الصعود .

أما الآثار الدنيوية فأبدعها القصر Alcazar في إشبيلية والحمراء في غرناطة وهما أنفس الآثار الباقية بما تضمناه من الزخرفة الفنية البديعة . وأقدم جانب من القصر في إشبيلية بناهُ مهندس معماري طُلَيْطُلي لأحد عمال الموحدين سنة ١١٩٩ – ١٢٠٠ . والموحّدون هم بُناة الدولة البربرية الثانية التي حكمت الأندلس بعد دولة المرابطين . ثم أعيد بناء هذا القصر على الطراز الاسلامي بأمر بطرس الصارم سنة ١٣٥٣ . وقد قام بذلك بعض صناع المدجّنين ونزلتهُ الاسرة المالكة بضع سنين. وليس من قصور الاندلس الشهيرة في قُرْطُبة وطُلَيْطُلَة وسواهما ما هو قائم إلى اليوم إلا قصر إشبيلية وهو أشهرها . ومما يؤسف له ان هذا القصر أصيب باضرار خلال الثورة الاسبانية الأهلية الأخيرة .

وأما فنّ الزخرفة الاسبانية العربية فبلغ أوج مجده في قصر الحمراء . والحق ان هذا « الاكروبوليس » بغَرناطة ، بما فيه من الافراط في التزويق بالفسيفساء والمتدليات الكلسية من السقوف والنقوش وباعتبار عظم حجمه ، ليُعدّ أفخر ما بُني من هذا النوع . وكان محمد الأول الغالب من بني نصر قد شرع في بناء الحمراء حوالي سنة ١٢٤٨ . ولكن بناءَها لم يتم حتى منتصف القرن الرابع عشر .

وكانت القنطرة ذات الشكل النعلي التي تميزت بها هندسة

البناء الاسلامية في الغرب معروفة في الشرق الأدنى قبل الاسلام. وقد ظهر شكلها النعلي المستدير في الجامع الأموي في دمشق. وكان هذا النوع الاخير الذي عُرف في الغرب بـ «القنطرة المغربية» معروفاً بلا شك في اسبانيا قبل الفتح العربي ولكن المسلمين الاسبانيين وبخاصة أهل قرطبة أدركوا امكانياته البنائية والزخرفية فاعتنقوه عامة. وتحفة أخرى قدمها عرب قرطجنّة هي أصول بناء الأقبية القائمة على قبب متقاطعة وضلوع ظاهرة متقاطعة. فهذه وسواها من خصائص الفن المعماري ارتفعت في قرطبة وانتقلت منها على يد المستعربين إلى طليطلة وسواها من مراكز الشمال في شبه الجزيرة. فنشأ هنالك بتمازج التقليد النصراني والتقليد الاسلامي أنموذج جديد في الفن المعماري قوامه القناطر النعلية والاقبية. وبلغ هذا الفن الممزوج على أيدي الصناع المدجّنين درجة عالية من الجمال والكمال فلم يلبث ان برز فناً اسبانياً قومياً.

ولقد ظل لأهل الرقص والغناء من العرب نصيب وافر في عرض الملاهي على أبناء اسبانيا والبرتغال إلى ما بعد سقوط غرناطة بزمن طويل. وتميل ابحاث بعض المستشرقين الاسبان إلى الاعتقاد بأن موسيقى اسبانيا العامية لا بل موسيقى الجنوب الغربي من أوروبا خلال القرن الثالث عشر وما بعده، شأن الروايات الغرامية الغنائية والتاريخية في تلك الارجاء، ترجع في الأصل إلى منبع اندلسي وعن طريق العربية إلى مصادر فارسية وبيزنطية ويونانية. وكما ان الفلسفة وعلم الرياضيات والطب

انتقلت من بلاد اليونان وروما إلى بيزنطية وفارس وبغداد ثم إلى اسبانيا ومنها إلى كافة أنحاء أوروبا هكذا انتقلت عدة فروع من الموسيقى النظرية العملية .

وليس من شك في ان البلاد الأوروبية الوحيدة التي رسخت فيها أقدام العرب ، باستثناء اسبانيا ، هي صقلية . ففي سنة ٦٥٢ وجه العرب حملات متقطعة للاستيلاء على هذه الجزيرة ولكن فتحها لم يتمّ حتى سنة ٨٢٧ . وغدت صقِلية طيلة المائة والتسع والثمانين السنة التي تلت تحت سلطة حكام مسيطرين جعلوها كلها أو بعضها قطعة من العالم العربي وعاصمتها بَلَرْم (بالرمو) .

وكما كانت اسبانيا مركزاً لشن الغارات الاسلامية على الشمال واحتلاله موقتاً هكذا أصبحت صِقِلّية بالنسبة إلى ايطالية وحملات العرب عليها . وكان الأمير ابراهيم الثاني من اغالبة تونس الذين حكموا صِقِلّية قد جرّد قبل موته سنة ٩٠٢ حملات عبر المضيق إلى الجهة الجنوبية الغربية من ايطاليا المعروفة بِقَلَّورية (كَلابريا) Calabria . وهو ليس أول عربي وطئت قدماه تربة ايطاليا . وبعد سقوط بَلَرْم بوقت قصير أخذ قواد الأغالبة من افريقيا الشمالية يتدخلون في المنازعات بين اللامبارديين من سكان ايطاليا الجنوبية . أما « الكعب » و « الابهام » من القدم الايطالية فكانا يومئذ لا يزالان خاضعين للامبراطور البيزنطي . ولما استنجدت نَابل (نابولي) Naples سنة ٨٣٨ بالعرب لم يتردّدوا عن التلبية . وصارت منحدرات جبل

فزوفيوس تردد صيحات الحرب . وبعد مضي اربع سنوات وقعت باري على البحر الادرياتيكي في يد المسلمين وأصبحت القاعدة الرئيسية لهم مدى الثلاثين السنة اللاحقة. وفي هذه الآونة ظهر الظافرون بجوار البندقية (فنيس) . وفي ٨٤٦ تهددوا رومة بعد أن نزلت فيالقهم عند مرفئها البحري أوستيا Ostia وإذ عجزوا عن اختراق أسوار المدينة الأبدية سلبوا كاتدرائية القديس بطرس في فناء الفاتيكان وكاتدرائية القديس بولس خارج الاسوار وعبثوا بقبور البابوات.وبعد ثلاث سنوات وصل اسطول اسلامي آخر مرفأ اوستيا ، إلا ان الاسطول الايطالي تمكن بمساعدة عاصفة بحرية هوجاء من القضاء عليه . وهناك صورة من ريشة روفائيل تمثل هذه الموقعة البحرية ونجاة رومة العجيبة إلا ان سيطرة المسلمين على ايطالية بقيت محكمة حتى ان البابا يوحنا الثامن (٨٧٢–٨٨٢) رأى من الحكمة تأدية الجزية لهم طوال سنتين .

ولم ينحصر الاغالبة أعمالهم الحربية في شواطىء ايطاليا . ففي سنة ٨٦٩ فتحوا جزيرة مالطة.ومن ايطاليا واسبانيا امتدت في القرن العاشر غزوات القرصنة من مضايق الالب حتى أوروبا الوسطى . وفي الالب اليوم عددمنالقلاع والاسوار التي يقول الادلاء للسياح إنها ترتقي إلى الفتحالاسلامي . ولعل أسماء بعض الأماكن في سويسرا عربية الأصل .

وجاء استرجاع النصارى لباري (سنة ٨٧١) بدء نهاية الخطر على ايطاليا وأوروبا الوسطى من المسلمين . وكان قواد الجيش العربي في باري قد بلغ بهم الأمر ان أعلنوا أنفسهم

« سلاطين » مستقلين عن الامير المقيم في بَلَرْم . وفي سنة ٨٨٠ نشط الامبراطور البيزنطي باسيليوس الأول فانتزع طارَنت (تَرَنتو) ، وهي قلعة حصينة ، من أيدي المسلمين في قَلَّوريَة . وبذلك انتهت آخر مراحل التوسّع العظيم الذي كان بدؤه في جزيرة العرب النائية قبل قرنين ونصف القرن . وحتّى هذا اليوم نجد الشاطئ الجميل إلى الجنوب من نابُل مرصعاً بعدد من « الابراج العربية » التي كانت تعتمد للاعلان عن مقدم الاساطيل العربية من صقلية أو من افريقيا .

وبدأ الفتح النورمندي لجزيرة صِقِلّية باحتلال الكونت روجر Roger بن تانكرِد ده هوتفيل Tancred de Hauteville في سنة ١٠٦٠ لمدينة مسّينا ، الأمر الذي أفضى إلى سقوط بَلَرم سنة ١٠٧١ وسَرَقُوسَة Syracuse في سنة ١٠٨٥ . وانتهى الاستيلاء على كل الجزيرة في ١٠٩١ . وفي سنة ١٠٩٠ احتلّ روجر مالطة. وقد كان لهؤلاء النورمنديين الاشداء دولة قوية في القارة الأوروبية . وهاهم الآن يثبّتون أقدامهم في الممتلكات الجديدة .

وشاهدت صِقِلّية في عهد النورمنديين ظهور ثقافة نصرانية اسلامية رفيعة . وسرت إلى هذه الجزيرة — وهي حافلة بذكريات المدنيات السابقة — طيلة الحقبة العربية مجاري الثقافة الشرقية التي امتزجت بتراث اليونان والرومان الثمين فبرزت بشكل خاص تحت لواء الحكم النورمندي وطبعت ثقافة النورمنديين بميزتها الخاصة . وكان العرب إلى هنا منهمكين

بحروبهم وخصوماتهم فلم يتسع لهم الوقت ليرقّوا الفنون التي تروج أيام السلم . أما الآن فقد أطلقوا العنان لمواهبهم الخصبة وأخرجوا انتاجاً قيماً في الفن والثقافة العربية النورمندية .

ومع أن روجر الاول كان نصرانياً غير مثقف فقد جعل معظم جيش المشاة من المسلمين وشمل العلوم العربية بعطفه . فأحاط نفسه بالفلاسفة الشرقيين والمنجمين والأطباء ومنح غير النصارى كامل الحرية في ممارسة طقوسهم ، حتى أن بلاطه في بَلَرْم كان شرقياً أكثر منه غربياً . وبقيت صقلّية بعده مدةً تزيد على القرن فريدة من حيث كونُها مملكةً نصرانية اتصفت باسناد بعض المناصب العليا فيها إلى رجال مسلمين .

وأقدم وثيقة مكتوبة على الورق في أوروبا تلك التي تتضمن أمراً إدارياً أصدرته باللغة اليونانية والعربية زوج روجر الأول وذلك في الراجح سنة ١١٠٩ . والمظنون ان هذه الوثيقة كتبت على ورق استورده عرب صقلية من الشرق .

وكان روجر الاول أول من أحيا العربية من ملوك صقِلّية . وتلاه في العناية بها ابنهُ روجه الثاني (١١٣٠ — ١١٥٤) . ثم فردرك الثاني . أما روجر الثاني فارتدى الملابس الاسلامية حتى سماه ناقدوه « الملك نصف الوثني » . وكانت جبته تزدان بالحروف العربية . وفي ولاية حفيده وليم الثاني (١١٦٦— ١١٨٩) شاهد ابن جُبَير النساء النصرانيات في بَلَرْم خارجاتٍ في زيّ المسلمات .

وكان الادريسي وهو أشهر عالِم في الجغرافية ورسم

الخرائط في العصور الوسطى المعَ شخصية ازدان بهـا بلاط روجر الثاني . ولد أبو عبد الله محمد بن محمد الادريسي سنة ١١٠٠ من أبوَين عربيين اندلسيين وتوفي سنة ١١٦٦ . وتجلت مواهبه في بَلَرْم حيث وقف حياته على الانتاج الأدبي برعاية روجر الثاني . أما رسالتهُ (كتاب روجار (الموسومة بنزهة المشتاق في اختراق الآفاق فلا تقتصر أهميتها على تلخيـص الموضوعات الرئيسية التي عُنيت بها الكتب السابقة كمؤلفات بطليموس والمسعودي بل قامت في الدرجة الأولى على تقارير مبتكرة حملها اليه رواة كان قد أوفدهم إلى بلدان متفرقة لكي يأتوه بالمعلومات والملاحظات . وقد أظهر الادريسي في غربلة هذه المواد وتحرّي حقائقها رجاحة عقل كبرى ، وفهماً لدقائق الأمور كادراكه كرويـّة الأرض . وهو الذي عين منبع نهر النيل في أنجاد افريقيا الاستوائية على الرغم من القول الشائع بأن اكتشاف منبع هذا النهر لم يتم إلا في أواسط القرن التاسع عشر. وفضلاً عن هذا المؤلف الضخم فان الادريسي صنع لوليّ نعمته النورمندي كرةً سماوية وخريطة للعالم في شكل قرص ، وكلتاهما من الفضة .

كان روجر الثاني أحد « سلطاني صِقِلّية المعمّدَين » . أما السلطان الآخر فهو حفيدهُ فردرك الثاني الذي بسط حكمهُ على صِقِلّية والمانيا . وعلاوة على تمتعه بعد سنة ١٢٢٠ بلقب « امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة » فقد أصبح ملك بيت المقدس بفضل زواجه من ولية العهد ايزابيل البرِيِنْيـــة

Isabelle of Brienne . وإذاً فقد كان للامبراطور فردرك أعظم سلطة مدنية في العالم المسيحي لذلك العهد.وبعد زواجه بثلاث سنوات قام بحملة صليبية عاد منها وقد ازداد تأثره بالافكار الاسلامية .

وكان فردرك في عاداته الشخصية وحياته الرسمية شبه شرقي حتى انه أقام لنفسه بيت حريم خاص . وزها في بلاطه فلاسفة من سورية وبغداد ذوو لحى مستطيلة وملابس فضفاضة وقيان وراقصات شرقيات ويهود شرقيون وغربيون . ولقد أظهر اهتماماً خاصاً بالعالم الاسلامي تجلى في علاقاته السياسية والتجارية وأخصامها ما كان مع سلطان مصر الأيوبي . واستدعى اختصاصيين من مصر لاجراء التجارب في بيض النعام وحضانتها بحرارة الشمس . وأحضر من سورية رجالاً ذوي كفاءة وبراعة في ترويض البزاة ، وكان يراقبهم في تدريب هذه الطيور التي كان يُجري التجارب عليها بأن يخيط عيونها ويطلقها ليتحقق فيما إذا كانت تهتدي إلى طعامها بواسطة حاسّة الشمّ . وعهد إلى ترجمانه ومنجّمه ثاذرى (ثيودور) وهو نصراني يعقوبي من انطاكية بنقل رسالة عربية في موضوع البزاة . وهذه الترجمة وترجمة أخرى من الفارسية ، جاءتا أساساً للكتاب الذي وضعه فردرك في ترويض البزاة والصيد بها . وهو أول مصنّف في التاريخ الطبيعي . وكان قد سبق ثاذرى في خدمة البلاط المنجم ميخائيل سكوت الذي تمثلت فيه العلوم الاسلامية في صقلّية واسبانيا من سنة ١٢٢٠ — ١٢٣٦ ، وقد هيأ ميخائيل سكوت

للامبراطور عن طريق الترجمة من العربية إلى اللاتينية موجزاً تضمّن خلاصة مؤلفات ارسطو في البيولوجيا وعلم الحيوان مع شرح ابن سينا فقدّمه إلى وليّ نعمته . فهذه الروح التي تكاد تكون حديثة — روح التنقيب والبحث والاختيار التجريبي التي امتاز بها بلاط فردرك — كانت فاتحة عصر النهضة العلمية الايطالية .

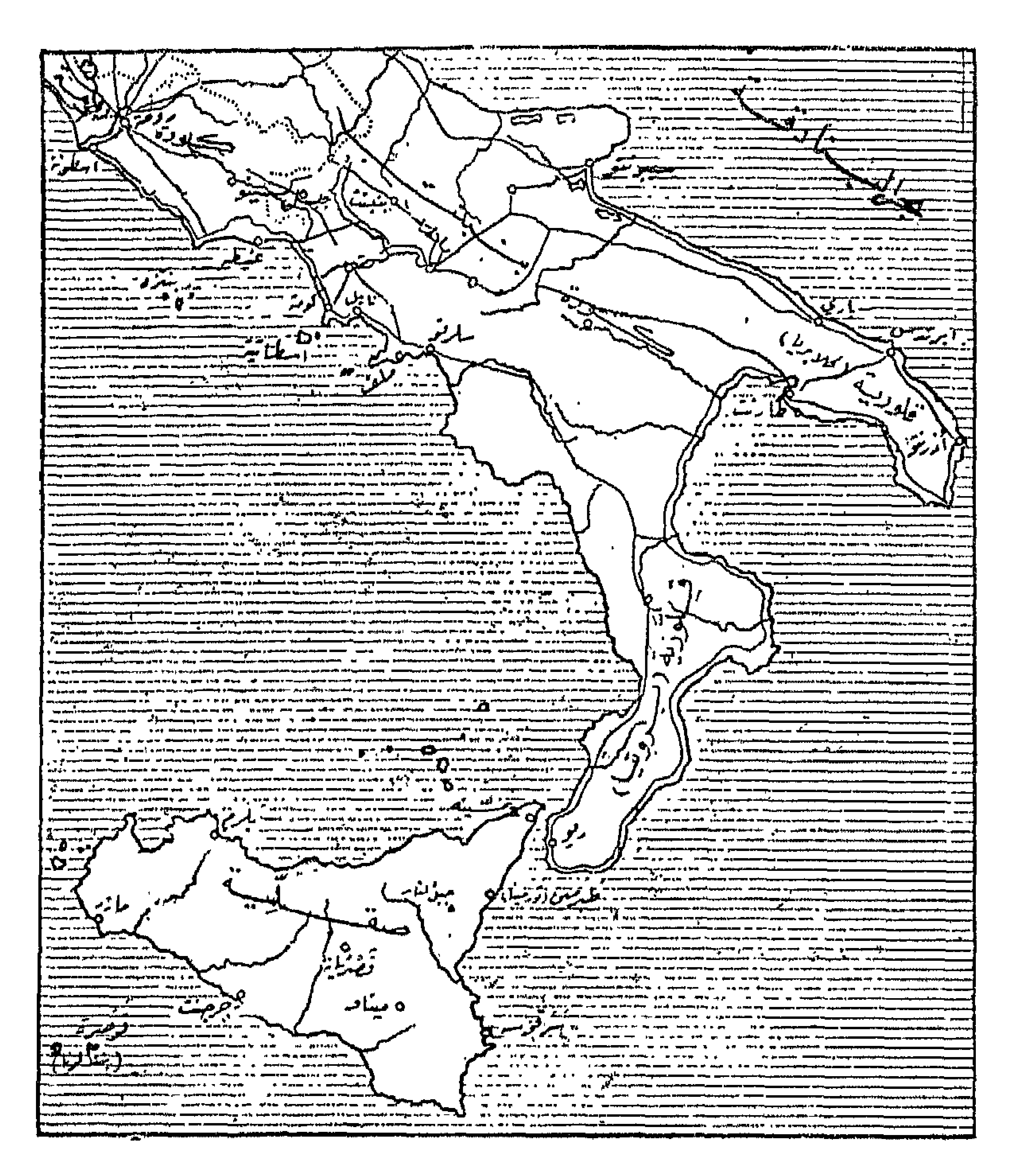
أما أعظم مآتي فردرك فتأسيس جامعة نابُل في سنة ١٢٢٤ وهي أول جامعة في أوروبا تأسست ببراءة رسمية . وقد أودع فردرك هذه الجامعة مجموعةً كبيرة من المخطوطات العربية . وأمر بترجمة مصنفات ارسطو وابن رشد لتُصبح كتب التدريس فيها . وقد أرسلت نسخٌ من هذه الترجمات إلى جامعتي باريس وبولونيا Bologna . وكان في عداد تلامذة جامعة نابُل تُوماس الأقويني أحد أعلام الفلسفة المسيحية المدرسية (سكولاستيك) . وفي القرن الرابع عشر والقرون اللاحقة غدت الدراسات العربية جزءاً من مناهج عدة جامعات في أوروبا . ومنها جامعتا اكسفورد وباريس . ولكن الباعث على ذلك اختلف عما كان عليه سابقاً وانتهى إلى أن يكون إعدادَ المرسلين المسيحيين إلى البلدان الاسلامية .

وكانت صقلّية نقطة التلاقي لثقافتين ممتازتين. ولقد توفرت فيها الأسباب لتكون واسطة لنقل علوم العصور القديمة والعصور الوسطى . وكان سكانها يتألفون من عنصرين : عنصرٍ يوناني يتكلم اليونانية ، وآخر اسلامي يتكلم العربية ، وفئة ثالثة من

العلماء يحسن افرادها اللاتينية . فدرجت هذه اللغات الثلاث على ألسنة القوم في المجالس العامة والخاصة واستُخدمت في السجلات الرسمية وفي إصدار البراءات الملكيّة .

ولما كان الملوك النورمنديون وخلفاؤهم يحكمون علاوة على جزيرة صقلية ايطاليا الجنوبية فقد تسنى لمملكتهم أن تكون جسراً تعبر عليه شتى عناصر الثقافة الاسلامية إلى شبه الجزيرة الايطالية وأوروبا الوسطى . وحوالي منتصف القرن العاشر بدأت آثار العلوم العربية تظهر في شمال الألب . أما آراء دانتي في الآخرة فقد تكون غير مستقاة رأساً من مصدر عربي معين ولكن لا ريب في انها شرقية الاصل استمدها هذا الشاعر من أدب أوروبا العامي لذلك العهد . وهذه المؤثرات الشرقية التي تطرّقت إلى الغرب بواسطة مجار مختلفة ظاهرةٌ في ميدان الفن ظهورها في العلم والأدب . ولقدْ ظل الصنّاع المسلمون وحذاق الفن يزدهرون في صقلّية وجنوبي ايطاليا الأمد طويل بعد خضوع صقلّية والقسم الجنوبي من شبه الجزيرة للحكم المسيحي . تشهد بذلك أنواع الفسيفساء والنقوش في كنيسة البلاتين Palatine. أما معمل الحياكة الشهير الذي أحدثه امراء المسلمين في قصر بَلَرم الملكي فقد أمدّ ملوك أوروبا بالملابس الرسمية مطرزة بالعبارات العربية . وبلغ الطلب على المنسوجات الشرقية درجة عظمى حتى ان الأوروبي لم يكن يحسب نفسه حسن الهندام ما لم يكن في حيازته رداء شرقي واحد على الاقل .

وفي خلال القرن الخامس عشر ، عندما كانت البندقية



صقلية وايطاليا الجنوبية من القرن العاشر الى القرن الحادي عشر
ممثلة « الاحتلال الاسلامي » . انظر ايضاً الخريطة التي على ص٩١

(فنيس) الغنية تُقبل على الازياء الشرقية وتعمل على نشرها ، اكتست الكتب المجلدة في المصانع الايطالية حلةً شرقية. وظهرت الكتب المسيحية حاملةً خصائص التجليد العربي ومن أهمها ردّة الجلد التي تُطوى على الكتاب لصيانة مُقدّمته وفي الوقت نفسه تلقن صنّاع عدة مدن ايطالية ، عن الصنّاع الشرقيين ، طرقاً جديدة في زخرفة جلدتي الكتاب وتزيينها بالرسوم . زد على ذلك ان البندقية أصبحت موطن صناعة عربية أخرى قائمة على ترصيع النحاس الأصفر بالذهب أو الفضة أو النحاس الأحمر . وعلى الجملة فان صِقِلّية من حيث نقلُها الثقافةَ الاسلامية جديرةٌ بمنزلة تجعلها دون اسبانية أهمية وفوق سورية شأناً في زمن الحروب الصليبية .

وفي الوقت الذي كان يُقضى فيه على آثار السلطة الاسلامية في الاندلس كانت الخلافة في بغداد تلفظ أنفاسها الاخيرة بداعي الفتن الدموية والدسائس في الدولة . وظهور الدولة الطولونية في قلب الخلافة الاسلامية خلال القرن التاسع دلّ بوضوح على ما سينتاب هذه الخلافة من الكوارث وعلى كيفية وقوعها . ولقد كانت الدولة الطولونية أبكر تكتّل سياسي قام به العنصر التركي الذي لم يكن له من قبل أثر محسوس . وما لبث ان عقب هذه الدولة دويلات تركية أخرى فاقتها شأناً ومدى . وما أحمد بن طولون الذي استولى على السلطنة سنة ٨٦٨ إلاّ مثالٌ لكثيرين ممن شيدوا على انقاض الخلافة المتداعية دويلات انفصلت عن الخلافة انفصالاً تاماً أو أقرّت بها إقراراً اسميّاً

فقط . وسيرة أحمد تبرهن على مقدار الاستقلال الذي تمكن القواد الطموحون من الاستئثار به عند اعتمادهم على الجيش وانفرادهم بالسلطة السياسية على حساب الحكومة المركزية التي حالت ضخامتها وسعة ممتلكاتها وتباعد أقطارها دون ادارتها بمقدرة وكفاءة . إلا ان الدولة الطولونية وما عقبها من دويلات لم تكن ترتكز على أساس قومي في البلاد التي تولتها ولذلك لم تعش طويلاً . وكان مصدر الضعف فيها عدم وجود جماعة كبيرة في البلاد من العنصر الحاكم تسند الدولة . والحكام أنفسهم إنما كانوا غرباء معتدين انتصروا بحرس أو جيش مأمور افراده دخلاء على البلاد . على ان سلطاناً كهذا لا يدوم إلا ديمومة القائمين به من ذوي الشخصيات البارزة والمواهب الفائقة . حتى إذا ما فترت همة منشئ الدولة أو اميرها اعتورَ الانحلالُ جسمَ الدولة كلها . فلا عجب إذا كانت الدولة التي شيدها ابن طولون رجعت إلى حوزة العباسيين في ولاية شيبان (٩٠٤ — ٩٠٥) ابنهِ ورابع خلفائه .

أما الدولة الوحيدة التي دامت نيفاً وقرنين والتي سطّرت صفحة رائعة في التاريخ فكانت دولة الخلافة الفاطمية ، وهي الخلافة الشيعية الرئيسية الوحيدة في الاسلام . قامت هذه الخلافة في تونس سنة ٩٠٩ متحدّيةً الزعامة الاسلامية التي مثلها خلفاء بغداد العباسيون . ولم يطل الأمر حتى انتشر لواء هذه الدولة على سائر افريقيا الشمالية ومصر . وفي عهدها بلغت القاهرة من الازدهار والعزّ شأواً بعيداً . ولكن دولة الفاطميين ، على الرغم

من هذا السؤدد الذي تمتعت به ، لم تدم مدةً أطول إذ أخذت الدسائس المألوفة تعبث بها وطفق الفسادُ يُضعف من كيانها . زد على ذلك تعسّر أحوال عامة الشعب الذي كان يعتمد في قوته على فيضان النيل ، وما أصابهُ من المجاعات والاوبئة وما فُرض عليه من الضرائب الباهظة التي أثقلت كاهله . إلا ان هذه المحن انتهت بظهور صلاح الدين في عهد الصليبيين وخلعه آخر خلفاء الفاطميين سنة ١١٧١ .

وتمثل الحقبة الفاطمية ، من الناحية السياسية ، فجرَ عصر جديد في تاريخ وادي النيل الذي استرجع بها ، لأول مرة منذ أيام الفراعنة ، سيادته القومية التامة في حكومةعزيزة الجانب شديدة الحيوية قامت على أساس دينيّ . ولقد زارمصر ناصري خُسْرَو الفارسي أحد دعاة الاسماعيلية سنة ١٠٤٦ — ١٠٤٩ ، أي قبل الكارثة الاقتصادية السياسية التي أشرنا اليها ، فدوّن لنا وصفها في لغة تفيض بالاعجاب . ومما ذكرهُ ان قصر الخليفة المستنصر كان يسع ثلاثين الف نسمة منهم اثنا عشر الف خادم والف فارس وحارس . وأنه رأى هذا الخليفة الشاب في أحد الاعياد على بغلة فاذا به فتى وسيم الطلعة حليق الوجه عليه ملابس بسيطة منها قفطان أبيض ، وعلى رأسه عمامة ، وإلى جانبه حاجب يظلله بمظلّة مرصعة بالحجارة الكريمة . وكانلهذا العاهل سبع سفن راسية إلى ضفة النيل طول الواحدة مائة وخمسون ذراعاًوعرضها ستون.وكان الخليفة يملك في العاصمة عشرينالف بيت أكثرها مبني باللّبن ، وتتألف من خمسة أدوار أو ستة

وفي أسفلها مثل ذلك من الحوانيت يؤجر أحدها بما بين الدينارين والعشرة في الشهر . وكانت الشوارع الرئيسية مسقوفة ومضاءة بالقناديل . وكانت لاصحاب الحوانيت أسعار محدودة للبيع فاذا بدر من أحدهم غشّ في معاملته ناله التشهير ، أي أركِب على جمل وطيفَ به في أسواق المدينة على صوت الاجراس وأجبر على المناداة بذنبه. وحتى حوانيت الصاغة والصرّافين كان يتركها أصحابها ليلاً غير مقفلة . وكان في الفسطاط القديمة سبعة جوامع وفي القاهرة ثمانية . وتمتعت البلاد كلها بقسط من الأمن لا يُستقلّ وبجانب من الثروة جعلا ناصِري خُسْرَو يقول : « لم أستطع حصر ثروتها ولا قدرها ولم يسبق لي رؤية تلك النعمة في بلد آخر » .

وفيما كان الفاطميّون يحكمون مصر وافريقيا الشمالية كان الانحلال يدب بسرعة في قلب الامبراطورية الشائخة في بغداد. في هذه الظروف قامت دولة السلاجقة الترك فتمتعت بحقبة رائعة من النفوذ والسموّ في الشرق الاسلامي . وتولى طُغْرُل السلجوقي الحكم في عاصمة الخليفة سنة ١٠٣٧ وعظمت قوة جيش السلاجقة بما انضم اليه من قبائل الترك النشيطة فوسعوا فتوحاتهم في جميع النواحي حتى غدت آسيا الغربية مملكة اسلامية موحدة . فانتعشت السلطة الاسلامية بعد اعتلالها وعاد إلى الاسلام مجده — ذلك ان عنصراً جديداً من آسيا الوسطى تدفقت أمواجه فشد أزر الاسلام في طموحه إلى السيادة العالمية . والواقع ان قصة هؤلاء السلاجقة الكفار الذين قهروا المؤمنين من ملة محمد

ثم اعتنقوا الاسلام فانقلبوا حماته الغُـر ليست فريدة في تاريخ هذا الدين . فقد سلك مسلكهم أقوام أخرى منهم أبناء عمهم المُغُـول في القرن الثالث عشر وذوو قرباهم الترك من آل عثمان في مطلع القرن الرابع عشر . وهكذا كان يُقيّض للاسلام في أشد ساعاته من يدخل في حظيرته فيساعده على تحقيق أهدافه ومتابعة انتصاراته .

وأخيراً جاءت الساعة التي عانى فيها الاسلام أشد مصاعبه وذلك عندما ظهر في سنة ١٢١٦ جِنكيز خان على رأس جيش جرار مؤلف من ستين الفاً من أقوام المُغُـول الهمجية على خيول سريعة حاملين أسلحة من نبال غريبة الاشكال . فاجتاح البلاد وألقى الرعب في الناس وأمعن في التخريب والتدمير أينما حلّ . وقد انطمست أمام هجمات المُغُـول معالم الثقافة في عواصم الاسلام الشرقية فأصبحت الديار التي باهت بقصورها الفخمة وخزائن كتبها قاعاً صفصفاً وافناء خاوية لا حياة للعلم فيهـا . وجرت الدماء على طول الطريق التي سلكتها عساكرهم تاركة أثراً لا يمّحي . هذه مدينة هَرَاة كان سكانها مائة الف لم يبق منهم إلا أربعون الفاً . وهذه مساجد بخارى المشهورة بأبنائهـا الاتقياء والعلماء جُعِلت أصاطب (جمع اصطبل) لخيول المُغُـول . وكثيرون من سكان سمرقند وبَلْخ استُبيحت دماؤهم أو وقعوا في الأسر . أما خوارزم فخُربت وأصبحت أثراً بعد عين . وفي رواية متأخرة ان جِنكيزخان لدى فتحه بخارى وصف نفسه في خطبة له قائلاً إنه « آفة من الله أرسلت

إلى الناس قصاصاً على معاصيهم » . وهكذا اجتاح هذا القائد المغولي العالم الاسلامي ووضع الأساس لأكبر امبراطورية شاهدها العالم هزّت في النصف الأول من القرن الثالث عشر أركان كل قطر ما بين الصين والادرياتيك ، واكتسح رجالها بعض أجزاء روسيا وأواسط أوروبا حتى شرقي بروسيا . ولو لم يمت ابن جنكيزخان وخلفه سنة ١٢٤١ لما نجت أوروبا الغربية من هذه القبائل المغولية .

وفي سنة ١٢٥٣ غادر هولاكو حفيد جنكيزخان بلاد المغول على رأس جيش جرار عازماً على إبادة الخلافة . فكانت موجة مغولية ثانية اكتسحت في طريقها كل الامارات التي كان يسعى أصحابها في توطيد ملكهم على أنقاض الامبراطورية. وفي كانون الثاني من سنة ١٢٥٦ هاجم هولاكو اسوار بغداد وأعمل المنجنيق فيها . وما لبث رجاله ان فتحوا ثغرة في أحد أبراجها فخرج الوزير ابن العلقمي ومعه جاثليق النساطرة — وقد كانت لهولاكو زوجة نصرانية — للمفاوضة بالصلح . الا ان هولاكو رفض مقابلتهما ولم يصغ إلى كلام القائلين بان الحتف كان من نصيب الذين يتجرأون على قهر مدينة السلام أو النيل من خليفة بني العباس وانه « متى قتل الخليفة اختل نظام العالم واحتجبت الشمس وامتنع القطر والنبات . » لم يعبأ هولاكو بشيء من هذا بل أخذ بنصيحة منجمية . فلم يكن اليوم العاشر من شباط حتى اقتحمت عساكره المدينة فخرج الخليفة وثلاثمائة من خاصته خاضعين مسلمين

دون قيد أو شرط . فأمر الفاتح بقتلهم بعد عشرة أيام.وأعمل جنده النهب والنار والتقتيل في المدينة حتى محوا سواد سكانها وفيهم اسرة الخليفة . ولقد نقل الهواءمن كريه رائحة الجيف المنتنة وأشلاء القتلى المطروحة فيالشوارع ما اضطرّ هولاكو الى ان يبتعد عن المدينة أياماً. واذ قد عزم علىنزول بغداد واتخاذها مسكناً فانه لم يمعن فيها تخريباً إمعانه في المدن الأخرى . ولكنه عامل جاثليق النساطرة معاملة طيبة وأبقى على بعض المدارس والمساجد ورمم البعض الآخر مما تهدم.ولاول مرة في تاريخ الاسلام خلا كرسي الخلافة من خليفة يُدعى له من على المنابر في خطبة الجمعة .

وفي سنة ١٢٦٠ نشط هولاكو إلى شمال الشام فتهددها . وبعد استيلائه على حلب وإعماله السيف في رقاب خمسين الفاً من سكانها دخل حماة وحارِم . ثم انفذ قائداً لحصار دمشق ولكن وفاة أخيهِ الخان الكبير اضطرته إلى الرجوع إلى ايران بيد ان الجيش الذي تركه وراءه في الشام فتح سائر البلدان السورية إلى ان قضى عليه في العام نفسه بَيْبَرس القائد الممتاز العامل في خدمة أحد سلاطين مماليك مصر بالقرب من الناصرة ، وقد صار فيما بعد من سلاطين المماليك اللامعين .

وتوفي هولاكو سنة ١٢٦٥ وكان أول من اتخذ لنفسه لقب إيل خان (الخان الصغير) . ولم يكد يمضي على وفاته نصف قرن حتى اعترف سابع الخانات بالاسلام ديناً للدولة ،

فجاء ذلك فوزاً جديداً باهراً لدين محمد مماثلاً لفوزه على يد السلاجقة .

وفي هذا الوقت كان الاسلام يتعرض في الجبهة الغربية من البلاد لهجوم آخر سطرت حوادثه صفحة رائعة في تاريخ المدنية وسطع فيه نجم أعظم أبطال الاسلام . ذلك عهد الصليبيين وصلاح الدين .

الحروب الصليبية

تمثل الحروب الصليبية فصلاً متوسطاً من فصول تلك القصة الطويلة التي تتناول التفاعل بين الشرق والغرب . وهي قصة متعاقبة منذ حروب طروادة وحروب فارس واليونان إلى عصرنا الحاضر المتميز بالاستعمار الأوروبي . اما بوجه خاص فقد كانت الحروب الصليبية بمثابة ردّ فعل ضد الاسلام في العالم المسيحي ، وبمثابة قيام أوروبا المسيحية على آسيا الاسلامية التي كانت اتخذت خطة الهجوم منذ سنة ٦٣٢ ليس على سورية وآسيا الصغرى فقط بل على اسبانيا وصقلّية أيضاً . وللحروب الصليبية أسباب أخرى منها النزعات الحربية والميول القومية إلى الهجرة التي امتازت بها قبائل الطوطون الذين غيّروا خريطة أوروبا مذ تعاقبوا على املاك الامبراطورية الرومانية . ومنها هدم كنيسة القيامة بأمر الحاكم الخليفة الفاطمي سنة ١٠٠٩ وهي

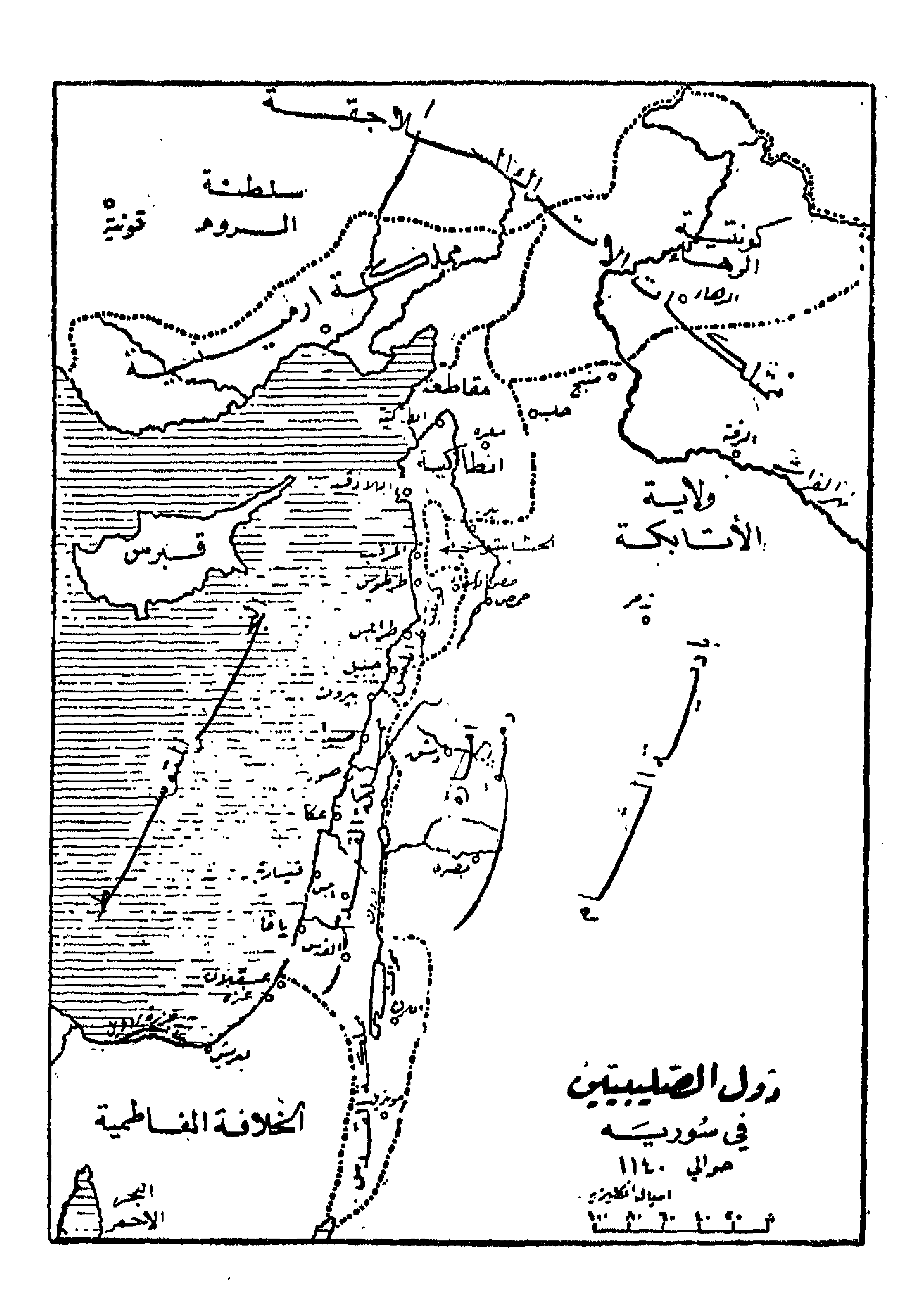
مزار كان يحج اليه الأوروبيون ، وكانت مفاتيحها قد أرسلت سنة ٨٠٠ إلى شرلمان على سبيل البركة من بطريرك اورشليم .
زدْ على ذلك الصعوبات التي كان يضعها السلاجقة المسلمون في سبيل الحجاج من النصارى أثناء مرورهم في آسيا الصغرى لزيارة بيت المقدس . أما الباعث المباشر على هذه الحروب فكان الاستنجاد الذي كرّره سنة ١٠٩٥ الامبراطور ألكسيوس كومنينوس إلى البابا أربانوس الثاني عندما اكتسح السلاجقة أملاك الامبراطور الآسيوية حتى بحر مرمرا وأخذت جيوشهم تهدد القسطنطينية نفسها . ولعل البابا رأى في ذلك الاستنجاد فرصة سانحة لضم الكنيسة اليونانية إلى كنيسة رومة . وكان الانشقاق التام النهائي في الكنيسة المسيحية قد حدث بين عامَي ١٠٠٩ و ١٠٥٤ .

وقد تكون الخطبة التي ألقاها البابا أربانوس في ٢٦ تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ في كلارمونت من أعمال فرنسا الجنوبية الشرقية مستنهضاً بها همم المؤمنين « لسلوك الطرق المؤدية إلى كنيسة القيامة وانتزاعها من أيدي القوم الاشرار والاستيلاء عليها » ، نقول قد تكون هذه الخطبة أشد خطب التاريخ أثراً .
وللحال تنادى الفرنجة إلى الحرب صارخين « إنها إرادة الله » .
فرددت بلادهم هذه الصرخة وتجاوبت أصداؤها في كل ناحية فملكت جوامع القلوب . وما جاء ربيع السنة اللاحقة حتى استجاب للدعوة إلى السلاح نحو مائة وخمسين الف رجل أكثرهم من الافرنسيين (الذين كانوا يدعون فرنك Franks

أي فرنجة وهو الاسم الذي أطلق بعدئذ على الغربيين جميعاً) والنورمنديين . واحتشد هذا الجيش في القسطنطينية وبذلك بدأت الحملة الصليبية الأولى . وإنما وُسمت بهذا الوصف إشارة إلى الصليب الذي حمله أعضاؤها علامةً على صدورهم .

وجديرٌ بالذكر انه ليس كل من اشترك في هذه الحملات كان مدفوعاً بالعاطفة الدينية . فعدّة من الزعماء ومنهم بوهيمند إنما كان هدفهم الرئيسي افتتاح أراضٍ جديدة يرفعون عليها أعلامهم . أما تجار بيزا والبندقية وجنوى فكان رائدهم مصالح تجارية . فعوامل هذه الحروب كثيرة تشمل مطامح المغامرين وأهل الشقاوة وشذاذ الآفاق مع آمال الاتقياء وحنين المجرمين إلى التكفير عن معاصيهم.والواقع ان اندفاع الجماهير في فرنسا واللورين وايطاليا وصقلّية إلى امتشاق الحسام لم يكن كله تضحية بل تفريجاً للازمة الاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعانيها تلك البلدان .

أما تصنيف هذه الحملات الصليبية ، إلى سبعٍ أو تسع ، على ما يذهب المؤرخون ، فبعيد عن المنطق ، غير وافٍ . ذلك أنّ مجرى هذه الحملات كان متواصلاً ، ومن الصعب فصل الحملة الواحدة عن الأخرى فصلاً واضحاً لا غموض فيه . ومن هنا كان الاصح تقسيم هذه الحروب إلى أدوار ثلاثة : أولاً دور ظفر للافرنج وقد امتدّ حتى سنة ١١٤٤ . وثانياً دور رد فعل اسلاميّ انتهى بانتصارات صلاح الدين الباهرة. وثالثاً الحروب الأهلية والمعارك الصغرى التي انتهت سنة ١٢٩١



سلطنة
الروم
قونية
مقاطعة
انطاكية
حلب
منبج
قبرس
ولاية
الأتابكة
تدمر
طرابلس
جبيل
بيروت
عكا
قيسارية
يافا
القدس
عسقلان
غزة
الخلافة الفاطمية
البحر
الأحمر
دول الصليبيين
في سوريه
حوالي ١١٤٠
أميال انكليزية

عندما فقد الصليبيون آخر سلطة لهم في بر الشام . واذن فدور الظفر انقضى برمّته قبل بداية ما هو معروف بالحملة الثانية (١١٤٧ — ١١٤٩) . وانتظم الدورُ الثالث في خلال القرن الثالث عشر . ومن حملات الدور الاخير واحدة على القسطنطينية (١٢٠٢ — ١٢٠٤) واثنتان فاشلتان على مصر (١٢١٨ — ١٢٢١) وواحدة على تونس (١٢٧٠) .

كانت طريق الحملة الصليبية الأولى بعد احتشادها في القسطنطينية عبرَ آسيا الصغرى ، وكان الظفر يرافقها . فاستردّ ألكسيوس — وكان قد أخذ من جميع زعماء الصليبيين يمين الطاعة الاقطاعي — النصفَ الغربي من شبه جزيرة الأناضول . وبذلك تأخرت غزوة الترك على أوروبا ثلاثة قرون ونصف قرن .

وسقطت في أيدي الصليبيين سنة ١٠٩٨ طرسوس وانطاكية وحلب . وكان اكتشاف الصليبيين في كنيسة في انطاكية «للحربة المقدسة» ، التي طُعن بها جنب المُخلّص وهو على الصليب ، ملهباً لحماستهم . وكانت هذه المدن في أيدي السلاجقة . وفي ٧ حزيران سنة ١٠٩٩ وقف جيش الفرنجة المؤلف من اربعين الفاً نصفهم من الجنود المدرّبة ، على أبواب بيت المقدس الذي لم تزد حاميته المصرية الفاطمية على الف رجل . وطاف الصليبيون أولاً حول المدينة حفاةً ينفخون بالابواق ، وكلهم رجاء أن تسقط أسوارها كما سقطت أسوار أريحا في أيدي العبرانيين ، إلا ان الحصار الذي ضيّقوه عليها شهراً كان أشدّ أثراً وأنجع .

وفي الخامس عشر من تموز هاجم العدو المدينة وأعمل السيف في رجالها ونسائها وأطفالها دونما تمييز « حتى شوهدت أكوام الرؤوس والايدي والارجل في شوارع المدينة ومربعاتها » . حتى إذا سقطت أورشليم شعر كثيرون من الصليبيين ولفيف الحجاج ان نذورهم قد وفيت فأبحروا عائدين إلى أوطانهم الاوروبية .

وأنشأ القواد بوهيمند Bohemond وبولدوين Baldwin وغودفري Godfrey وتانكْرِد Tancred تحت زعامة ريموند ده تولوز Raymond ، وهو أعظم نبيل افرنسي ، إمارتين ومملكة لاتينية في سورية . اولها إمارة شمالي سورية وعاصمتها انطاكية ، وثانيها في فلسطين وعاصمتها اورشليم وهي التي أصبحت فيما بعد مملكة ، وثالثها في طرابلس على الشاطئ اللبناني . وقد جرى انشاء غيرها فيما بعد ذلك . غير ان هذه الدويلات لم تُعَمَّر طويلاً لما قام فيها من منازعات وخصومات . وليس تاريخها في الواقع إلا فصلاً من تاريخ أوروبا لا من تاريخ بلاد العرب . ولكن أهم ما يسترعي انتباهنا في هذه العجالة هو العلاقات الودية والسلمية التي قامت بين الغربيين وابناء البلاد الوطنيين .

جاء الفرنجة إلى الأراضي المقدسة وهم يحسبون أنفسهم ارفع منزلة من أهلها ويعتبرونهم وثنيين يعبدون محمداً إلهاً . ولكنهم ما كادوا يحكمون الصلات بالمسلمين حتى سقطت الغشاوة عن عيونهم . أما الاثر الذي تركه الفرنجة في نفوس المسلمين فقد

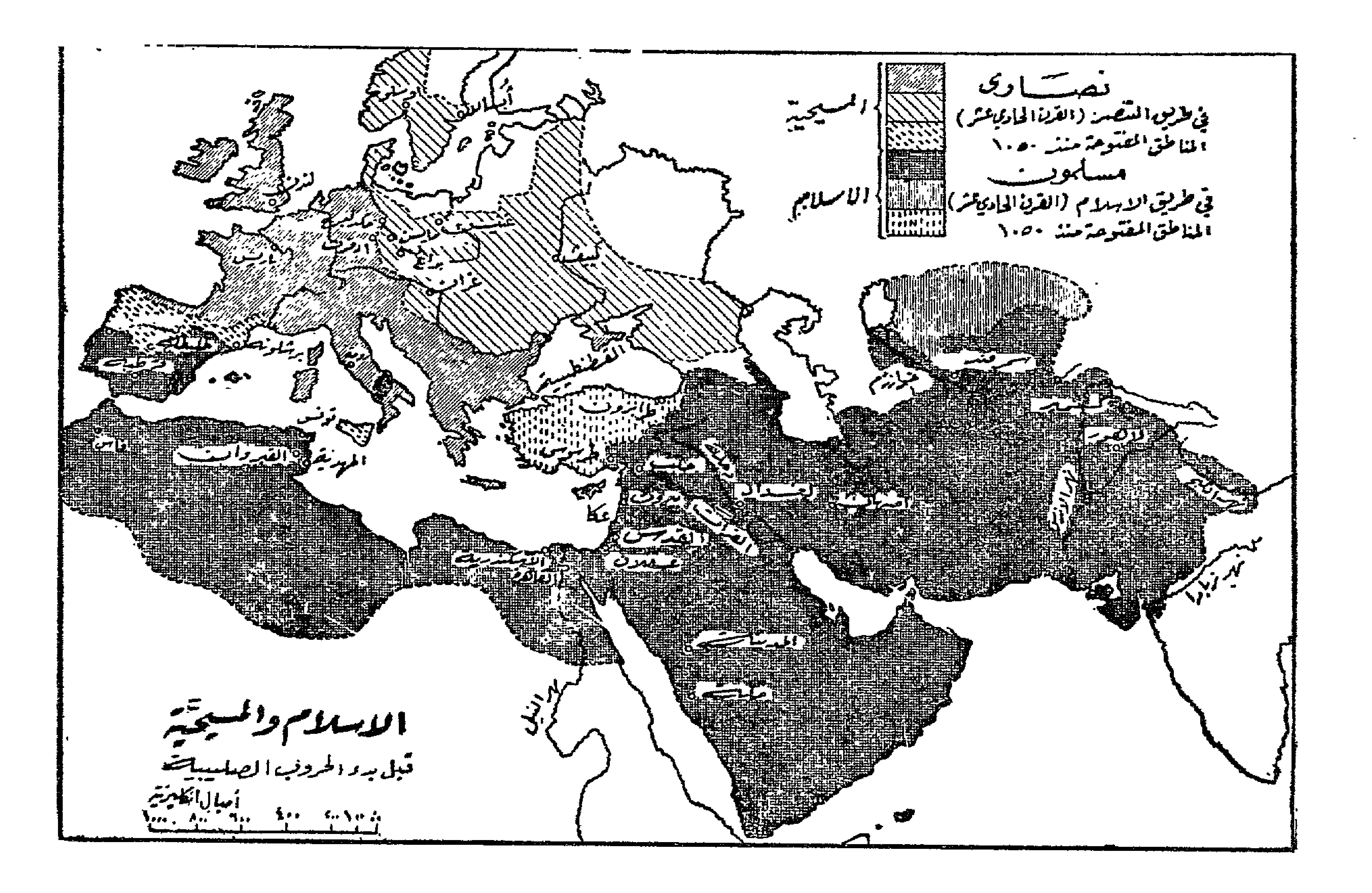
عبّر عنه المؤرخ العربي أسامة بقوله في « كتاب الاعتبار » انهم « بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير » . ولكن الاختلاط الذي لم يكن منه بدّ بين الجانبين في أيام السلم — وهي أطول من أيام الحرب كثيراً — أدى إلى تطوّر الشعور بين الفريقين فأحكمت على اثر ذلك علاقات الصداقة وحسن الجوار . وصار الفرنجة يستأجرون صنّاعاً وفلاحين يأتمنونهم . وما لبث النظام الاقطاعي الذي أوجدوه أن تحول وأصبح على مرور الأيام ملائماً لأحوال البلاد . واتخذ الفرنجة لأنفسهم الخيول العربية والبزاة وكلاب الصيد وعقدوا اتفاقيات مع العرب لحماية الصيادين من الاعتداء . كذلك تحالف الفريقان على صيانة رجال السفر والتجارة فوضعوا لذلك قوانين جرى الفريقان على مراعاتها . وأقلع الفرنجة عن لباسهم الاوروبي واختاروا الازياء الوطنية التي كانت أدعى إلى الراحة وأكثر ملاءمة لطبيعة البلاد . واكتسبوا أذواقاً جديدة في الطعام فأحبّوا بخاصة الالوان التي يكثر فيها استعمال السكر والتوابل . وفضلوا سكنى البيوت الشرقية التي تتوسطها صحون مكشوفة واسعة فيها نوافير للمياه . وتزوج بعضهم بالوطنيات فنشأ من هذا المزاج جيل جديد متوسط بين الجنسين أشير إلى افراده بلفظة « بولان » (Poulains) . وبلغ أخذهم بالعقائد المحلية درجة احترموا معها المزارات التي قدسها المسلمون واليهود . وكان اللاتين في بعض خصوماتهم المستمرة فيما بينهم يرحبون بمساعدة المسلمين الذين كانوا يحسبونهم قبلاً كفاراً . وكذلك فعل

المسلمون ، فكثيراً ما حالفوا الاقوام اللاتينية ضدّ اخوانهم المسلمين .

ولقد أحدث احتلال المسيحيين لسورية ومعظم القطر المصري ردّ فعل في العالم الاسلامي شرع بـه زنكي التركي سلطان الموصل وخلفَهُ ابنُهُ نور الدين سلطان دمشق ، وبلغ أشد درجاته في أيام الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف . وُلِدَ صلاح الدين في تكْريت على دجلة سنة ١١٣٨ من أبوين كرديّين . ولا نعلم إلا القليل عن طفوليّته ودراسته الأولى في سورية . والظاهر ان ميوله وهو فتىً اتجهت نحو الابحاث الدينية . ولم يشتهر اسمه في الناس حتّى سنة ١١٦٤ إذ سار « على كره منه » على ما ذكر المؤرخ أبو شامة في صحبةِ عمّه شِيرْكُوه القائد اللامع في خدمة نور الدين في حملته الاولى لاكتساح مصر والقضاء على دولة الفواطم فيها . وكانت لصلاح الدين امنيتان وقف حياته في سبيل تحقيقهما . أولاهما إنزال السنّة منزلة الشيعة في مصر ، والثانية مواصلة الجهاد ضدّ الفرنجة . وفي سنة ١١٦٩ أسندت اليه الوزارة في مصر على اثر وفاة عمّهِ شِيرْكُوه . وبعد عامَين من ذلك قضى على خلافة الفاطميين وأمر الخطباء بأن يقطعوا خطبةالعاضد آخرهم ويخطبوا للخليفة العبّاسي المستضيء فامتثلوا لأمره .

ولتحقيق أمنيته الأخرى بدأ صلاح الدين حملاته على الفرنجة . ففي أول تموز من سنة ١١٨٧ احتل طبريّة بعد حصار دام ستة أيام . وعلى مقربة منها جرت معركة حطّين . بدأ

القتال يوم الجمعة الذي كان صلاح الدين كثيراً ما يختاره للجهاد فيكون يوم بؤس وشؤم على الفرنجة . وكان في معسكر الفرنجة نحو عشرين ألفاً انهكهم العطش والحرّ فوقع جلهم في قبضة جيش صلاح الدين . وكان في مقدمة الأسرى الممتازين غي ده لوسينيان Guy de Lusignan ملك اورشليم . فأحسن السلطانُ صلاح الدين الكريم النفس استقباله . أما رفيقه الملك راجينالد ده شاتيون Reginald of Chatillon موقد نار الحرب فنال معاملة أخرى. ولعل راجينالد هذا كان أشد زعماء اللاتين مغامرةً وأكثرهم تعدّياً ونقضاً للعهود وأوفرهم إلماماً باللغة العربية . وحين كانت الكرك في عهدته أوقع مراراً بالقوافل الآمنة يسلبها أمتعتها بينما كان أصحابها يجتازون الطريق خلف أسوار حصنه . كل هذه الأمور أتاها خروجاً على شروط العهود والمحالفة . وبلغ منه الكيد للمسلمين ان جهّز اسطولاً أخذ يعيث في شواطىء الحجاز فساداً ويُنزل الأذى بمواكب الحجاج . وكان صلاح الدين قد أقسم اليمين ان يقتل بيده هذا الرجل الذي نكث العهود ولم يحترم شروط الهدنة وها هي ذي الفرصة قد حانت للوفاء باليمين . فاحتال راجينالد للنجاة بأن شرب الماء في خيمة صلاح الدين وهو عارف بأن العادات العربية تحول دون ايقاع الأذى بمن شرب ماء القوم . وإذ قد شرب الماء دون اذن من صلاح الدين فلم يحظ بأمانه بل جوزي على غدره بأن ضرب صلاح الدين عنقه وجمع ما عنده من فرسان الداويّة Templars والاسبتاريّة Hospitalers فأمر بهم


نصارى
في طريق التنصر (القرن الحادي عشر)
المناطق المفتوحة منذ ١٠٥٠
المسيحية
مسلمون
في طريق الاسلام (القرن الحادي عشر)
المناطق المفتوحة منذ ١٠٥٠
الاسلام
الاسلام والمسيحية
قبل بدء الحروب الصليبية
أميال انكليزية
لندن
برشلونة
تونس
المهدية
القيروان
القسطنطينية
طرسوس
عكا
بيروت
القدس
عسقلان
الاسكندرية
القاهرة
بغداد
اصفهان
خوارزم
سمرقند
نهر النيل

فضُربت أعناقهم على مشهد من الناس .

وجاء الانتصار بحِطّين قضاءً مبرماً على الفرنجة . وبعد حصار اسبوع سلّمت اورشليم في ٢ تشرين الاول سنة ١١٨٧ وقد تمزق شمل حاميتها في موقعة حِطّين . فصدح صوت المؤذن من على المسجد الأقصى عوضاً عن ناقوس النصارى ، وأنزل رجال صلاح الدين الصليب الذهبي من على قبة الصخرة .

وبسقوط عاصمة المملكة اللاتينية دانت لصلاح الدين معظم المدن الافرنجية في سورية وفلسطين . وبعد سلسلة حملات باهرة سقطت أغلب القلاع وكادت هزائم الفرنجة تؤدي إلى جلائهم التام عن البلاد . ولم يبق في حوزتهم إلا انطاكية وطرابلس وصور وبعض المدن الصغيرة والقلاع .

ولقد استثار سقوط المدينة المقدسة حماسة أوروبا فنسي حكامها خصوماتهم القديمة ونشط فردرك بربروسا Barbarossa امبراطور المانيا ورتشرد قلب الاسد Richard Coeur de Lion ملك انكلترا وفيليب اوغسطس Philip Augustus ملك فرنسا إلى حمل الصليب . وعلى اكتاف هؤلاء الثلاثة وهم أعاظم ملوك أوروبا آنئذ نهضت الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ – ١١٩٢) وهي أكبر الحملات عدداً . ولقد أمدت هذه الحملة التي لمعت فيها شخصية صلاح الدين وقلب الاسد الاساطيرَ والروايات الشرقية والغربية بأمتع الزاد .

وكان أول من شرع بالسير إلى الحرب فردرك الذي سلك

طريق البر فغرق وهو يعبر نهراً في كيليكية فارتد معظم أفراد جيشه إلى مواطنهم . أما رتشرد فعرج في طريقه على قبرس فاحتلها . وقد قدّر لهذه الجزيرة أن تصبح فيما بعد آخر ملجأ للصليبيين المنهزمين من البلاد السورية .

وأيقن اللاتين في البلاد المقدسة ان عكا هي الآن المفتاح الذي يمكنهم به استعادة ما خسروه من ممتلكاتهم . فقاموا عليها بجميع قواتهم مع من تبقى من جيش فردرك وكتائب ملك فرنسا . وتزعم الهجوم الملك غي Guy الذي كان صلاح الدين قد أطلق سراحه قبلاً آخذاً عليه العهد بألا يعود لقتال المسلمين ، فلم يفِ به . ووصل صلاح الدين في اليوم التالي لينقذ المدينة . فنصب معسكره قبالة العدو . ونشب القتال براً وبحراً. واحتفى الفرنجة بمقدم رتشرد فتهللوا واشعلوا نيران البشرى ،وفي أثناء الحصار جرت عدة حوادث نادرة الوقوع دوّنها مؤرخو العرب واللاتين المعاصرون . منها تبادل صلاح الدين وقلب الاسد الهدايا دلالةً على إعجاب الواحد منهما بالآخر . ولكنهما لم يجتمعا قط وكان رتشرد يكافئ بسخاء كل من زحزح حجراً من أسوار المدينة فحفزَ ذلك المحاربين والنساء على الاتيان بأعمال باهرة من البطولة . ودام هذا الحصار الذي يُعدّ من الاعمال الحربية الباهرة في القرون الوسطى سنتين (٢٧ آب سنة ١١٨٩ — ١٢ تموز سنة ١١٩١) . ولقد ساعد الفرنجةَ تفوّقُ اسطولهم ومدافعهم الحديثة . أما المسلمون فانحصرت أفضليتهم في توحيد القيادة في شخص واحد . وأخيراً اضطرت

حامية عكا إلى التسليم .

وكانت أهم شروط الصلح تسريح الحامية مقابل مائتي الف دينار وارجاع المسلمين للصليب المقدس . وإذ لم يُدفع المال بعد شهر أمر رتشرد باعدام الاسرى البالغ عددهم زهاء الفين وسبعمائة . وهو عمل شائن يناقض تماماً معاملة صلاح الدين لأسرى اللاتين عندما احتل بيت المقدس . فصلاح الدين أيضاً كان قد اشترط ان يفتدي الفرنجة أنفسهم بالمال ولكن عدداً من الفقراء يبلغ الثلاثة الآلاف عجز عن تأدية الفدية المفروضة ، فأخلى صلاح الدين سبيل الف منهم نزولاً عند رغبة أخيه وأطلق سراح فريق آخر منهم اجابة لتوسّط البطريرك . ولما رأى صلاح الدين ان اخاه والبطريرك قد أدّيا الزكاة بهذه الحسنة شعر أن عليه ان يقوم بقسطه من هذا الواجب فأطلق سراح الباقين وبينهم عددٌ من النساء والاطفال .

واحتلت عكا بعد سقوط اورشليم مرتبة الزعامة . وبقيت مفاوضات الصلح جارية بين الفريقين المتحاربين دون انقطاع ولما كان رتشرد كثير الافكار الخيالية فقد اقترح زواج اخته بالملك العادل أخي صلاح الدين على أن تُعطى اورشليم هديةً للزوجيّن فينتهي بذلك العداء المستحكم بين النصارى والمسلمين . وفي أحد الشعانين (٢٩ ايار سنة ١١٩٢) انعم برتبة الفروسية على الملك الكامل ابن العادل في حفلة شائقة . وأخيراً عُقد الصلح في ٢ تشرين الثاني سنة ١١٩٢ على ان يكون الساحل للاتين والداخل للمسلمين وألاّ يتعرض أحد للحجاج الوافدين على

بيت المقدس . ولكن صلاح الدين لم يُكتَب له إلا أشهر قليلة يقتطف فيها ثمرات الصلح . ففي ١٩ شباط من السنة اللاحقة أصابته حمى في دمشق فمات بعد اثني عشر يوماً وهو في الخامسة والخمسين من عمره . ولا يزال قبرهُ في العاصمة السورية ، ملاصقاً للجامع الاموي ، قِبلةَ الزائرين .

لم يكن صلاح الدين بطلاً وحامياً للسُنّة فقط بل كان منشطاً للعلم والعلماء مشجعاً للدراسات الدينية ومصلحاً اجتماعياً واقتصادياً . فلقد انشأ المدارس والمساجد وابتنى السدود واحتفر الاقنية . ومن آثاره الباقية قلعة الجبل في القاهرة التي أخذ في تشييدها مع أسوار المدينة في سنة ١١٨٣ فاستخدم فيها حجارة من الاهرام الصغرى . وصلاح الدين عند العرب في مصافّ هرون الرشيد وبَيْبرس وفي مقدمة من تهواهم مخيلات الشعب عامته وخاصته إلى يومنا هذا . أما في أوروبا فلقد أطنب في ذكراه المنشدون في العصور الوسطى وحاكاهم في ذلك الروائيون العصريون . وهو لا يزال يُعتبر حتى اليوم مثالَ الفروسية الكاملة .

واستمرت المناوشات الحربية بين الفريقين بعد هذا الدور مدة قاربت القرن لم يستطع خلالها اللاتين أمراً سوى المحافظة على مراكزهم . ولولا حوادث الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها لويس التاسع لما كان في هذه الدولة ما يستحق الذكر .

وقد احتل هذا الملك المعروف في التاريخ بالقديس لويس مدينة دمياط في مصر سنة ١٢٤٩ . حتى إذا زحف بجيشه على

القاهرة قاطعاً أرضاً تكثر فيها المستنقعات وتعترضها الاقنية، وكان النيل في أعلى ارتفاعه ، تفشى الوباء في الجيش وانقطعت عنه الامداد فهلك وأسر الملك لويس ومعظم نبلائه . وبعد شهر أطلق سراحهم مقابل ما دفعه من جزية وما رضيَ به من تسليم دمياط . وقد قاد لويس هذا في سنة ١٢٧٠ حملة صليبية أخرى خاسرة على تونس ، حيث مات . ويمتاز لويس من سائر الزعماء الصليبيين بطهارة سيرته ونبل أخلاقه . قال فيه مؤرخهُ : « إن حياته كلها كانت عبارة عن صلاة ، وكان قصده الاسنى العمل بمشيئة الله » .

وجاءت دولة المماليك ، فكان رابع امرائها الملك الظاهر بَيْبرس (١٢٦٠ – ١٢٧٧) أولَ السلاطين الذين انزلوا بالصليبيين الضربات الأخيرة القاضية . ففي سنة ١٢٦٣ احتلّ الكرك وهدم كنيسة الناصرة . ولم تقوَ قَيْسَارية ويافا وأنطاكية على الوقوف في وجه هجماته العنيفة ، فاضطُرّت إلى التسليم . وفي سنة ١٢٦٨ أعدم حامية انطاكية التي كان يبلغ عددها ستة عشر الفاً وسبى من رجالها ونسائها وأطفالها نحوَ مائة الف فباعهم في الاسواق ، فكان ثمن الطفل يومئذ اثني عشر درهماً وثمن الطفلة خمسة دراهم . ولما جرى تقسيم الغنائم كانت الأموال تكال كيلاً . ولم تستطع انطاكية النهوض بعد هذه الكارثة إلى يومنا الحاضر . وفي سنة ١٢٧١ انتزع بيبرس حصن الاكراد من أيدي الفرسان . أما المَرْقَب بجوار طرطوس فانتزعه سنة ١٢٨٥ خليفتُهُ قلاوون الذي استولى على طرابلس بعد ذلك

بأربعة أعوام .

وهكذا لم يبقَ من مراكز الفرنجة الهامّة إلا عكا . ولقد جرى حصارها في عهد الملك الاشرف خليفة قلاوون . وبعد قتال دام شهراً واستخدام اثنين وتسعين منجنيقاً فتحها المسلمون في ايار سنة ١٢٩١ واعملوا السيف في رقاب حاميتها من الفرسان الداويّة فأبادوهم جميعاً . وبهذا سقط آخر حصن منيع للاتين في الشرق . وفي السنة نفسها استولى المسلمون على صور وصيدا وبيروت وطرطوس . وكذلك أسدلَ الحجاب على أروع الفصول الحربية في تاريخ سورية المتوسّط .

والحق انّ الحروب الصليبيّة جاءت غنيةً بالحوادث الباهرة والوقائع النادرة فقيرةً بالاثر التاريخي الذي بولغ فيه ، لا سيما في الغرب . وهو أثرٌ محصور في الفنّ والصناعة والتجارة دون العلم والادب . أما في سورية فقد تركت هذه الحروب معالم الدمار والخراب . ومما ورثهُ الشرق الادنى عن تلك الحروب ذكريات التعصّب الديني والنفور بين المسلمين والنصارى .

كانت الثقافة الاسلامية في الشرق عَهْدَ الصليبيين منحطةً متداعية . وكاد نور أعلامها في الفلسفة والطب والموسيقى وسواها من العلوم والفنون يخبو وينطفيء . ومن هنا كانت سورية التي تمركزت العلاقات فيها بين الاسلام والنصرانية الغربية طيلةَ القرن الثاني عشر والثالث عشر أقلّ أهمية من اسبانيا أو شمال افريقيا ، بل أقلّ أهمية من الامبراطورية البيزنطية

من حيث نقلُ المؤثرات العربيّة إلى الغرب . ومع ان الاسلام أثّرَ في النصرانية الاوروبية عن طريقالاتصالات التجارية وعن طريق الاصطدام المباشر بالصليبيين وما أحدثهُ هـذا الاصطدام من تجاوب في الغرب فان آثاره الروحيّة والفكرية لم تكن ملحوظة . ومن جهة أخرى فان علينا أن نذكر أن الفرنجة في سوريّة ، فضلاً عن كون ثقافتهم دون ثقافة أعدائهم ، كانوا في الغالب جماعاتٍ عسكريّة أجنبية تنزل في القلاع والثكنات وتقتصر صلاتها على عامّة الناس من فلاحين وصنّاع ، دون الطبقة الراقية المفكّرة . زد على ذلك ان التحزّبات القومية والتعصّبات الدينية والعداوات المتأصلة حالت دون تبادل الافكار والثقافات . ولم يكن عند الفرنجة من العلم والفلسفة ما يلقّنونه أبناءَ البلاد . أما المقابلة بين الطبّ عند القومين فتمثّلها النوادر الطريفة التي رواها أسامةالذي هزيء أيضاً من طرق الفرنجة القضائية إذ اعتمدوا في محاكماتهم على المبارزة والرمي في الماء .

ومنذ القرن الثاني عشر بدأت تنشأ في جميع أنحاء أوروبا دور المعالجة والبيمارستانات وأهمها تلك التي تُعنى بالبرص . وهذا يبرر لنا الافتراض ان طريقة التداوي المنظم استمدت حافزها من الشرق الاسلامي . وإلىالشرق أيضاً يعودالفضل في ارجاع الحمامات العمومية إلى أوروبا . وكانت رائجة في عهد الرومان إلا ان المسيحية لم تحبذها .

أما في الآداب فلقد كان الاثر اوسع مدى. ففي الاساطير

المنسوجة حول قصة الكأس المقدسة التي استعملها المسيح في العشاء الاخير عناصر لا ريب في انها سورية الاصل . وليس من شك في ان الصليبيين سمعوا قصص « كليلة ودمنة » و « الف ليلة وليلة » فحملوها إلى أوطانهم ، وفي حكايات الشاعر الانكليزي تشوسر Chaucer قصة من « الف ليلة وليلة » . ومن المصادر السماعية استمد بوكاتشيو Boccaccio الايطالي حكايات شرقية أدخلها في كتابه « ديكامرون » Decameron ويمكننا أن ننسب إلى الصليبيين الفضلَ في إقبال الارساليات التبشيرية الأوروبية على دراسة اللغة العربية وسواها من اللغات الاسلامية .

أما في ميدان الحرب فكان من الطبيعي ان يكون التأثير أكثر ظهوراً . فاستعمال القوس القذاف والدروع يلبسها الفرسان والخيل واستخدام الوسائد القطنية تحت الدروع كلها من أصل صليبيّ . وفي سورية أدخل الفرنجة في جوقاتهم الموسيقية العسكرية الطنبور والطبل ولم يكونوا يستعملون قبلُ إلا البوق والنفير . وتعلموا من أهل البلاد استعمال حمام الزاجل لحمل المعلومات الحربية ونقلوا عنهم عادة الاحتفال بالظفر باشعال الانوار واجراء سباقات الخيل ولعب الجريد . والمقرر ان جانباً كبيراً من مبادئ الفروسية نشأ في سهول سورية . أما سعة انتشار علامات النسب على الاسلحة وشارات الفرسان فناتجة عن الاحتكاك بالفرسان المسلمين .

وقد انعشت هذه الحروب أيضاً فن الحصار وحسنته فسهل

أمر الهدم واللغم واستخدام المجانيق والكبوش [1] والمواد القابلة للاشتعال والقذائف . والظاهر ان البارود جرى اختراعه في سورية أو اوروبا اللاتينية ، والرأي الأخير ارجح ، وذلك حوالى آخر هذه الحقبة . أما ادعاء الصليبيين انهم اخترعوه فلا تؤيده البيّنات . ولكن الاستعانة بقوة البارود لرمي القذائف أي اختراع الاسلحة النارية — وهي خطوة أشدّ خطورة — فأمر لم يحدث قبل الربع الثاني من القرن الرابع عشر . ونحن نجد أول صفة أوروبية لتركيب البارود في ذيل كتاب وضعه في اللاتينية نحو سنة ١٣٠٠ رجل اسمه مارك اليوناني .

أما في الزراعة والصناعة والتجارة فانتهى الصليبيون إلى نتائج أعظم من تلك التي انتهوا اليها في العلوم . وإلى هذا يرجع انتشار نباتات جديدة في بلدان البحر المتوسط الغربية مثل السمسم والخروب والدُخن [2] والارز والليمون والبطيخ والمشمش وبصل عسقلان . ولهذه النباتات أسماء أوروبية محرفة عن لغات شرقية . أما المشمش فكان الغربيون يسمونه « خوخ الشام » .

واكتسب الفرنجة إبان إقامتهم في بلاد الشرق أذواقاً جديدة وبخاصة ما يتعلق منها بالروائح العطرية والتوابل والحلويات وسواها من محصولات المناطق الحارة التي تمتاز بها بلاد العرب والهند والتي كانت أسواق سورية زاخرة بها . ثم ان هذه

---

١ جمع كبش (بفتح الكاف) : آلة من آلات الحرب كانت تقذف على جدران الحصون .

٢ الدخن (بالضم) حب صغير أملس جداً كحب السمسم .

الاسواق الجديدة أدت بعد إلى انعاش التجارة في المدن الايطالية وسواحل البحر المتوسط . فاشتهرت أنواع البخور وسواها من صموغ الجزيرة العربية الزكية الرائحة وماء الورد الدمشقي والروائح العطرية التي امتازت بهما دمشق وغيرها من الزيوت والعطور الفواحة المشتهرة بها فارس . ومن العقاقير الجديدة التي تعرفوا اليها حجر الشبّ والندّ . ثم ان أنواع كبش القرنفل والتوابل الزكية والفلفل والبهارات وغيرها كل هذه درج استعمالها في الغرب خلال القرن الثاني عشر . ومن ذلك الوقت إلى اليوم وأنواع الطعام لا تستقيم على مائدة دون ان يدخل بعضها التوابل . وفي عصر عرف الصليبيون الزنجبيل وأخذوا يضيفونه إلى ألوان طعامهم . وأهم من ذلك كله السكر ، فقد كان الاوروبيون لا يعرفونه من قبلُ وكانوا يستخدمون العسل لتحلية أطعمتهم . فعلى ساحلي سورية ولبنان ، حيث ترى الأولاد إلى هذا اليوم يمصّون قصب السكر ، عرف الاوروبيون هذا النبات الذي أخذ منذ ذلك الحين يلعب دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية وفي تركيب الصنعات الطبية . وكان السكر أول اللذائذ الفاخرة التي أدخلت إلى الغرب ولم يبلغ درجتها طعام آخر مما استطابته الأفواه الغربية . ومع السكر دخلت الأشربة غير الكحولية والماء الذي تُخلط فيه بواسطة التقطير خصائص الورد والبنفسج وسواهما من الزهور . وكذلك دخلت شتّى أنواع الحلويات . أما الاقمشة الموصلية والدمشقية والاطلسية وسواها فقد ولجت أوروبا من الشرق العربي كما تدل أسماؤها في

اللغات الأوروبية محرّفةً عن العربية .

وكان لظهور الاسواق الجديدة في أوروبا لمنتجات الزراعة والصناعة الشرقية كما كان لحركةالنقلالتي قضتبهاضرورة حمل الحجاج والصليبيين ذهاباً واياباً اثرٌ أدى إلى توسيع نطاق الحركة البحرية والتجارة العالمية إلى درجة لم تكن معروفة منذ أيام الرومان . فأخذت مرسيليا تزاحم الجمهوريات المستقلة من مدن ايطاليا ، وأصبحت مركزاً لشحن البضائع تقاسم جنوى وبيزا والبندقية الثروةَ الناجمة عن ذلك . وتطلّب هذا الموقف الجديد كميات أكبر من النقد فجرى سكها وزاد تداولها . وتولد عن ذلك ابتداع الحوالات المالية واستعمالها فظهرتشركاتالصيارفة في جنوى وبيزا مع فروعٍ لها في الشرق . وصارت الفرسان الداويّة تستعمل كتب التفويضالمالية وتستلمالأموال كودائع لأصحابها وتسلف المال بالفائدة . وكانت البوصلة (ابرة الملاّحين) من أهم الاختراعات ذات العلاقة بهذه الحركة الصليبية البحرية . والراجح ان الصينيين هم أول من اكتشف ما للابرة المغنطيسية من طبيعة الاتجاه إلى ناحيةٍ معينة . ولكن المسلمين الذين كان لهم في عصر باكر تجارة نشيطةما بين الخليج الفارسي وبحار الشرق الأقصى فقد كانوا أول من أخرج هذا الاكتشاف إلى حيز العمل إذ استخدموا الابرة في الملاحة . وعن طريقهم تعرف الغرب إلى هذا الاكتشاف .

في خلال هذه الحقبة كانت الامبراطورية العربية في تقلص دائم وكان العقل الاسلامي يزداد تصلباً . أما الأوروبي فكان

يفتح عينيه على آفاق جديدة ويستمدّ نشاطاً مما يراهُ أمامه من عالم راقٍ متسع الارجاء. ولكن قبل أن تُقضي على هـذه الامبراطورية العربية بكاملها قامت دولة جديدة تحاول إنعاشها، أعني دولة المماليك السورية المصرية التي سنتكلم عليها في الفصل التالي.

دولة المماليك

دولة المماليك هي آخر دول العالم العربي في العصور الوسطى وأشدها غرابة . وقد عقبت الدولة الايوبية (١١٧١ — ١٢٥٠) المنسوبة إلى صلاح الدين وتألفت من أسرتين البحرية أو التركية (١٢٥٠ — ١٣٨٢) والبرجية أو الجركسية (١٣٨٢ — ١٥١٧) . ومن الصعب على دارس التاريخ ان يتصور في غير الاسلام إمكانية نشوء دولة كدولة المماليك وبلوغها ما بلغته من عزّ وفلاح . فالمماليك كانوا كما يدلّ اسمهم أرقاء من مختلف الاجناس والعناصر شكلوا حكومات عسكرية في بلادٍ هم فيها غرباء . فقيامهم كان نتيجة طبيعية لفساد الحياة الاجتماعية العربية خلال قرون عدة . ولهذه الدولة ميزة ثانية ناتجة عما حققته بنفسها من الاعمال الباهرة . ومن هنا كان هؤلاء السلاطين المماليك يستحقون صفحة ضافية في آخر فصل من تاريخ

الامبراطورية العربية .

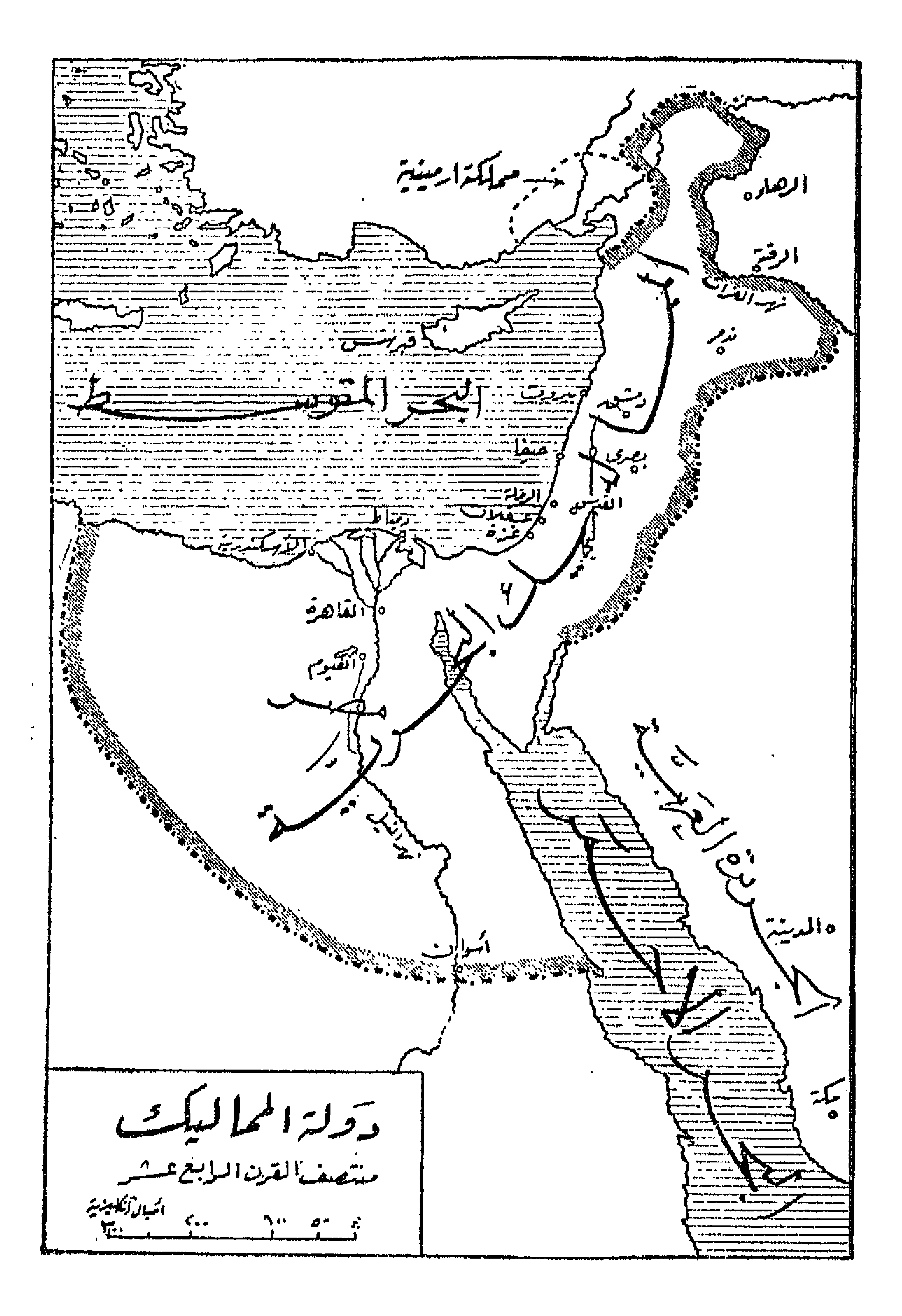
أفلح السلاطين المماليك في إجلاء بقايا الصليبيين عن مملكتهم السورية المصرية . وقاموا عقبة أبدية في وجه جيوش هولاكو وتيمور المرعبة التي كانت خليقةً ، لولاهم ، بأن تغيّر مجرى التاريخ والثقافة في آسيا الغربية ومصر . وبذلك حالوا دون تعرّض مصر للدمار الذي نزل بسورية والعراق . فنعمت البلاد بثقافة متواصلة وأنظمة سياسية مستمرّة لم تتوفر لأيّ بلاد إسلامية أخرى خارج الجزيرة العربية . فطوالَ مدة قاربت القرنين وثلاثة أرباع القرن (١٢٥٠ — ١٥١٧) سيطر المماليك على بقعة من أشد بقاع الارض اضطراباً محافظين أبداً على ميزاتهم الجنسيّة الخاصّة . ومع انهم كانوا على وجه العموم عديمي الثقافة سفّاكي دماء فان عنايتهم بالفنّ والعمارة تضاهي عناية أهم دولة متمدنة بحيث صارت القاهرة من أجمل المدن في العالم الاسلاميّ . وأخيراً قام السلطان سليم العثماني فغلبهم على أمرهم في سنة ١٥١٧ . وبذلك زالت آخر الدّويلات التي نشأت على أنقاض الخلافة العربيّة وتوفّرت الاسباب لقيام خلافة جديدة غير عربيّة هي خلافة الترك العثمانيين .

وليس من شك في ان أعظم سلاطين دولة المماليك ومؤسسها الحقيقيّ هو رابعهم الملك الظاهر ركن الدين بَيْبَرس (١٢٦٠— ١٢٧٧) وهو في الاصل رقيق تركماني . وكان بَيْبَرس رجلاً طويل القامة أسمر اللون جهوري الصوت شجاعاً نشيطاً يمتاز بصفات الزعامة . نشأ في حضن الدولة الأيوبيّة

التي اتبّعت خطة خلفاء بغداد في إدخال الارقاء الاجانب في الحرس والجيش . فما عتّم هؤلاء الاجانب والارقّاء الذين فاقوا سادتهم في المقدرة والاقدام أن أصبحوا كما كان زملاؤهم من قبل في بغداد — امراءَ الجيش ومن ثم سلاطين الامّة . ومن هؤلاء بَيْبَرس الذي انتدبهُ السلطان الصالح الأيوبيّ أولاً لقيادة فصيلة من حرسه الخاص ولم يلبث ان ترقى بالعنف والبطش وإهراق الدم إلى أعلى منصب في البلاد . ولم تكن السلطة في دولة المماليك وراثية بل كانت من حق الاقوى . وقد ظل الاقوياء فيها لعدة قرون من الارقاء أصلاً ومن ذرية الارقّاء .

فاز بَيْبَرس في بدء أمرهِ باكليل الظفر يوم انتصارهِ على جيش هولاكو في عين جالوت (فلسطين) عام ١٢٦٠ . على ان شهرته تقوم في الاكثر على الحملات العديدة التي جرّدها على الصليبيين ، تلك الحملات التي قصمت كما أشرنا ظهر المقاومة الفرنجية . وفي أثناء ذلك قام قوادُهُ بنشر سلطانهِ غرباً على البربر وجنوباً على النوبة التي استقرّ فيها الآن حكم السلطان المصري .

ولم يكن بَيْبَرس رجل حرب فقط ، ولم تنحصر مآتيه في تنظيم الجيش وتعمير الاسطول وتحصين قلاع سورية بل تجاوزتها إلى احتفار الاقنية وتحسين الموانيء وربط القاهرة ودمشق بواسطة مصلحة بريد سريع يصل ما بين المدينتين في اربعة أيام . وكانت بدائل الخيل تقف على أهبة الجري في كل



مملكة ارمينية
الرها
الرقة
نهر الفرات
تدمر
قبرص
البحر المتوسط
بيروت
دمشق
حيفا
بصرى
الرملة
القدس
عسقلان
غزة
دمياط
الاسكندرية
القاهرة
الفيوم
مصر
النيل
أسوان
المدينة
مكة
دولة المماليك
منتصف القرن الرابع عشر
اميال انكليزية

محطة للبريد حتى لقد كان في مكنة السلطان ان يلعب الصولجان في كلتا العاصمتين خلال مدة لا تزيد على اسبوع واحد . وفيما سوى البريد العادي فقد أتقن المماليك فنّ استخدام حمام الزاجل الذي كان منذ أيام الفاطميين يربّى وتحفظ أنسابهُ في سجلات خاصة . وكان بَيْبَرس ينشط الاشغال العامّة ويجمّل الجوامع ويقيم المؤسسات الدينية والخيرية . ومن العمارات الشهيرة الباقية التي شيّدها الجامع الكبير والمدرسة التي تحمل اسمه . أما الجامع فقد جعله نابليون فيما بعد قلعةً ثم أصبح مستودع أرزاق لجيش الاحتلال البريطانيّ ، وهو أول سلطان بمصر عيّن أربعة قضاة يمثلون مذاهب السنّة الأربعة ووضع للمحمل المصري نظاماً دائماً . فلزومه جانب السنّة وغيرته الدينية والمجد الذي أكسبه إياه الجهاد ، كل هذه جعلت له شهرة تضاهي شهرة هرون الرشيد في نظر المسلمين . وفي التاريخ الخرافي يتألق اسمه فوق اسم صلاح الدين و «سيرة بَيْبَرس» كـ «سيرة عنتر» ولا يزال الاقبال عليها في البلاد العربية أشدّ من الاقبال على «الف ليلة وليلة» إلى اليوم .

ومن مميزات عهد بَيْبَرس المحالفات العديدة التي عقدها مع ملوك المُغُول وملوك أوروبا . وبينها محالفة عقدها بعد تقلده السلطة مع زعيم خانات المُغول في قبشاق من وادي الفولغا . كذلك أمضى اتفاقيات تجارية مع تشارلس ده آنجو Charles of Anjou ملك صِقلّية شقيق اويس

التاسع ومع جايمس ملك اراغون والفونسو ملك إشبيلية .

ولعل أروع الحوادث في ملك بَيْبَرس إقدامهُ على تجديد الخلافة العبّاسية وإحيائها ، وذلك بالاسم فقط . وكان جل قصده من ذلك جعل سلطنته شرعية ، واكساب بلاطه رفعة في نظر سائر الاقطار الاسلامية ، وقمع فتن الشيعة التي كان يتطاير شررها في مصر خصوصاً منذ أيام الفاطميين . لذلك استقدم من دمشق في حزيران سنة ١٢٦١ عمّ المستعصم آخر خلفاء بغداد العباسيين . وكان قد نجا من مذبحة بغداد . فبايع له بَيْبَرس والناس على طبقاتهم . وكتب بيبرس إلى النواحي بأخذ البيعة للخليفة وبالخطبة باسمه على المنابر وبنقش اسمه في السكة . واتخذ الخليفة لقب المستنصر وكان قدومه الديار المصرية من سورية صحبة جماعة من امراء العرب . فخرج السلطان للقائه ومعه الوزير والاعيان والعلماء والشهود والمؤذنون حتى اليهود بتوراتهم والنصارى بانجيلهم . فكان يوماً مشهوداً . وأثبت نسب الخليفة وأشهد على نفسه بثبوت النسبة الشريفة أمام قاضي القضاة ومجلس العلماء . ثم جاء دور السلطان فألبسه الخليفةُ بيده شارات السلطنة وفوّض اليه الامور في البلاد الاسلامية وقلّده الحكم على مصر وسورية وديار بكر والحجاز واليمن والعراق . وبعد ثلاثة أشهر توجه بَيْبَرس من القاهرة ومعه الخليفة ، طامعاً في إعادة بغداد إلى املاك الخلافة . ولكنه لم يرافقه إلاّ إلى دمشق فودّعه فيها وعاد إلى مصر . وقبل أن يصل المستنصر إلى بغداد أغار عليه حاكم المغول ببغداد

في الصحراء ، فكان ذلك آخر العهد به .

وتعاقب أبناؤه على الخلافة مدة قرنين ونصف وليس لهم منها إلا الاسم قانعين بنقش اسمائهم في السكة والخطبة لهم من منابر مصر وسورية . ولما انتزع السلطان سليم العثماني مصر سنة ١٥١٧ من أيدي المماليك نقل معه إلى القسطنطينية الخليفة المتوكل آخر هذه الأسرة .

وهكذا استهلّ المماليك عهدهم بمصر بزعامة سلاطين ظافرين فخورين فازوا باستئصال آخر السلطة الفرنجية في سورية وتمكنوا من الحيلولة بين المُغُول وتدويخ العالم . وما وافت نهاية هذا العهد الذي سادت فيه حكومة خاصة عسكرية حتى تسرّبت الحزبيات بين الجماعات المتنفّذة وزُيّفت النقود وثقلت الضرائب وفُقد الامن على الحياة والممتلكات ، وتعاقب الطاعون والاوبئة والمجاعات والثورات فكاد الخراب يعمّ مصر وسورية الملحقة بها . وفي وادي النيل خصوصاً راجت سوق الخرافات القديمة البالية وضروب السحر وتحالفت مع العقائد الدينية الرجعية والمحافظة فلم تترك للتقدم العلمي مجالاً . وفي أحوال كهذه لم يكن من الممكن نشوء حركة فكرية راقية . والواقع ان مطلع القرن الثالث عشر شهد جميع أنحاء العالم العربي تفقد سيادتها العلمية التي كانت تتمتع بها منذ القرن الثامن . فأصبح العياء العقليّ الذي سببتهُ اجيال الجهاد ، والاسترخاء الاخلاقي الناجم عن تراكم الثروة والسلطة باديين في كل مكان .

وبعد منتصف القرن الثالث عشر لم يبقَ للعرب من مكانة في العلم إلا في فرعين : الفلك – الرياضيات (وفي جملتها علم حساب المثلثّات) والطب ، وبخاصة طب العيون . ومن ألمع أطباء هذه الحقبة ابن النفيس الذي درس في دمشق حيث توفي سنة ١٢٨٩ ، وقد كان رئيس الطبابة في مستشفى القاهرة .

وعلى الرغم من ان اكتشاف الدورة الدموية منسوب إلى سيرفيتس Servetus البرتغالي فان ابن النفيس سبقهُ إلى هذا بثلاثة قرون . وكانت هذه الحقبة خصبة بوجه خاص في انتاجها ذلك النوع من المؤلفات الغرامية الذي نسميه اليوم بـ « الأدب الجنسي » . على ان الادب العربي كان في مراحله جميعاً طافحاً بالقصة والفكاهة والنكتة التي نحسبها في عصرنا الحاضر من النوع البذيء .

بيد أن أغرب المحاسن التي تحلّى بها عصر المماليك ، على ما كان فيه من شأن عظيم للحروب والأهوال ، الانتاجُ الباهر في العمارة والفنّ على اسلوب لا مثيل له في تاريخ مصر منذ أيام البطالسة والفراعنة . وتعود مبادئ « مدرسة » المماليك في العمارة إلى موثرات سورية–عراقية اتصلت بها عندما أصبحت مصر في القرن الثالث عشر مأوى الفنّانين والصنّاع المسلمين اللاجئين اليها من الموصل وبغداد ودمشق قبل الغزوات المغولية. وبانتهاء الحروب الصليبية انفتحت مرةً أخرى طريق الحصول على حجارة البناء من مقالعها في الشمال واستعيض بها عن الآجرّ في عمارة المآذن. وأتقن البناؤون تشييد الجوامع والمدارس

ذوات الشكل المصلّب وظهرت القبة في هيئة تزري بالأشكال المناظرة لها من حيث الخفّة والظرافة وأناقة الزخرفة . أما العمارات ذوات الخطوط الملونة كالقصر الابلق للملك الفاخر المتوفى سنة ١٣٤٠ فناشئة عن استعمال حجارة ذات الوان مختلفة في خطوط متساوية وهو اسلوب يعود إلى أصل روماني أو بيزنطي . وجدير بالذكر ظهور المتدلّيات السقفية في هذه الحقبة . وبروز ميزتين فائقتين اتصف بهما فنّ الزخرفة الاسلامية : الاشكال الهندسية ، والحروف الكوفية . أما الاشكال الحيوانية فقد كانت طيلة العصور الاسلامية أقلّ استعمالاً في مصر وسورية منها في اسبانيا وفارس . وانه لمن حسن الطالع أن تكون أفضل نماذج العمارات الراجعة إلى عصر المماليك باقية حتّى اليوم . وهي من أمتع المشاهد التي يقصدها السياح وطلاب العلم .

حتّى إذا كانت أواخر القرن الرابع عشر انتهى عهد المماليك إلى أن يكون من أظلم عهود تاريخ سورية ومصر . فكان عدد من سلاطينهم بغاة سفاحين ، بل ان منهم من كان سافلاً خليعاً . في حين كان أكثرهم لا يملكون شيئاً من الكفاءة أو الثقافة . فهذا المؤيد شيخ (١٤١٢ — ١٤٢١) ، الذي اشتراه السلطان بَرْقوق من تاجر جركسي ، كان سكرتيراً يقترف جسام القبائح . وذاك بَرْسْبَاي (١٤٢٢ — ١٤٣٨) وهو كذلك من مماليك برقوق لم يكن يحسن اللغة العربية . ومن مساوئه انه أمر بقطع رأسي طبيبيه عندما تعذّر عليهما شفاؤه

من داء مميت . أما اينال (١٤٥٣ — ١٤٦٠) ، وهو أيضاً من مماليك برقوق ، فكان أميّاً يجهل القراءة والكتابة . وعلى الرغم من تطاول عهد سلطنته فانه لم يكن بقادر على توقيع اسمه على المناشير والمراسيم إلاّ بعد أن يرسم له الموقّع رسماً خفيّاً عليها فيعيد هو على ذلك بالقلم . واتّهم إينال هذا بحب الغلمان كما اتّهم بَيْبَرس من قبله . وكانت منشآت الغلمان التي اشتهر أمرها في زمن العبّاسيين مزدهرة في أيام هؤلاء السلاطين المماليك . أما يَلْبَاي (١٤٦٧) ثالث خلفاء إينال فلم يكن أميّاً فحسب ، بل معتوهاً . وأما قائتباي (١٤٦٨ — ١٤٩٥) ، الذي كان بَرْسْبَاي اشتراه بخمسين ديناراً ، فقد أمر بالكيماوي علي بن المرشوشي أن تُقلع عيناه ويُقْطَع لسانه لعجزه عن تحويل المعادن السفلى ذهباً .

ومما زاد في سوء حالة البلاد الاقتصادية سياسة السلاطين النفعية القائمة على مصالحهم الشخصية . من ذلك ان بَرْسْبَاي منع استيراد التوابل من الهند ، وفي جملتها الفلفل المرغوب فيه كثيراً ، وقبل أن ترتفع أسعارها وضع يده على الكميات الموجودة منها في البلاد وباعها من الناس بأسعار ضمنت له ربحاً فاحشاً . كذلك احتكر صناعة السكر . وبلغ به الطمع ان حظر زراعة قصب السكر زمناً لكي يؤمّن لنفسه أرباحاً طائلة . وفي عهده اجتاح الطاعون مصر والبلدان المجاورة ، وهو ضربة نكبت بها البلاد تكراراً ، فكثر الطلب على السكر

إذ كان يستخدم علاجاً خاصاً لهذا الداء . ومع ان الطاعون لم يفتك بالناس فتك « الموت الاسود » Black Death في أوروبا فانه توفي من جرائه ، على ما قيل ، نحو ثلاثمائة الف نسمة في العاصمة وحدها خلال ثلاثة أشهر . وخاف السلطان من الوباء فحسبه عقاباً من الله لانتشار المعصية بين الناس . وعدّ خروج النساء في الاسواق علة ذلك البلاء فمنعهن من ذلك . ثم إنه سعى إلى التكفير عن سوء أعماله بفرض ضرائب جديدة على اليهود والنصارى .

على أن ابتزاز الأموال لم يقتصر على غير المسلمين . ولما كانت الحكومة لا تعرف نظاماً معيّناً لجباية الضرائب فلم يكن لهؤلاء السلاطين سبيل إلى جمع الأموال اللازمة لحملاتهم الحربية ولاسرافهم الفاحش في نفقات البلاط وتشييد العمارات الكبرى إلا ابتزاز الأموال من الرعية ومصادرة أموال ذوي المناصب في الدولة الذين أثروْا على حساب الجمهور ، أضف إلى ذلك ان قبائل البدو في الدلتا والصحراء الشرقية كانت تغير على الفلاحين الآمنين في مزارعهم في وادي النيل فتنهب وتتلف ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . ثم ان الجراد ، كالاوبئة ، كان يزور البلاد بين الفينة والفينة حتى أصبح الجوع ضربة مزمنة يتفاقم شرها بخاصة في سني الطاعون والجفاف الناشىء عن انخفاض الماء في النيل . وتقدر خسارة سورية ومصر بسبب ذلك كله في عصر المماليك بنحو ثلثي مجموع سكانهما .

وفي آخر هذه الحقبة أخذت بعض العوامل العالمية تزيد البلاد فقراً وتعاسة . ففي سنة ١٤٩٧ – ١٤٩٨ اكتشف الملاّح البرتغالي فاسكو ده غاما Vasco de Gama طريقاً بحرية جديدة حول رأس الرجاء الصالح . وهو حادث خطير كان له أثرهُ السيء في تاريخ المملكة السورية المصرية لا لأن غارات الاسطول البرتغالي وسواه من أساطيل أوروبا على سفن المسلمين في البحر الاحمر والمياه الهندية تكاثرت بعد ذلك فحسب ، بل لان حركة تجارة التوابل وسواها من المحصولات الاستوائية التي امتازت بها الهند وبلاد العرب انتقلت من المرافئ السورية والمصرية إلى غيرها . وبذلك تلاشى إلى الابد ذلك المرفق الذي كان يدرّ على القطرين عوائد كبيرةً .

وفي مطلع القرن الخامس عشر حلّت بسورية ضربة أنزلها بها رجل تتريّ من برابرة آسيا الوسطى كانت أشد من ضربات المماليك . ذلك هو تيمورلنك (تيمور الأعرج) الذي وُلِد سنة ١٣٣٦ في ما وراء النهر من سلالة وزيرٍ لجنكيز خان ، وان تكن اسرته ادعت التحدر من جِنْكيز نفسه . أما ابن عَرَبْشاه الذي ترجم لتيمور وحمل عليه فيقول : « كان أبوه اسكافاً فقيراً جداً . ولما كان به من القلة اندفع إلى ارتكاب الجرائم . ففي بعض الليالي سرق غنمة فضربهُ الراعي في كتفه بسهم فأبطلها وثنّى عليه بأخرى في فخذه فأبطلها فازداد كسره على فقرهِ فسمي لنك أي أعرج . وفي سنة ١٣٨٠ سار على

رأس أقوامه التتر في سلسلة حملات متواصلة الحلقات افتتح بها افغانستان وبلاد العجم وفارس وكردستان . واستولى سنة ١٣٩٣ على بغداد . ودوّخ أرض الرافدين . ففي تكْريت مثلاً ، مسقط رأس صلاح الدين ، أنشأ هرماً من رؤوس القتلى . حتى إذا كانت سنة ١٣٩٥ حمل على بلاد القبشاق واحتلّ موسكو فأقام بها ما فوق العام . وبعد ثلاث سنوات غزا الهند الشمالية وقتل ثمانين الفاً من أهالي دلهي .

وكانت سرعة اكتساح تيمور لسورية الشمالية سنة ١٤٠١ أشبه بالعاصفة تمر بالبلاد فلا تبقي ولا تذر . ففي حلب أقام عساكره نحو ثلاثة أيام يأسرون وينهبون ويقتلون ويستبيحون كل شيء . ولقد عمل تيمور من رؤوس نحو عشرين الفاً من من سكانها المسلمين أكَيْمات (تصغير اكمة) محيط كل واحدة منها عشرون ذراعاً وارتفاعها عشرة أذرع جاعلاً الوجوه بارزة إلى الخارج يراها من يمر بها . وهدم أجمل ما فيها من مساجد ومدارس . فلم يُعدْ أحدٌ بناءها حتى الآن . وتوجه تيمور إلى دمشق فاحتل في طريقه حماه وحمص وبعلبك ولم يقوَ الجيش المصري على الصمود في وجه جيشه فانهزم هزيمة شنعاء . وسقطت دمشق بعد أن دافعت عنها حامية قلعتها شهراً . واعمل جيش تيمور في دمشق النهب والسلب والنار حتى لم يبقَ من الجامع الاموي إلا بعض جدرانه . ومن دمشق أسرع هذا الغازي السفّاح راجعاً إلى بغداد ليثأر من أهلها لقتلهم بعض رجاله . فأعمل في المدينة السيف وأخذ في

التقتيل والتفظيع مُقيماً فيها مائة وعشرين برجاً من رؤوس ضحاياه .

وفي السنتين اللاحقتين زحف تيمور على آسيا الصغرى فسحق جيش العثمانيين عند أنقره في ٢١ تموز سنة ١٤٠٢ وأخذ السلطان بايزيد الأول أسيراً في قفص . واستولى أيضاً على عاصمته بروسه وعلى أزمير . ولحسن طالع المماليك مات تيمور بعد سنتين وهو زاحف لافتتاح الصين تدفعه أشدّ رغباته وأطماعه . أما خلفاؤه فقد أفنوا قواهم في المشاحنات والفتن الداخلية .

وجاءت الضربة القاضية على الامبراطورية العربية من جانب العثمانيين في أوائل القرن السادس عشر . ولقد سبقت الاشارة الى أصل الترك العثمانيين إلى بلاد المُغول وإلى اختلاطهم بالقبائل الايرانية في آسيا الوسطى وإلى نزولهم آسيا الصغرى حيث انتزعوا السيطرة تدريجياً من أبناء عمهم السلاجقة وابتلعوهم حتى إذا ما جاء مطلع القرن الرابع عشر أنشأوا مملكة كُتب لها أن ترث الامبراطورية البيزنطية والخلافة العربية .

وفي سنة ١٤٨١ نهضت المشكلة العثمانية في وجه سلاطين مصر فأقضّت عليهم مضاجعهم . وبدأت المنافسة بين الجانبين تقوى وتعظم . ولقد ظهرت أول أمرها في مناوشات متعاقبة بين عمالهما على حدود آسيا الصغرى وسورية . فأدى ذلك تدريجياً إلى نشوب الحرب ، وأهم مواقعها معركة مرج دابق بين جيوش المماليك بقيادة قانصوه الغوري (١٥٠٠ —

١٥١٦) وجيوش الترك في ٢٤ كانون الثاني سنة ١٥١٦ بالقرب من حلب ، التي انتصر فيها العثمانيون على المماليك انتصاراً باهراً . ولا عجب فقد كانت تجهيزات الجيش التركي بالمعدات الجديدة من المدافع والبندقيات وسواها من الاسلحة ذات المرمى البعيد تفضل معدات الجيش المصري . فكان الجيش المصري يضم لفيفاً من البدو والسوريين الذين لم تكن لهم خبرة في استعمال هذه الاسلحة . زدْ على ذلك انه سبق للترك استعمال البارود مدة من الزمن ، في حين احتفظ السوريون والمصريون بنظريتهم القائلة بأن البطولة الشخصية هي العامل الحاسم في القتال . وهكذا دخل سليم السلطان العثماني مدينة حلب ظافراً فرحب به أهلها منقذاً من فظائع المماليك . وما لبثت سورية بأسرها ان انتقلت إلى حوزته . ومن ثم زحف هذا الفاتح جنوباً إلى مصر فاحتلها سنة ١٥١٧ . وبذلك قضى على سلطة المماليك قضاءً مبرماً . وإذ كان الحجاز بحاضرتيه مكّة والمدينة ملحقاً بالمملكة المصرية فقد أصبح الآن بحكم الطبع جزءاً من السلطنة العثمانية . أما القاهرة التي كانت مركز السلطة الاسلامية في الشرق فأمست مدينةً من مدن الامصار ، يخطب الوعاظ من على منابرها قائلين :

« وانصر الله السلطان بن السلطان مالك البرين والبحرين ، وكاسر الجيشين ، وسلطان العراقين ، وخادم الحرمين الشريفين ، الملك المظفر سليم شاه . اللهم انصره نصراً عزيزاً ، وافتح له فتحاً مبيناً ، يا مالك الدنيا والآخرة يا رب العالمين » .

وسواء أصحت الدعوى القائلة بأن المتوكل آخر الخلفاء الاسميين أوصى بالخلافة إلى السلطان العثماني أم لم تصح فالأمر الواقع ان أمير القسطنطينية التركي اكتسب على التدريج امتيازات الخلافة ، ليتخذ بعد لنفسه لقبَ الخليفة . ومع ان بعض خلفاء سليم تسمّوا بالخلفاء وخوطبوا بلقب الخلافة فان هذا اللقب لم يكن إلاّ من قبيل التبجيل ولم يُعترف بـه خارج مناطق نفوذهم . وأول وثيقة سياسية معروفة أشير فيهـا إلى السلطان العثماني بلقب الخلافة واعتُرِف فيها بسلطته الدينية على المسلمين خارج الولايات العثمانية هي المعاهدة الروسية التركية التي عقدت سنة ١٧٧٤ .

وهكذا أصبح سلطان القسطنطينية الخليفة أعظمَ ملوك الاسلام ووارثاً لخلفاء بغداد وأباطرة بيزنطية في وقت معاً . وبتحطيم سلطة المماليك وتوطيد أقدام الترك على البوسفور تحوّل مركز السلطة الاسلامية غرباً . ذلك بأن مركز الحضارة العالمية أيضاً كان قد انتقل في هذا الزمن غرباً، وجاء اكتشاف اميركا والطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح فاتحة لعصر جديد . وهنا ينتهي تاريخ الخلافة العربية والدول الاسلامية التي نشأت في العصور الوسطى على انقاض الامبراطورية العربية ويبدأ تاريخ سلطة العثمانيين على العالم العربي .

العصور المظلمة وفجر النهضة الحديثة

الاقطار العربية في العصر الحديث

بينا كان الاوروبي يتخبط في ديجور العصور الوسطى كانت البلدان العربية ترتع في عصورها الذهبية رافعةً مشعال النور والعرفان . ولقد ظلت كذلك في نجوة من الظلمات التي دهمت أوروبا قبلها إلى أن استولى على ربوعها المماليك ثم الاتراك العثمانيون . فقد فاز هؤلاء الاتراك بتشييد امبراطورية من أعظم الامبراطوريات الاسلامية وأطولها عمراً . وهم فضلاً عن استيلائهم في صدر القرن السادس عشر على مجمل البلدان العربية فقد نشروا سلطانهم بعد ذاك حتى جبال القوقاس شرقاً وأبواب فينا غرباً وجعلوا من عاصمتهم القسطنطينية التي اغتصبوها من البيزنطيين عام ١٤٥٣ مركزاً تحسب له دول أوروبا حساباً . في هذه الحقبة عمّ الكسوف

البلاد العربية بحواضرها المدينة ودمشق وبغداد والقاهرة ، هذه الحواضر التي كانت كل منها عاصمةً لامبراطورية ومركزاً لثقافة فأصبحت الآن مقراً لولاة يعينهم الباب العالي ومرابطَ لحاميات ترسلها الاستانة ، تلك المدينة التي تطاولت اليها فيما مضى أعناق أبناء دمشق وبغداد غير مرةٍ عندما كانت الاولى عاصمة الامويين والثانية قاعدة العباسيين . وانتظمت الامبراطورية العثمانية عدا العنصر العربيّ عناصر شتى من ارمنية وسريانية وكردية ويونانية وبلقانية وغيرها لا تجمعها بالعنصر الحاكم ولا تجمع بغضها ببعض أية جامعة وثيقة قومية كانت رابط القوة المسيطرة ليس غير . ومن هنا ساهمت كلها ، بمقادير مختلفة ، في احتمال المظالم ودفع الضرائب والخضوع لنظم قلم المراقبة وعسف ديوان الجاسوسية . فلا غرو إذا لم نجد في القرون الاربعة التي ابتدأت عام ١٥١٧ أثراً عربياً ما يتّصف بالابداع والابتكار سواء في العلم والادب أو في الفنّ .

ولقد قام من السلاطين مَن حاول إجراء إصلاحات في الادارة والجندية كسليم الثالث (١٧٨٩ — ١٨٠٧) ومحمود الثاني (١٨٠٨ — ١٨٣٩) . ولكن التنظيمات التي سنوها لم تُنفذ . ومثل ذلك كان نصيب الخطّ الشريف الذي نشرهُ عبد المجيد الأول عام ١٨٣٩ والخطّ الهمايوني الذي نشره عام ١٨٥٦ وتوخى بهما إقامة العدل ورفع الحيف والمساواة بين جميع أفراد الرعية بقطع النظر عن الدين والملة . وما ان

جاء دور عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ - ١٩٠٩) حتى قُضي على كل نزعة حرّة في المملكة وطُمِس كل قبس من نور .

ولكنّ بعض الولايات العربية أفلتت بعض الافلات من هذا النير المخوف وتمتعت بشيء من الحكم الذاتي . فانتهت السيادة التركية في مصر إلى أن تصبح منذ أوائل القرن التاسع عشر اسمية فقط . وهي كانت أبداً كذلك في الجزيرة العربية باستثناء بعض المراكز البحرية أو المجاورة للبحر من أعمال الحجاز واليمن . أما الهلال العربي ، بما فيه العراق وسورية الكبرى ، فبقي مخسوفاً طيلة هذه الحقبة يئن أبناؤه من جور الحكام الاتراك ، فعمّ الفقر وخيم الجهل وقلّ عدد السكان في هذه الديار خلا جبل لبنان الذي احتفظ أبناؤه - الدروز في الجنوب والموارنة في الشمال - بمقدار من الحرية الفردية والقومية ، والذي تمتع بنظام إقطاعيّ مستقلّ أو شبه مستقل ولا سيما أثناء ولاية الامير فخر الدين المعنّي الثاني (١٥٨٥ - ١٦٣٥) وولاية الامير بشير الشهابي الكبير (١٧٨٨ - ١٨٤٠) . وبعد حوادث سنة الستين اعترف الباب العالي باستقلال لبنان الداخلي تحت حماية الدول الاوروبية الخمس الكبرى .

وكانت مصر أول بلاد عربية اللسان أفاقت من سباتها وأحكمت العلاقات الحيوية مع بلدان أوروبا الغربية ، وذلك ابتداء من غزوة نابليون عام ١٧٩٨ . فقد أدخل نابليون إلى هذا القطر مطبعةً عربية كان قد غنمها من رومة وأنشأ أول هيئة

علمية يمكن اعتبارها مجمعاً . وبذلك ولّد ، من حيث لم يحتسب ، شرارةً فكرية ما لبثت ان أضرمت ناراً امتدّ لهيبها . وكان في الجيش العثماني الذي ساهم في إجلاء نابوليون عن وادي النيل ضابط ألبانيّ الجنس تركيّ اللسان اسمه محمد علي وهو الذي تمكن فيما بعد من توطيد سلطته على البلاد بأسرها وتأسيس الدولة الخديوية في ظلّ الخلافة العثمانية . ومن أجل ما قام به محمد علي من الخدمات للشرق ولمصر بخاصة انه عرّض بلاده لاستقبال المؤثرات الخارجية من ثقافية وعلمية وأرسل بعثات من الطلبة المصريين إلى فرنسا . وكان محمد علي يحلم بانشاء امبراطورية عربية تتمركز في عاصمته القاهرة قبل أن كان أبناءالعربية على شيء من الوعي القومي أو الاستعداد للانضمام إلى جامعة شاملة . وبعد أن سحقت جيوشه القوات الوهابية في الجزيرة سارت عام ١٨٣١ بقيادة ابنه ابراهيم باشا إلى سورية فاستخلصتها من أيدي بني عثمان وكادت تقضي على تلك الخلافة بأسرها لولا تدخل انكلترا وغيرها من الدول الاوروبية ودعمها العرش العثماني المتداعي .

وجاءحكم ابراهيم باشا للبلاد الشامية (١٨٣١ — ١٨٤٠) فاتحة عهد جديد فتحت فيه البلاد أبوابها للبعثات والارساليات الاجنبيّة ، فكثر فيها عدد المعلمين والاطباء والزائرين والسياح من بروتستانت وكاثوليك ومن فرنسيين وبريطانيين واميركان . وأنشئت في البلاد على أثر ذلك

مدراسُ ومكاتب ومطابع أجنبية ووطنية ، وتشكلت جمعيات علمية وأدبية ، وترجمت كتب دينية وفلسفية وعلمية ، وكان من نتيجة ذلك كله ان تلقحت العقلية العربية بلقاح الفكر الاوروبي الحديث وان تسربت إلى البلاد أفكار جديدة في الاقتصاد والسياسة والاجتماع وغيرها من الآراء الحديثة ذات العلاقة بالديمقراطية العصرية والقومية الوطنية . والواقع ان هذه اليقظة التي تمّت للشرق العربي من عصوره المظلمة بفضل المنبّهات الاوروبية الغربيّة والاميركية تماثل يقظته في القرن التاسع عندما كانت المنبهات بالاكثر يونانية وتعارض يقظة الغرب في القرن الثاني عشر التي سارت فيها المنبهات من الشرق إلى أوروبا .

على ان الجزيرة العربية لم تتعرض لهذه العوامل كما تعرّضت لها اخواتها في الشمال ، وذلك بداعي اعتزال الجزيرة الجغرافي ومحافظتها الدينية وعصبيتها الموضعية . فبقيت حضارتها من طراز العصور الوسطى ولم تصطبغ بألوان حديثة . وليست الاصلاحات التي أحدثها مؤخراً ابن سعود على أهميتها لتغير كثيراً من جوهر الحال . ولقد كانت الجزيرة في مطلع الحرب الاوروبية الأولى مركزاً لحركة قام بها الشريف حسين ترمي إلى الوحدة العربية السياسية . وهذه هي المحاولة الثانية ، في سبيل هذه الوحدة ، بعد محاولة محمد علي ، وقد فشلت لمجيئها قبل أوانها .

وكان من نتيجة الاحتكاك بين العقلية السورية والنتاج

الفكري الغربيّ ان تولّدت مبادىء القومية العربية الشاملة واستمدت وحيها بالاكثر من النظريات السياسية الاميركية – بخلاف القومية التركية التي جاءت متأخرة عن العربية والتي استمدّت إلهامها من مبادىء الثورة الافرنسية . وإنما كان ظهور مبادىء القومية العربية في العقد السابع من القرن الفائت على يد رجال الفكر السوريين ، وغالبهم من اللبنانيين المسيحيين ، الذين تثقفوا في المدارس الاميركية في بلادهم ووجدوا في مصر الخديوية جواً أكثر ملاءمة لجهودهم العلمية والسياسية .

على ان النهضة العربية كانت في بادىء أمرها حركة فكرية مجردة قِوامها إحياء اللغة العربية ودرس آثارها والاشادة بماضي العروبة المجيد . وما لبثت ان استوحت من الماضي ما حملها على التطلع إلى المستقبل فجرّت وراءها نهضة قومية سياسية تستهدف الاستقلال الشامل والوحدة العربية . غير ان هذه النهضة القومية السياسية تطوّرت فيما بعد وتنوّعت بمقتضى الموجبات المحلية والمشاكل الموضعية التي اصطدمت بها ، فاتخذت في مصر بعد عام ١٨٨٢ شكل المقاومة للاحتلال البريطاني وفي سورية شكل المقاومة للسياسة التركية وسياسة التتريك التي اعتنقها حزب تركيا الفتاة . وكذلك كان شأن فلسطين التي تولدت فيها بعد الحرب العالمية الأولى قوميةٌ فلسطينية بفضل الاصطدام بالانتداب البريطاني والحركة الصهيونية، وشأن العراق الذي تمخّض بروح عراقية بسبب

مقاومة الانتداب البريطاني . أمّا لبنان الذي كان في أول أمره راضياً عن الانتداب فقد انتهى أخيراً إلى استنكاره والتخلص منه وإعلان الاستقلال سنة ١٩٤٣ وتخلصت سورية من الانتداب سنة ١٩٤٥ . وفي البلاد العربية اليوم حركة ترمي إلى جمع شملها في اتحاد عربي من دعائمه الأولى الثقافة والاقتصاد .

وهكذا فان هذه الاجزاء العربية في الامبراطورية العثمانية انفصلت بعضها عن بعض بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى . ثم ما كادت تنتهي الحرب العالمية الثانية ويبدو الخطر الصهيوني حتى قوي الشعور في نفوس أبناء هذه الدول العربية الجديدة التي نشأت وأصبحت مستقلة إلى ضرورة الاتحاد والترابط فيما بينها . فظهرت حركة ترمي إلى جمع شملها في اتحاد عربي من دعائمه الآن الثقافة والاقتصاد . وكان من نتائج هذا الشعور إنشاء الجامعة العربية وتوقيع ميثاقها في آذار سنة ١٩٤٥ ، وكان من أعضائها عند انشائها مصر والعراق والعربية السعودية واليمن ولبنان وسورية والاردن ثم انضم اليها بعد ذلك ليبيا وتونس والمغرب والسودان والكويت . ومن هذه الدول اليوم امارة هي امارة الكويت وأربع دول ملكية هي المغرب وليبيا والمملكة العربية السعودية والمملكة الاردنية الهاشمية ، وسبع دول جمهورية هي مصر والسودان وتونس وسورية والعراق ولبنان والجزائر ، وكذلك أعلنت الجمهورية

في اليمن حيث لا يزال الامام البدر يحارب للاحتفاظ بسلطته وملكيّته .

ومما لا ريب فيه ان القومية الحديثة إنما هي بضاعة غربية استوردها العالم ، بما فيه الشرق العربي ، من أوروبا الغربية . وباقتباس مبادئها سار الشرق عن قصد أو عن غير قصد في سبيل التجديد واطّراح التقليد والأخذ بالعلمانية والاتّجاه نحو أهداف الحضارة الغربية .

والواقع ان تعرّض العرب للعوامل الاوروبية الغربية وما نتج عن ذلك من الوعي القومي هو أكبر حدث في تاريخ الشرق العربي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وإذا صح الاستنتاج بالقياس على الاحداث التي تلت القرن التاسع فسيتلو هذا الدور الذي يجتازه الشرق العربي اليوم دور ابداع وابتكار يقوم فيه أبناء العربية بقسطهم من خدمة المدنية والانسانية .

فهرست الأعلام

أ

ب

ت

ث

ج

ص

ط

غ

ف

ق

ك

ه

و

ي

فهرست

٦٥ / ٩ / ٥٢٨

كتب في الحضارة العربية

	ق. ل
* العرب (موجز)	
للدكتور فيليب حتي (الطبعة الثالثة)	٣٠٠
* مختصر تاريخ العرب	
للمؤرخ سيد امير علي	٦٠٠
* الحركات التقدمية في العراق	
للدكتور صلاح الدين المنجد	١٥٠
* المعجزة العربية	
تأليف ماكس فانتاجو	١٢٥
ترجمة الاستاذ رمضان لاوند	
* معالم الفكر العربي في العصر الوسيط	
للدكتور كمال يازجي	٥٠٠
* دراسات عربية	
للدكتور نبيه فارس	١٢٥
* يقظة العرب (مجلد)	
لجورج انطونيوس	
ترجمة الدكتور ناصر الدين الاسد	
واحسان عباس	[illegible]
* الاسلام والعرب	
تأليف روم لاندو – تعريب الاستاذ	
منير البعلبكي	[illegible]

تطلب هذه الكتب من الناشر : دار العلم للملايين

مطابع دار العلم للملايين
بيروت

الثمن ٣٠٠ ق. ل.